أحسن تفسير للقرآن بفيض من الله عز وجل

معالم الإيمان في تفسير القرآن

الجزء الثامن والثلاثون

سورة البقرة الآيات (٢١١-٢١٥)

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح الطائي

استاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

٢ ـــــــ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد الذي أحاط بكل شيء علماً ودل على ذاته بذاته ونفى عن نفسه الجهة والمحل والزمان بان جعل ما في السماوات والأرض ملكاً له والليل والنهار مستجيبة لأمره، وافاض العلوم الضرورية على القلوب فضلاً منه لتؤكد تسلطه على باطن الإنسان وقلبه، وتظهر منافع النفخ من روحه باذعان القلب التام واستعداد النفس لتلقي ما في القرآن من تجليات وإشراقات غيبية تنكشف بكل آية من آياته.

ويتضمن هذا الجزء تفسيراً لخمس آيات من سورة البقرة(٢١١- ٢١٥) وفيها ذكر للنبيين والكتاب والصراط وما تدل عليه من المحبة والعشق والشوق الى الحبيب، وفيها دروس من التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي.

انها عون على خشوع القلب وتيسير للتكاليف والعبادة وعنوان لمقامات الرضا التي هي من أجل مراتب العارفين، ومادة للإيمان واليقين، وحرز دون الوهم والضلالة ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].

ومن خصائص التنزيل ثناء الله عز وجل على نفسه فيه ، ويتجلى هذا الثناء في أبهى حلله في آيات القرآن مع توثيق النعم التي تفضل بها الله سبحانه على الناس مجتمعين ومتفرقين .

---

(١) سورة يوسف ٦٤.

ويبدأ هذا الجزء وهو السابع والثلاثون من كتابنا (معالم الإيمان في تفسير القرآن) بالأمر والخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾[1]، ولم يرد لفظ(سل بني) في القرآن إلا في الآية أعلاه، وفيه تأكيد لتفضيلهم على الناس ، وتفقه للمسلمين في أمور الدين، وبيان إختصاص بني إسرائيل بآيات بينات من جهات:

الأولى : الآيات والمعجزات التي جرت على يد موسى عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾[2].

الثانية : المعجزات التي جاءت على أيدي الأنبياء من بني إسرائيل مثل يعقوب ويوسف داود وسليمان وزكريا ، قال تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[3].

الثالثة : ما تفضل به الله عز وجل على بني إسرائيل من نجاتهم وهلاك عدوهم، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[4].

الرابعة : نعمة المن والسلوى وعدم موت بني إسرائيل جوعاً أو عطشاً في البيداء.

---

(١) سورة البقرة ٢١١.

(٢) سورة الإسراء ١٠١.

(٣) سورة يوسف ٣.

(٤) سورة البقرة ٥٠.

الخامسة : نعمة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

ثم جاء قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2]، وفيه إنذار لكفار قريش ، وزجر من الإنذار بالدنيا وصيرورتها سبباً للإمتناع عن الإيمان وأداء الفرائض.

وأختتمت الآية بالبشارة للمؤمنين بعظيم الثواب في النشأتين، وتتضمن هذه الآيات بيان فضل الله عز وجل على الناس ببعثة الأنبياء وإجتهادهم في التبليغ والبشارة بالجنة للذين آمنوا وإنذارهم بشدة العذاب للذين كفروا.

وفي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورد قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[3]، ثم جاء قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم....﴾[4] ز

وفيه دعوة للمسلمين للصبر، وتحمل الأذى في جنب الله، وهل فيه إخبار عن دخولهم معارك مع الذين كفروا من قريش الجواب نعم، فكانت معركة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، ومعركة أحد في السنة الثالثة للهجرة، وفيها تعرض المسلمون لإنكسار وفقدوا سبعين شهيداً بعد أن كانت الريح والنصر محالفاً لهم فجاء المدد الملكوتي من عند الله، قال

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة البقرة ٢١٢.

(٣) سورة الإسراء ١٠٥.

(٤) سورة البقرة ٢١٤.

تعالى ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[1] ز

ثم كانت معركة الخندق للهجرة ، ثم تفضل الله عز وجل على المسلمين بصلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة ثم فتح مكة في السنة الثامنة، ووقعت معركة حنين في الخامس من شهر شوال سنة ثمان للهجرة إذ إنتصر المسلمون فيها إنتصاراً حاسماً، وإنتفعوا من تجربة معركة أحد فالذين إنهزموا في بداية المعركة رجعوا في الحال إلى ميدان المعركة، قال تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ◆ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[2].

قال ابن إسحاق، وحدثني بعض بني سعد بْنِ بَكْرٍ : أَنّ رَسُولَ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ قَالَ يَوْمَئذ إنْ قَدَرْتُمْ عَلَى بِجَاد ، رَجُلٍ مِنْ بَنِي سَعْد بْنِ بَكْرٍ ، فَلَا يُفْلتَنّكُم ، وَكَانَ قَدْ أَحْدَثَ حَدَثًا فَلَمّا ظَفَر به الْمُسْلمُونَ سَاقُوهُ وَأَهْلَهُ وَسَاقُوا مَعَهُ الشّيْمَاءَ بِنْتَ الْحَارث بْنِ عَبْد الْعُزّى أُخْتَ رَسُول اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ مِنْ الرّضَاعَة فَعَنُفُوا عَلَيْهَا فِي السّيَاق فَقَالَتْ للْمُسْلمينَ تَعَلَمُوا وَاَللّه أَنّي لَأُخْتُ صَاحبِكُمْ مِنْ الرّضَاعَة فَلَمْ يُصَدّقُوهَا حَتّى أَتَوْا بِهَا إلَى رَسُول اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ . قَالَ ابن إسْحَاقَ : فَحَدّثَنِي يَزِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ السّعْدِيّ .

---

(١) سورة آل عمران ١٢٥.

(٢) سورة التوبة ٢٥-٢٦.

قَالَ فَلَمّا أُنْتُهِي بِهَا إلَى رَسُولِ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْه وآله وَسَلّمَ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللّه إنّي أُخْتُك مِنْ الرّضَاعَةِ قَالَ وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَتْ عَضّةٌ عَضَضْتَنِيهَا فِي ظَهْرِي وَأَنَا مُتَوَرّكَتُك ؛ قَالَ فَعَرَفَ رَسُولُ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلّمَ الْعَلَامَةَ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ فَأَجْلَسَهَا عَلَيْه وَخَيّرَهَا ز

وَقَالَ إنْ أَحْبَبْت فَعِنْدِي مُحَبّةٌ مُكْرَمَةٌ وَإِنْ أَحْبَبْت أَنْ أُمَتّعَك وَتَرْجِعِي إلَى قَوْمِك فَعَلْتُ فَقَالَتْ بَلْ تُمَتّعُنِي وَتَرُدّنِي إلَى قَوْمِي .فَمَتّعَهَا رَسُولُ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ وَرَدّهَا إلَى قَوْمِهَا . فَزَعَمَتْ بَنُو سَعْدٍ أَنّهُ أَعْطَاهَا غُلَامًا لَهُ يُقَالُ لَهُ مَكْحُولٌ ، وَجَارِيَةً فَزَوّجَتْ أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى ، فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ مِنْ نَسْلِهِمَا بَقِيّةٌ قَالَ ابن هِشَامٍ : وَأَنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ : { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ } . . . إلَى قَوْلِهِ { وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ })[1].

وإذ إبتدأت أول آية من الآيات التي يتضمنها هذا الجزء بالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يسأل بني إسرائيل، فإن آخر آية ورد تفسيرها فيه تتضمن سؤال المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ...﴾[2].

حرر في الثالث من شعبان ١٤٢٣هـ

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤٥٧.

(٢) سورة البقرة ٢١٥.

قوله تعالى ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ **الآية ٢١١**

الإعراب واللغة

سل بني اسرائيل، سل: فعل أمر مبني على السكون والفاعل ضمير مستتر تقديره انت والخطاب موجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمراد الأمة معه والموضوع الإحتجاج واقامة البرهان، وفي التنزيل ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[1].

بني: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، اسرائيل: مضاف إليه، مجرور وعلامة جره الفتحة بدل الكسرة لأنه ممنوع من الصرف وللعلمية والعجمة.

كم: اسم إستفهام للدلالة على الكثرة ، ويجوز ان تكون خبرية وهي التي يخبر بها عن العدد الكثير وجاءت في المقام استفهامية خبرية في آن واحد وسميت خبرية لأنها لا ترد بصيغة السؤال بل للإخبار.

والظاهر ان (كم) مبتدأ وذكر انها في محل نصب مفعول به ثان لآتيناهم.

آتيناهم: فعل وفاعل ومفعول به أول.

---

(١)سورة يوسف ١٠٨.

من آية : تمييز(كم) و(من) زائدة.

بينة : صفة لآية مجرور مثله.

ومن : الواو إستئنافية، من اسم شرط في محل رفع مبتدأ.

يبدل : فعل مضارع مجزوم وهو فعل الشرط.

نعمة الله: نعمة: مفعول به منصوب وهو مضاف واسم الجلالة مضاف اليه.

من بعد : حرف جر واسم مجرور.

ما جاءته : ما : حرف مصدري، جاء: فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر تقديره(هي) التاء : تاء التأنيث، الهاء : ضمير مفعول به.

فان الله : الفاء : رابطة لجواب الشرط، ان : حرف مشبه بالفعل.

اسم الجلالة: اسمها منصوب، شديد: خبرها وهو مضاف، العقاب: مضاف اليه مجرور بالكسرة، وجملة ان الله وما بعدها في محل جزم جواب الشرط.

(وَالْبَيِّنَةُ) الْحُجَّةُ فَيْعِلَةٌ مِنْ الْبَيْنُونَةِ أَوْ الْبَيَانِ[1].

ويقال استبان الشيء أي ظهر، وتبين الشيء: اتضح وظهرت دلالته بما يمنع من اللبس والخلط بينه وبين غيره من العلامات والصفات.

وفي الحديث المشهور عنه جميع المسلمين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : البينة على من إدعى واليمين على من أنكر)[2].

---

(١) ناصر الدين الخوارزمي المطرزي ٦١٠/ المغرب في ترتيب المعرب.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ١٢٣/٨ .

في سياق الآيات

بعد لغة التوبيخ والإنذار للكافرين جاءت هذه الآية في سياقها ولكنها خاصة في موضوعها بفريق من أهل الكتاب ومتعلقة بالنعم لإقامة الحجة في الأمور الحسية والفضل الإلهي فيما تقدم من الأيام لتجتمع الأدلة والبراهين في الأزمنة الثلاثة الماضي ببيان عظيم النعم، والحاضر بالبعثة النبوية الشريفة ونزول القرآن، والمستقبل بالإنذار والوعيد للمشركين وعبدة الأصنام، والذي يدل في مفهومه على البشارة للمسلمين ولغة التوبيخ في آخر الآية شاملة لكل الكافرين وهي مصاديق أن الدنيا دار الإنذار ، وفيه دعوة للناس للتوبة والإنابة.

وصلة هذه الآية مع الآيات المجاورة السابقة على وجوه :

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمْ...﴾[1]، وفيها مسائل :

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : سل بني إسرائيل هل ينظرون) والآية أعم في دلالتها ومعاني الإحتجاج فيها .

الثاني : سل بني إسرائيل وإلى الله ترجع الأمور .

الثالث : هل ينظرون كم آتيناهم من آية بينة.

الرابع : ومن يبدل نعمة الله هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة.

الخامس : ومن يبدل نعمة الله وإلى الله ترجع الأمور .

السادس : وإلى الله ترجع الأمور فان الله شديد العقاب.

---

(١)سورة البقرة ٢١٠.

الثانية : من إعجاز نظم القرآن مجئ هاتين الآيتين المتجاورتين بصيغة الإستفهام، وكل منهما يتضمن معنى الإنكار والحث على التدبر والتدارك.

الثالثة : بين الآية السابقة وهذه الآية عموم وخصوص مطلق بلحاظ السؤال وجهة الخطاب، وبينهما تباين في الموضوع إذ تتعلق الآية السابقة بخصوص عالم الآخرة، أما آية البحث فتخص النعم الإلهية في الدنيا على فريق من أهل الكتاب.

الرابعة : يفيد الجمع بين الآيتين دعوة الناس لتسخير النعم في طاعة الله، وإتخاذها بلغة للنجاة يوم القيامة.

الخامسة : تضمن كل من الآيتين لغة الإنذار والتخويف من التفريط والإسراف في الأمور، وفي دعاء الربيين من أصحاب الأنبياء الذين قاتلوا معهم ورد في التنزيل ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾[1][2].

السادسة : من مصاديق ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3]، أن آيات الله جلية في الدنيا والآخرة، فتبين آية البحث تفضل الله عز وجل بالبراهين الساطعة في الدنيا، وفي الآخرة يدرك الناس جميعاً إختصاص الملك به سبحانه بآيات منها الحشر وإجتماع أجيال الناس المتعاقبة التي لا يحصيها إلا هو سبحانه في موطن واحد.

السابعة : من مصاديق قول تعالى في خاتمة الآية

---

(١)سورة آل عمران ١٤٧.

(٢)أنظر الجزء الخامس بعد المائة من هذا السفر الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

(٣)سورة آل عمران ١٨٩.

السابقة﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[١]، بلحاظ آية البحث، السؤال والحساب عن نعمة الله، قال تعالى﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٢].

وعن الزبير بن العوام لما نزلت { ثم لتسألن يومئذ عن النعيم } قالوا يا رسول الله : وأي نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال : إن ذلك سيكون[٣].

أي أن الصحابة قالوا ليس من نعيم عندنا إنما نشرب الماء وغذاؤنا التمر ونحن في حال نفير دائم وحرب مستمرة ودفاع دائم لأن العدو حاضر فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لابد من السؤال يوم القيامة، ولم تمر الأيام إلا وجرت الغنائم والأموال كالسيل على المدينة، ولم يجد الزبير بن العوام نفسه إلا وعنده تركة عظيمة وكانت وفاته سنة ست وثلاثين في واقعة الجمل وله من العمر سبع وستون سنة، قال ابن كثير: فأوصى من ذلك بالثلث بعد إخراج ألفي ألف[٤] ومائتي ألف دينار، فلما قضى دينه وأخرج ثلث ماله قسم الباقي على ورثته، فنال كل امرأة من نسائه - وكن أربعا - ألف ألف ومائتا ألف، فمجموع ما ذكرناه مما تركه تسعة وخمسون ألف ألف وثمانمائة ألف[٥].

أي تسعة وخمسون مليون وثمانمائة ألف درهم فضة، كما ذكر أن له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج.

---

(١)سورة الأنفال ٤٤.

(٢)سورة التكاثر٨.

(٣)الدر المنثور ٣٣٩/١٠.

(٤) أي أخرج مليونين.

(٥)السيرة النبوية/ابن كثير ٦٧٨/٤.

وجاءت آية البحث بخصوص النعم الإلهية على بني إسرائيل وهي أكثر من أن تحصى إذ نجاهم الله من فرعون وقومه، وجعلهم ملوكاً، لبيان قانون وهو أن جهاد أصحاب الأنبياء وصبرهم باب يفتح عليهم وعلى ذراريهم النعم في المال والجاه فلابد من إقترانه بالتقوى والصلاح والإستغفار.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً.....﴾[1]، وفيها مسائل :

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه منها:

الأول : يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) ليكون هذا السؤال من الدخول بالسلم ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

الثاني : سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ولا تتبعوا خطوات الشيطان.

الثالث : سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ولا تتبعوا خطوات الشيطان.

الرابع : سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة إن الشيطان لكم عدو مبين.

الخامس : يا أيها الذين آمنوا من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب.

وفيه دعوة للمسلمين لإنذار الناس من سوء عاقبة الجحود

---

(١)سورة البقرة ٢٠٨.

(٢)سورة النحل ١٢٥.

بـالنعم الإلهيـة وهـو مـن مصـاديق ووجـوه خـروج المسـلمين للنـاس في قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

السادس : يا أيها الذين آمنوا انَ الله شديد العقاب.

السابع : ولا تتبعوا خطوات الشيطان فان الله شديد العقاب.

الثامن : أدخلوا في السلم كافة ومـن يبـدل نعمـة الله مـن بعـد مـا جاءته فان الله شديد العقاب.

التاسـع : أدخلـوا في السـلم كافـة فـان الله شـديد العقـاب ، ليكـون الـدخول في السـلم والتقيـد بأحكـام الشـريعة الإسـلامية واقيـة من العقاب الشديد .

الثانيـة : بـين لغـة الخطـاب في آيـة البحـث والسـياق عمـوم وخصـوص مطلـق، إذ ورد السـؤال في البحـث خاصـاً بـالنبي محمـد صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم بينمـا وردت آيـة السـياق نـداء عامـاً للمسـلمين، مـع التـداخل الموضـوعي في ذات النـداء، إذ يـأتي الخطـاب للنبي محمـد صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم ويـراد منـه الأمـة إلا ما ورد الدليل على القصد والتعيين فيه.

الثالثـة : ذكـرت آيـة البحـث الـنعم الـتي تفضـل الله عـز وجـل بهـا علـى بـني إسـرائيل، وتضـمنت آيـة السـياق نعمـاً عظيمـة رزقهـا الله للمسلمين منها:

الأولى : النداء بصيغة الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الثانيـة : الأمـر الإلهـي للمسـلمين بالـدخول في السـلم والتسـالم والوئام فيما بينهم.

الثالثـة : حـث المسـلمين علـى الشـكر لله علـى إجتمـاع نعمـة الإيمان والأمن، وهذا الحث نعمة عظيمة عليهم.

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

الرابعة : صيغة العموم في الدخول في السلم، وعدم خروج طائفة من المسلمين عن ربقة الجماعة تحت لواء الإسلام ومفاهيم الأمن.

فقوله تعالى(كافة) سور الموجبة الكلية التي يدل على وجوب تآخي المسلمين في مرضاة الله عز وجل .

الخامسة : لقد أراد الله للمسلمين دخولهم جميعاً في السلم ليكون مقدمة ونوع طريق لدخولهم الجنة، قال تعالى﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

السادسة : تحذير المسلمين من إتباع خطوات الشيطان، الذي يريد الإضرار بهم في الدنيا والآخرة، وهل تسمية المسلمين في أول الآية بصفة الإيمان مدد للوقاية من إتباع خطوات الشيطان، الجواب نعم[2]، وكذا دخولهم في السلم جميعاً لأنه من مصاديق﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[3].

فمن البر والتقوى المناجاة باجتناب إغواء الشيطان وإتباع خطواته في فعل المعاصي والمآثم.

السابعة : تفضل الله عز وجل باخبار المسلمين بشدة عداوة الشيطان لهم، ليكون من الإعجاز والنعم العظيمة على المسلمين

---

(١)سورة النحل ٣٢.

(٢) أنظر الجزء الثاني والثلاثين بعد المائة الذي جاء خاصاً بنداء الإيمان، أي قوله تعالى﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

(٣)سورة المائدة ٢.

تلاوتهم لآيات القرآن عدة مرات كل يوم، لتكون تذكيراً يومياً متجدداً بعداوة الشيطان، ولزوم أخذ الحائطة من النفس الشهوية، ومن رفقاء السوء ، قال تعالى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[1].

وجاءت القراءة الجهرية في الصلاة لينتفع السامع من التحذير الوارد في آية السياق.

ومن المنافع في المقام تعاهد الصلاة وإستحضار نعم الله عز وجل والحرص على عدم تبديلها، فتأتي الآية القرآنية بخصوص أمة من الأمم السابقة ليتخذها المسلمون موعظة وعبرة وسبيل نجاة ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2].

الرابعة : تضمنت آية البحث الإنذار من تبديل نعمة الله، فهل هذا التبديل والتحريف من إتباع خطوات الشيطان الجواب نعم، وقد كان إبليس مع الملائكة في الجنة فعصى أمر الله عز وجل في السجود لآدم.

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا جمع الله الأوّلين والآخرين وقضى بينهم وفرغ من القضاء ، يقول المؤمنون : قد قضى بيننا ربنا وفرغ من القضاء ، فمن يشفع لنا إلى ربنا؟

فيقولون : آدم ، خلقه الله بيده وكلمه . فيأتونه فيقولون : قد قضى ربنا وفرغ من القضاء ، قم أنت فاشفع إلى ربنا .

فيقول : ائتوا نوحاً ، فيأتون نوحاً عليه السلام فيدلهم على

---

(١) سورة يوسف ٥٣.

(٢)سورة يوسف ١١١.

إبـراهيم عليـه السـلام ، فيـأتون إبـراهيم عليـه السـلام فيـدلهم علـى موسى عليه السلام .

فيـأتون موسـى عليـه السـلام فيـدلهم علـى عيسـى عليـه السـلام ، فيأتون عيسى عليه السلام فيقول : أدلكم على العربي الأمي .

فيـأتوني ، فيـأذن الله لـي أن أقـوم إليـه ، فيثـور مجلسـي مـن أطيـب ريـح شمهـا أحـد قـط . . . حتـى آتـي ربـي فيشـفعني ويجعـل لـي نـوراً مـن شـعر رأسـي إلى ظفـر قـدمي . ويقـول الكـافرون عنـد ذلـك : قـد وجـد المؤمنـون مـن يشـفع لهـم ، مـا هـو إلا إبلـيس . . . فهـو الـذي أضـلنا . فيـأتون إبلـيس فيقولـون : قـد وجـد المؤمنـون مـن يشـفع لهـم ، قـم أنـت فاشـفع لنـا فإنـك أنـت أضـللتنا ، فيقـوم إبلـيس فيثـور مجلسـه مـن أنـتن ريـح شمهـا أحـد قـط ، ثـم يعظـم لجهـنم ويقـول عند ذلك { إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم..}[1].

الخامسة : يفيـد الجمـع بـين خـاتمتي الآيـتين الملازمـة بـين إرتكـاب المعاصـي وبـين العقـاب الأليـم مـن عنـد الله، ليكـون النـداء في أول آيـة السـياق﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مناسـبة للحيطـة والحـذر مـن العقـاب، وسـبيلاً لهدايـة النـاس إلى الإيمـان، وإنـذارهم مـن إتبـاع خطـوات الشـيطان وبلحـاظ وجـوب قيـام المسـلمين بـالأمر بـالمعروف والنهـي عن المنكر، يكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : ولا تتبعـوا خطـوات الشـيطان ،وحثـوا النـاس علـى عـدم إتباعها.

الثـاني : ولا تتبعـوا خطـوات الشـيطان ومنهـا القعـود عـن الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثالث : ولا تتبعوا خطوات الشيطان ومنها تبديل نعم الله.

---

(١)الدر المنثور ٤٢/٦.

الرابع : ولا تتبعوا خطوات الشيطان ومنها الغفلة عن العقاب الأليم يوم القيامة لمن يتبعها.

لقد إبتدأت آية السياق بنداء الإيمان(يا أيها الذين آمنوا) وفيه تشريف وإكرام للمسلمين، وتأكيد على موضوعية الإيمان في مضامين الآية من جهات:

الأولى : دخول المسلمين في السلم والوفاق والوئام، ونبذ الفرقة والإختلاف، ليكون هذا الدخول واقية من تعدي وظلم الذين كفروا وسبباً لإلقاء الفزع والرعب في قلوبهم من المسلمين، لتكون آية السياق من مصاديق قوله تعالى﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[1].

الثانية : صفة العموم الإستغراقي في دخول المسلمين في السلم والسلام من غير تخلف جماعة أو طائفة منهم لمجيء الآية بصيغة ولفظ الموجبة الكلية(كافة) لبيان أن الدخول في السلم حكم للمسلمين والمسلمات جميعاً من غير إستثناء فيصح معه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثالثة : نهي المسلمين عن محاكاة الشيطان في قبيح أفعاله، وإغوائه، ليكون هذا النهي من خصائص﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

فصحيح أن الآية أمر للمسلمين إلا أن تشرف المسلمين بتلقيه فضل عظيم من عند الله عز وجل عليهم، وهداية لهم إلى سواء

---

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

السبيل، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، لأن أمر الله لهم بالعصمة من إتباع خطوات الشيطان من الصراط المستقيم، وكذا تعاونهم على إجتناب السيئات والمعاصي.

ثم عطفت الآية السابقة على آية النداء بقوله تعالى ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[2]، لتجدد فضل الله عز وجل على المسلمين وحضور عفوه في حال خطئهم وزللهم سواء بتعلق هذا الزلل بإتباع خطوات الشيطان أو بمقدمات هذا الإتباع، أو بغيره من التقصير والقصور، ولو نوى المسلم إتباع خطوات الشيطان كما لو حدثته نفسه بالزنا فهل هو من إتباع خطوات الشيطان الذي تذكره آية السياق الجواب لا، إنما المدار في المقام على الفعل الخارجي.

وتقدير الجمع بين الآيتين: يا أيها الذين آمنوا إن زللتم من بعد جاءتكم البينات فأعلموا أن الله عزيز حكيم، لبيان أن مضامين الآية والعفو الذي تتضمنه أعم موضوعاً وحكماً من مسألة إتباع خطوات الشيطان.

وقد تعطف على آية النداء آيات متعددة، فهل آية البحث معطوفة عليها الجواب نعم لوحدة الموضوع في تنقيح المنط، وإبتداء الخطاب فيها بالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3].

الثالث: صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة البقرة ٢٠٩.

(٣) سورة البقرة ٢١١.

يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(١)، وفيه مسائل:

الأولى : بيان إخلاص المسلمين لله ورسوله ليكون كل مؤمن أسوة لإخوانه المسلمين بالتوقي من إتباع خطوات الشيطان.

الثانية : محاكاة المسلمين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الإحتجاج على أهل الكتاب وغيرهم.

الثالثة : من مصاديق شراء النفس إبتغاء مرضاة الله إقامة الحجة والبرهان على التوحيد وصدق النبوة، وعدم الخشية من الظالمين.

الرابعة : بعث المسلمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتخاذ السؤال والإستفهام طريقاً ودعوة للناس للإيمان، قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(٢).

الخامسة : أختتمت آية السياق بالبشارة للمسلمين بالرأفة وتغشي رحمة الله لهم في الدنيا والآخرة، بينما أختتمت آية البحث بالتخويف والوعيد للكافرين بالنعم الإلهية، بقوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٣).

(١) سورة البقرة ٢٠٧.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

(٣) سورة الأنفال ١٣.

إعجاز الآية

تعليم المسلمين كيفية اقامة البرهان وإرشادهم إلى مادة الإحتجاج والبشارة بعظيم الفضل الإلهي عليهم، لأن ما عند الأمم الأخرى سيكون عند المسلمين، ومن اعجازها اجتماع الإخبار والتذكير بالنعمة والوعيد عن تركها.

تدل الآية بالدلالة التضمنية على إمكان ووقوع المحادثة والإحتجاج بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبني إسرائيل، وفيه دعوة لإتخاذ الحكمة وإقامة البرهان دعوة للإيمان، وتدعو الآية أهل الكتاب إلى الجامع المشترك بينهم وبين المسلمين بكثرة نعم الله عز وجل ووجوب شكره تعالى عليها، قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾[1].

وتبين الآية أن الله عز وجل يحب أن يذكر العباد نعمه عليهم، وهذا الذكر سبب للصلاح، فصحيح أن الآية جاءت لسؤال بني إسرائيل ولكنها عامة للناس جميعاً بلزوم ذكر نعم الله عز وجل عليهم سواء الخاصة منها والعامة.

ولا يختص هذا الذكر بتعداد النعم التي يتلقاها الجيل والطبقة من الأمة، بل يشمل ما أنعم الله عز وجل به على الآباء والأجداد بلحاظ وصول هذه النعم إلى الذراري.

وتفتح الآية باباً من الإحتجاج للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين على الأمم الأخرى لبيان نعم الله عليهم، وجعلها وسيلة لتذكيرهم بوجوب الإيمان والإقرار بالتوحيد،

---

(١)سورة آل عمران ٦٤.

وإخلاص الشكر لله عز وجل، وقد فاز المسلمون بمقامات الشكر والحمد، إذ يتلو كل مسلم ومسلمة وإلى يوم القيامة وعدة مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب العيني قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، ليكون موضوع الحمد من اللامتناهي، لقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[2].

ويمكن تسمية هذه الآية الكريمة آية(**سل بني إسرائيل**) ولم يرد لفظ(سل بني) في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة.

الآية سلاح

في الآية خزي للذين كفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قريش وهي سلاح بيد المسلمين وفيها بيان واخبار عن تفضيل بني اسرائيل ولزوم مقابلته بالشكر والثناء والإنقياد الى احكام النبوة وسنن التنزيل والنسخ في الشرائع، وهي دعوة للمسلمين بالشكر على النعم وتعاهدها والحفاظ عليها بالإمتثال والتسليم.

توجه الأمر في آية البحث إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لسؤال بني إسرائيل، وفيه بيان لعظيم منزلته بين الناس لأنه منفرد يسأل أمة بصيغة الإستفهام وشاهد على منزلة الأنبياء، وفي إبراهيم قال تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾[3]، وتتجلى في الآية معجزة أخرى للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأمر

---

(١)سورة الفاتحة ٢.

(٢)سورة ابراهيم٣٤.

(٣)سورة النحل ١٢٠.

عند الله له بالسؤال عن نعم الله.

وهذا السؤال جامع لأمرين :

الأول : الإستفهام التقريري.

الثاني : الإستفهام الإنكاري.

ليكون درساً للمسلمين في إستحضار نعم الله عليهم، وإقتران تلقيها وذكرها بالشكر لله، بلحاظ أن ذات الذكر للنعمة شكر له سبحانه.

وهل يصح تقدير الآية : سل المسلمين كم آتيناهم من آية بينة) الجواب نعم بلحاظ أنه إستفهام تقريري وتذكير بفضل الله عز وجل على المسلمين فليس من أمة إلا ونعم الله عز وجل عليها أكبر وأكثر وأعظم من أن تحصى.

وجاء القرآن والسنة النبوية بالتذكير بالنعم والحث على شكر الله عليها، قال تعالى﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، ومن النعم ما يأتي بالهداية وموضوعها وأسبابها.

وعن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يوم خيبر لاعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها فلما اصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يرجو أن يعطاها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أين علي بن أبي طالب قالوا يارسول الله هو يشتكي عينيه فارسل إليه فبصق في عينه ودعا له فبرأ مكانه حتى لكأنه لم يكن به شئ فاعطاه الراية فقال يارسول الله اقاتلهم حتى يكونوا مثلنا.

---

(١)سورة ابراهيم٧.

قال على رسلك انفذ حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الاسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فيه من الحق، فوالله لان يهدي الله بك الرجل الواحد خير لك من حمر النعم[١].

مفهوم الآية

من آيات القرآن الإعجازية سنخية خطابه العام الإنحلالي المتصل الى يوم القيامة، فيأتي الخطاب القرآني للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن كل مسلم ومسلمة يعلمان بتوجه الخطاب اليهما وعلى نحو متجدد في كل يوم فهو تذكير بالنعم واقامة الحجة على الناس يلزم تعاهد سنن التوحيد .

لا يستطيع احد إحصاء ما في هذه الآية من المنافع وما سببته من إنحسار العداء ضد الإسلام والجدال مع المسلمين بغير حق.

لقد جعلت هذه الآية الناس يتدبرون الآيات الكونية والتنزيلية .

وجاءت بالبرهان الذي يدل على تواتر النعم عليهم ولم تكن مجملة بل ان آيات القرآن تفصيل وبيان لها، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢].

و(كم) في الآية استفهامية يُسأل بها عن كمية النعم وهي ايضاً خبرية تفيد الكثرة والتعدد، وإذا فصل بين كم الخبرية ومميزها بفعل متعد فيجب الإتيان بـ(من) للفصل بين التمييز ومفعول

---

(١) البيهقي/السنن الكبرى ٩/١٠٧.

(٢) سورة يونس ٣٧.

الفعل المتعدي كما في قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ (١)، وفي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ (٢).

قال مجاهد (من كل سبط من بني إسرائيل رجال ، أرسلهم موسى إلى الجبارين ، فوجدوهم يدخل في كم أحدهم اثنان ، ولا يحمل عنقود عنبهم إلا خمسة أنفس بينهم في خشبة ، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس وأربعة.

فرجع النقباء كل منهم ينهى سبطه عن قتالهم إلا يوشع بن نون وكالب بن باقية . أمرا الأسباط بقتال الجبارين ومجاهدتهم ، فعصوهما وأطاعوا الآخرين ، فهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما ، فتاهت بنو إسرائيل أربعين سنة يصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا في تيههم ذلك.

فضرب موسى الحجر لكل سبط عيناً حجر لهم يحملونه معهم، فقال لهم موسى : اشربوا يا حمير . فنهاه الله عن سبهم.

وقال : هم خلقي فلا تجعلهم حميراً . والسبط كل بطن مثل بني فلان) (٣).

وبالإضافة الى تعدد النعم فان الآية تظهر اتصال النعم وبقاءها عند بني اسرائيل حتى ايام نزول القرآن ليكون للآية معنى الإنذار والتحذير والتأديب.

الإنذار للزوم الشكر على تلك النعم بالتسليم بالنبوة، واجتناب زوالها .

---

(١) سورة القصص ٥٨.

(٢) سورة المائدة ١٢ .

(٣) الدر المنثور ٣٤٢/٣.

والتحذير من زوالها وعدم بقائها لأنها تدور مدار الإيمان ولا تجتمع النعم الخاصة مع الكفر والجحود.

والتأديب لما في الآية من دعوة بني اسرائيل لتعاهد هذه النعم بالدخول في الإسلام وتصديق الآيات النازلة من عند الله تعالى.

وجاءت الآية بصيغة الأفراد للدلالة على الكثرة والجنس وبيان عظيم فضله تعالى واحسانه وكرمه، ومن مفاهيم الآية البشارة للمسلمين بتوالي النعم سواء بلحاظ الإيمان او بالأولوية خصوصاً وانه تعالى كريم ومن كرمه اذا انعم على اهل الأرض لا يرفع تلك النعمة، فينالها اهلها ومن يستحقها ممن يتعاهد احكام التوحيد في الأرض ويجاهد في سبيله تعالى، قال تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

وتتضمن خاتمة الآية الوعيد والتخويف والإنذار لأهل الجحود والضلالة لأن الحجة على صاحب النعمة اكبر مما هي على غيره من الناس باعتبار انها تذكرة وآية عقلية وحسية تستلزم الإعتبار والإتعاظ بالإضافة الى الشكر والثناء وهذا الشكر يتجلى بابهى مصاديقه وهو الإيمان بالنبوة واجتناب تحريف الكتاب والإمتناع عن معاداة الإسلام، قال تعالى ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

---

(١) سورة القصص ٥.

(٢) سورة العنكبوت ١٧.

الآية لطف

إبتدأت آية البحث بالأمر(سل) ويتصف الأمر من عند الله بأنه تكليف، والأصل فيه الوجوب إلا مع القرينة على إرادة الندب، ومن خصائص هذا التكليف أمور:

الأول : إنه خير محض، وفيه صلاح.

الثاني : التكليف من عند الله عز وجل رحمة بذات المكلف سواء كان بصيغة الإفراد أو الجمع، ورحمة بالناس جميعاً.

الثالث : التكليف من عند الله فضل ولطف منه تعالى، وفي تحويل القبلة إلى البيت الحرام ورد قوله تعالى﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[1].

الرابع : لما تفضل الله وبيّن علة خلق الناس بقوله تعالى﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

جاء التكليف لإصلاح الناس للعبادة ودوام النعم عليهم.

ترى لماذا لم تجعل الآية أعلاه العبادة مقيدة بالخلافة أو بهبوط الإنسان في الأرض، الجواب لبيان إقامة الحجة على آدم بأن تكليفه إبتدأ من ساعة خلقه، فقد أكل هو وحواء من الشجرة وهما عبدان لله عز وجل، قال تعالى﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ

(١) سورة البقرة ١٤٣.

(٢)سورة الذاريات ٥٦.

الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾[١].

وتذكر آية البحث بني إسرائيل بعبوديتهم لله عز وجل عند مجئ النعم من جهات :

الأولى : عند نزول هذه الآية.

الثانية : الأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بسؤالهم عن النعم.

الثالثة : عند تحقق المصداق العملي لهذا الأمر بسؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين لبني إسرائيل عن الآيات والمعجزات التي رزقهم الله عز وجل على يد موسى عليه السلام والأنبياء من بني إسرائيل، قال تعالى﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾[٢] .

فتتضمن الآية أعلاه الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بسؤال بني إسرائيل، وكذا آية البحث .

وعن قتادة في قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾[٣]، حتى بلغ:(مجرمين)، قال: أرسل الله عليهم الماء حتى قاموا فيه قياماً ، فدعوا موسى، فدعا ربّه فكشفه عنهم، ثم عادوا لسوء ما يحضر بهم.

---

(١) سورة الأعراف ١٩-٢٠.

(٢) سورة الأسراء ١٠١.

(٣) سورة الأعراف ١٣٣.

ثم أنبتت أرضهم، ثم أرسل الله عليهم الجراد، فأكل عامة حُروثهم وثمارهم. ثم دعوا موسى فدعا ربه فكشف عنهم، ثم عادوا بشرٍّ ما يحضر بهم. فأرسل الله عليهم القمل، هذا الدبى الذي رأيتم، فأكل ما أبقى الجراد من حُروثهم، فلحسه.

فدعوا موسى، فدعا ربه فكشفه عنهم، ثم عادوا بشرّ ما يحضر بهم. ثم أرسل الله عليهم الضفادع حتى ملأت بيوتهم وأفنيتهم. فدعوا موسى، فدعا ربه فكشف عنهم.

ثم عادوا بشرّ ما يحضر بهم، فأرسل الله عليهم الدم، فكانوا لا يغترفون من مائهم إلا دمًا أحمر.

حتى لقد ذُكر أنّ عدو الله فرعون، كان يجمع بين الرجلين على الإناء الواحد، القبطي والإسرائيلي، فيكون مما يلي الإسرائيلي ماءً، ومما يلي القبطي دمًا. فدعوا موسى، فدعا ربه، فكشفه عنهم في تسع آيات[1].

الخامس: التكليف مناسبة للأجر والثواب في الدنيا والآخرة، ليكون لطفاً ورحمة تترشح عنه مصاديق غير متناهية من اللطف وفي الربيين من أصحاب الأنبياء الذين أخلصوا الطاعة لله ورسله ورد في التنزيل ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾[2].

وكل آية بينة جاءت لبني إسرائيل هي لطف من الله عز وجل، قال تعالى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[3]، من جهات:

---

(١) تفسير الطبري ٦٠/١٣.

(٢)سورة آل عمران ١٤٨.

(٣) سورة الأنعام ٩٠.

الأولى : الآية الحسية لطف ببني إسرائيل، وتذكير بوجوب الثبات على الإيمان .

الثانية : الآية التي جاءت لبني إسرائيل لطف بالمسلمين وبيان إكرام الله عز وجل للموحدين وأتباع الأنبياء من الأمم السابقة.

الثالثة : كل آية ومعجزة لطف بالناس جميعاً، ودعوة لهم للهداية، وحجة متجددة إلى يوم القيامة .

وهل سؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم بقوله تعالى ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لطف .

الجواب نعم من وجوه:

الأول : الآية وما فيها من السؤال والأمر به لطف ببني إسرائيل لما فيها من التذكير بنعم الله والدعوة لإستحداث الشكر عليها.

وفي الآية حث للناس جميعاً للتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[1].

الثاني : الآية لطف بالمسلمين ، لأنها مدرسة في الإحتجاج، وإقامة البرهان الحسي الحاضر، والسؤال الوارد في الآية سمو ورفعة من جهات:

الأولى : مجئ الأمر بالسؤال من عند الله عز وجل، وكل أمر منه سبحانه خير محض ونعمة عظيمة.

---

(١) سورة النساء ٧٩-٨٠.

الثانيـة : تعـيين الجهـة والطائفـة الـتي يتوجـه لهـا السـؤال، إذ يتوجـه لصـاحب الكمـالات الإنسـانية محمـد صـلى الله عليـه وآلـه وسلم.

الثالثـة : الغايـة الحميـدة مـن السـؤال بأنـه نـوع طـرق للهدايـة والإيمان،وبرزخ دون الجحود والضلالة والصدود عن الحق.

لقـد أراد الله عـز وجـل أن تلـين القلـوب للـنعم الإلهيـة مـن أجـل دوامها وزيادتها.

الرابعـة : دعـوة النـاس للتوبـة والإنابـة، فمـن إعجـاز الآيـة أن تجعـل التـذكير بـالنعم مناسـبة للإسـتغفار، قـال تعـالى﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[1].

الثالـث : إرادة تفقـه المسـلمين وإرتقـائهم في المعـارف وسـؤالهم أنفسـهم عـن نعـم الله عـز وجـل علـيهم، قـال تعـالى﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾[2].

---

(١)سورة البقرة ٤٠.

(٢) سورة المائدة ٣.

إفاضات الآية

يتلقى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الوحي والتنزيل من عند الله رأفة من الله عز وجل بالناس، ولهدايتهم لسبل الصلاح، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

بأن يأتي الأمر من عند الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بسؤال بني إسرائيل عن الآيات والحجج الباهرات التي رزقهم الله خلافاً ووفاقاً للنواميس وقانون السببية، والعلة والمعلول إلى جانب الآيات التي تأتيهم والناس جميعاً وفق هذا القانون الذي هو رحمة بالناس.

ومن أسرار خلافة الإنسان في الأرض، والإبتلاء العام فيها، وكأن الأشياء منقادة له، قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾(٢).

إذ ورد لفظ (سخر لكم) أربع مرات في آيتين متعاقبتين مع تعدد موضوع التسخير، وكل فرد منها تترشح عنه نعم متجددة.

وتوثق آية البحث المعجزات التي رزقها الله بني إسرائيل لتبقى حاضرة في أذهان أجيال المسلمين والناس إلى يوم القيامة، وتمنع من التحريف فيها وفيه مناسبة لتوجه المسلمين بالدعاء إلى

---

(١)سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة ابراهيم ٣٢-٣٣.

الله ليرزقهم النعم، قال تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(١).

ومن إفاضات الآية الإتعاظ من الأمم السابقة، وتفقه المسلمين في الدين، وإدراكهم الحاجة لتعاهد النعم بالشكر لله، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٢)، ومنها تنمية ملكة الجدال عند المسلمين بما يثبت أقدامهم في منازل الهداية والإيمان.

وعند خلق آدم إحتجت الملائكة على جعل خليفة في الأرض كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(٣)، فاجابهم الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤)، لبيان قانون وهو أن توالي النعم على الناس يقترن بقيام أمة مؤمنة تذكر الناس بأمور :

الأول : مجئ النعم من عند الله، ولا يقدر عليها غيره.

الثاني : توالي النعم من الله عز وجل على البر والفاجر.

الثالث : بيان فضل الله عز وجل على بني إسرائيل ، وأنه خصهم بنعم عظيمة من بين الناس .

---

(١) سورة الطلاق ٢-٣.

(٢) سورة يوسف ١١١.

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

الرابع : وجوب مقابلة النعم بالشكر لله بالإيمان والصلاح، قال تعالى﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(١).

الخامس : فوز المسلمين بالنعم من عند الله، وتلقيها بالإقامة على أداء الفرائض والواجبات العبادية.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبصيغة الأمر الباعث على الفعل، والذي هو نوع مفاعلة بين طرفين، وليس إيقاعاً، إذ يتضمن قوله تعالى(سل) أموراً:

الأول : السؤال من عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : توجه السؤال إلى بني إسرائيل.

الثالث : إنتفاع المسلمين والناس جميعاً من السؤال.

الرابع : موضوع السؤال، وهو المعجزات والآيات التي رزقها الله عز وجل بني إسرائيل، ومنها كثرة الأنبياء، ومن الإعجاز في الآية أن الأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بسؤال بني إسرائيل يتقوم بالسؤال إذ أن لفظ(كم) سؤال يستلزم إستحضار شطر من النعم للعجز عن ذكر نعم الله كلها قال سبحانه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾(٢)، فلم يرد موضوع السؤال بجملة خبرية، مع أن الإخبار هو الأصل بتعداد وإحصاء ما يستحق من النعم، لتبعث صيغة السؤال(كم آتيناهم) على التدبر والتفكر في النعم العظيمة على بني إسرائيل والمؤمنين جميعاً.

---

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة ابراهيم ٣٤.

أن تسمية (بني إسرائيل) في الآية نعمة أخرى لما فيها من الشهادة لهم بالإنتساب للأنبياء ، فاسرائيل ابن نبي وهو إسحق، وجده نبي وهو إبراهيم عليه السلام وعمه نبي وهو إسماعيل، إذ ورد قوله تعالى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾[1]، أبو أنبياء، وإسمه يعقوب، قال تعالى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2]، ويوسف عليه السلام الذي جاءت سورة كاملة في القرآن باسمه هو ابن نبي الله إسرائيل أي يعقوب.

وهذه النعمة حجة ودعوة لإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلحاظ المعجزات التي تجلت على يديه.

ويتوجه سؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني إسرائيل المعاصرين لزمانه، مع أن الآيات والمعجزات جاءت لآبائهم لبيان إنتفاع أجيالهم المتعاقبة منها، فقد نجّى الله بني إسرائيل من فرعون ليتوالدوا على مرّ الزمان، خاصة وأن فرعون أمر بقتل كل مولود من بني إسرائيل عندما أخبر بأنه يولد فيهم من يأتي على ملكه.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالت الكهنة لفرعون: إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكك . فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل ، وعلى كل مائة عشرة ، وعلى كل

(١) سورة البقرة ١٣٣.

(٢)سورة البقرة ١٣٣.

عشر رجلاً ، فقال : انظروا كل امرأة حامل في المدينة ، فإذا وضعت حملها ذكراً فاذبحوه ، وإن كانت أنثى فخلوا عنها ، وذلك قوله { يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . . . } الآية [١].

وبعد موضوع السؤال بينت الآية قانوناً كلياً وهو ﴿مَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ليكون من معاني السؤال الوارد في الآية الإنذار والذكرى والتخويف من العقاب الأليم .

ومن الإعجاز في خاتمة الآية أنها لم تأت بخصوص الجهة التي يتوجه لها السؤال، ولا موضوع السؤال، وهو الآيات البينات، والذي جاء عاماً ومطلقاً وشاملاً لكل نعمة، للتحذير من تبديلها، ويكون هذا التبديل المنهي عنه على وجوه منها:

الأول : تحريف الكلم عن مواضعه، وتغيير معاني ودلالات الآيات، قال تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[٢].

الثاني : تسخير النعمة لغير مرضاة الله.

الثالث : الجحود بالنعمة.

الرابع : الصدود عن معجزات النبوة .

وفي قارون ورد قوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[٣]، فقد جحد بنعمة الله، وقال جمعت الأموال بعلمي وقوتي وفطرتي، ودرايتي بوجوه المكاسب، وسعيي في التجارات، ومثل(العلم بصناعة الكيمياء وحكى النقاش أن

---

(١) الدر المنثور ١١٤/١ .

(٢)سورة النساء٤٦.

(٣)سورة القصص٧٨.

موسى عليه السلام علّم قارون الثلث من صنعة الكيمياء ، وعلم يوشع بن نون الثلث ، وعلم ابني هارون الثلث فخدعهما قارون وكان على إيمانه حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء فكثرت أمواله [1].

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه كانوا يتنعّمون بما ينقل لهم في الدنيا من المال ونسوا يوم المعاد {وَيَسخَرُون} من المؤمنين الذين يعزفون عن الدنيا، ويقبلون على الطاعة والعبادة، ويقولون : لو كان محمد نبيّاً لاتبعه أشرافنا وإنما تبعه الفقراء مثل أبي عمارة وصهيب وعمار وجابر بن عبد الله وأبي عبيدة بن الجراح وبلال وخبّاب وأمثالهم، وهذا معنى رواية الكلبي عن ابن عباس.

وقال مقاتل : نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه[2].

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : بيان جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإتخاذ الإحتجاج صيغة لإقامة الحجة.

الثانية : تأكيد الرحمة الإلهية العامة بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن التذكير بالنعمة خير محض ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [3].

الثالثة : بيانَ قانون وهو أنَ الله يعطي بالأوفى والأكثر والأتم.

---

(١)النكت والعيون ٢٨٨/٣.

(٢)الكشف والبيان ٤١٦/١.

(٣) سورة الأعلى ٩.

الرابعة : إن الله عز وجل يريد من الناس ذكر النعم والبراهين الساطعة التي تفضل بها تترى عليهم ليس عن حاجة منه، وهو سبحانه ﴿غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾[1]، ولكن لمنفعة الخلق ودوام النعم على الناس ، وهو من أسرار خلافة الإنسان في الأرض .

قال تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2]، أي على أهل زمانهم وعالمهم بما رزقهم الله عز وجل من كثرة الأنبياء والملك والنجاة من القوم الظالمين.

الخامسة : من وجوه تبليغ رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم السؤال عن الآيات والمعجزات التي رزقها الله للناس عامة، ولفرق وطوائف منهم على نحو الخصوص.

السادسة : تأكيد وجوب تعاهد النعم والآيات وعدم تحريفها أو تغييرها أو نسبتها لغير الله.

السابعة : الإنذار بالعقاب الأليم للذي يعصي الله عز وجل ويجحد بالنعم التي خصه الله تعالى بها ، وفي سبأ من اليمن ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ

---

(١)سورة آل عمران ٩٧.

(٢)سورة آل عمران ٤٧.

ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (١).

وعن ابن عباس قال (إن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن سبأ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: "بل هو رجل، ولد عَشَرة ، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فَمَذْحِجُ، وكِنْدَةُ، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير. وأما الشامية فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان.

ورواه عَبد، عن الحسن بن موسى، عن ابن لَهِيعة، به . وهذا إسناد حسن، ولم يخرجوه، ﴿وقد روي من طرق متعددة﴾ . وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب "القصد والأمَمْ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم"، من حديث ابن لهيعة، عن علقمة بن وعلة، عن ابن عباس فذكر نحوه. وقد روي نحوه من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد أيضا وعبد بن حميد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو جَنَاب يحيى بن أبي حيَّة الكلبي، عن يحيى بن هانئ بن عُرْوَة، عن فروة بن مُسَيك قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، أقاتل بمقبل قومي مدبرهم؟ قال: "نعم، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم.

فلما وليت دعاني فقال: "لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام". فقلت: يا رسول الله، أرأيت سبأ؛ أواد هو، أو رجل ، أو ما هو؟ قال: لا ، بل رجل من العرب، ولد له عشرة فَتَيَامَنَ ستة وتشاءم أربعة، تيامن الأزد، والأشعريون، وحمير، وكندة،

---

(١)سورة سبأ ١٥-١٧.

ومـذحج، وأنمـار الـذين يقـال لهـم: بجيلـة وخـثعم. وتشـاءم لخـم، وجذام، وعاملة، وغسّان".

وهـذا أيضًـا إسـناد جيـد وإن كـان فيـه أبـو جَنَـاب الكلـبي، وقـد تكلمـوا فيـه . لكـن رواه ابـن جرير عـن أبـي كُرَيْـب، عـن العَنْقَـزِي ، عـن أسباط بـن نصـر، عـن يحيـى بـن هـانئ المرادي، عـن عمـه أو عـن أبيـه -يشـك أسـباط-قـال: قـدم فـروة بـن مُسَـيك علـى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكره.

طريـق أخـرى لهـذا الحـديث: قـال ابـن أبـي حـاتم: حـدثنا يـونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني ابن لهيعة، عـن توبة بـن نَمر ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال: كنا عند عبيدة

بـن عبـد الـرحمن بأفريقيـة فقـال يومًـا: مـا أظـن قومـا بـأرض إلا وهـم من أهلـها. فقـال علـي بـن ربـاح: كـلا قـد حـدثني فلان أن فـروة بـن مُسَـيك الغُطَيفـي قـدم علـى رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم فقـال: يـا رسـول الله، إن سبأ قـوم كـان لهـم عـز في الجاهليـة، وإنـي أخشـى أن يرتـدّوا عـن الإسـلام، أفأقاتلـهم؟ فقـال: "مـا أمـرت فـيهم بشـيء بعـد. فأنزلـت هـذه الآيـة: { لَقَـدْ كَـانَ لِسَـبَإٍ فِـي مَسْكَنِهِمْ آيَـةٌ}[1]، الآيـات، فقـال لـه رجـل: يـا رسـول الله، مـا سـبأ؟ فـذكر مثـل هـذا الحـديث الـذي قبلـه: أن رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم سُئل عن سبأ: ما هو؟ أبلد، أم رجل، أم امرأة؟ .

قال: "بـل رجـل، وَلَـد لـه عَشَـرَة فسكن اليمن منهم ستة، والشـام أربعــة، أمــا اليمــانيون: فمــذحج، وكنــدة، والأزد، والأشــعريون،

(١) سورة سبأ١٥.

وأنمار، وحمير غير ما حلها. وأما الشام: فلخم، وجذام، وغسان)[1].

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

يتوجه الخطاب في الآية إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو وفق لغة القرآن وقاعدة اياك اعني واسمعي يا جارة المعروفة والمستغرقة لأغلب خطابات القرآن يكون موجهاً للمسلمين جميعاً، الى جانب امكان تفكيكه الى مراتب، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يسأل والآخرون يسمعون ويقرأون ويعتبرون او ان العلماء ايضاً يسألون واهل الخبرة ومن له معرفة ولو بخصوص نعمة معينة ويحسن الجدال والإحتجاج والآخرون يسمعون .

والآية مطلقة في موضوعها ودلالتها، وهي نفسها تصلح مادة وسلاحاً وعوناً للمسلم في إحتجاجه.

والآية من مصاديق قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] ليتعظ من السؤال وإقامة البرهان على الناس جميعاً .

و﴿سَلْ﴾ في الأصل إسأل، ويظهر من صيغة الأمر في الفعل عدم الإكتفاء بالبيان للمسلمين بل تحقيق السؤال فعلاً، وإذا كانت الآية لجميع المسلمين فهل يعني ان كل مسلم وفي كل زمان يجب ان يوجه السؤال لبني اسرائيل، ويقوم بتعداد النعم التي

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٥٠٥.

(٢) سورة النحل ١٢٥.

رزقهم الله ، الجواب لا، لكفاية السؤال من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن العلماء وأهل الإحتجاج.

وبذا يظهر ما في تخصيص الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو بالإضافة الى ما فيه من التشريف لشخصه الكريم ولمقام النبوة والدلالة على الوظائف العقائدية التي يقوم بها من التبليغ والإنذار والإحتجاج واقامة البرهان واستحضار الحجة ومواجهة رؤساء الملل، يدل على كفاية السؤال ظاهراً وصدوره من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكأنه واجب كفائي معين.

ولكن الأمر بالسؤال يتجدد في كل زمان وينحل بحسب حال المكلفين فقد يكون بالنسبة لبعض المؤمنين واجباً عينياً ظاهر الآية الكريمة توجهه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ان صيغة الإطلاق في مفهومها تدل على بقائها سلاحاً حاضراً وواقية احترازية ويؤيده القاعدة الكلية التي عليها اجماع المسلمين وهي ان الآية القرآنية ليست لزمان دون آخر ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (١).

ويدل إبتداء السؤال من النبي صلى الله عليه وآله وسلم على صدق الدعوة والحجية، ويؤكد الأمر بالسؤال عن عظيم النعمة أهمية موضوعه في تثبيت العقيدة وزلزلة أقطاب الكفر.

لقد ورد السؤال في القرآن على نحو الإطلاق الشمولي وعدم انحصاره او اقتصار توجهه الى جهة دون أخرى او جماعة معينة منهم خصوصاً وان لفظ ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يفيد ارادة عموم بني اسرائيل وهو في ظاهره يعني اولاد يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم

---

(١) سورة الأحزاب ٢١.

ومن يلحق بهم من اليهود للبرهان والحجة، ولابد ان النعم التي تذكرها الآية من المشهورات والمسلمات التي يتوارث بنو إسرائيل معرفتها من خلال التوراة والأخبار، وجاء القرآن لتوثيقها وتوكيدها، ومنها أن الله عز وجل ظلل عليهم السحاب، وأنزل عليهم المن والسلوى، وعن قتادة في قوله ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ الآية[1] .

قال : كان هذا في البرية ، ظلل عليهم الغمام من الشمس ، وأطعمهم المن والسلوى حين برزوا إلى البرية ، فكان المن يسقط عليهم في محلتهم سقوط الثلج ، أشد بياضاً من الثلج ، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك فإن تعدى فسد وما يبقى عنده ، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه فبقي عنده ، لأنه إذا كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشة ولا لطلب شيء ، وهذا كله في البرية[2] .

تفسير قوله تعالى ﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾

كم : خبرية ولكنها تصلح ان تكون استفهامية ايضاً بلحاظ الموضوع الذي يقدم على الصناعة النحوية ويكون حاكماً عليها، جاء السؤال بصيغة الجمع للجهة الموجه اليها والمسؤولة مما يعني ان النعم نوعية وعامة، ولكن هذا لا يمنع من النعم الخاصة مع التداخل بينهما ووجود الجامع لهما، وتلك النعم الخاصة تكون عامة ايضاً، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا

(١) سورة البقرة ٥٧.

(٢) الدر المنثور ١/١٢١.

نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾[1] وبذا تكون للنعم الخاصة مضامين نوعية عامة، وللنعم العامة منافع خاصة، وكل بعثة نبي هي نعمة ورحمة ببني إسرائيل والناس جميعاً.

ومن الآيات والمعجزات التي رزق الله عز وجل بني إسرائيل ان بعث الله لهم انبياء كثيرين جاءوا معهم بالآيات، ومنهم موسى عليه السلام وما جاء به من آية العصا، وانفلاق البحر والنجاة من فرعون وجنوده بآية من عند الله تعالى، ونزول التوراة ونتق الجبل وانزال المن والسلوى، وتكليم الله عزوجل لموسى قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾[2].

ومن الآيات البينات الحجج والبراهين على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما يدل على صدق دعوته، وهذه الايات موجهة للناس عامة وبضمنهم بنو اسرائيل، ومنها ما هي خاصة بأمة معينة وقد خصّ الله عز وجل بني اسرائيل بما تضمنته التوراة من البشارات بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الآية لوم وتوبيخ لأهل الجحود منهم، فعلى الإنسان ان ينتفع من الآية ويستقرأ منها الدروس والعبر والموعظة لتكون وسيلة للإيمان بالآيات على نحو العموم المجموعي، فالتسليم بالعبودية عند رؤية الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام يقود طوعاً او قهراً للإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من الآيات.

---

(1) سورة المائدة ٢٠.

(2) سورة الاسراء ١٠١.

وعن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع هذه اللبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة [1].

لقد كان للآيات التي تفضل بها الله عز وجل على بني اسرائيل غايات حميدة منها:

الأولى: الإيمان الآني بها وبالأنبياء الذين جاءوا بها، والعمل باحكام الشرائع السماوية التي نزلت عليهم.

الثانية: الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن هذه الآيات تبشر به ولأنه جاء بآيات مشابهة لها من حيث الإعجاز والتحدي والسلامة من المعارضة وبحسب القياس الإقتراني.

فنقول مثلاً:

الكبرى : كل من جاء بالآيات هو نبي.

الصغرى : محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاء بالآيات.

النتيجة : محمد نبي.

وتبين الآية عظيم فضل الله على الناس، فالآيات الباهرات لم تنحصر ببني اسرائيل ولكن الحجة عليهم كانت أكبر، وكان الأولى بهم ان يكونوا نواة التصديق بالإسلام لما عندهم من المعرفة بموضوع وحكم الآيات، ولكن التحريف أضر بهم وبالناس جميعاً وكان ولا زال مصدراً للإبتلاء والأذى النوعي العام لذا تضمنت آية البحث الوعيد لمن يبدل نعمة الله، للقبح الذاتي والعرضي لهذا التبديل وفيه الإثم والوزر في النشأتين، قال

---

(١) الدر المنثور ١٧١/٨.

تعالى ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾(١).

فجاءت الآية باستحضار الماضي للتذكير به ليكون حجة ووثيقة وشاهداً وعوناً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الآية بشارة نيل المسلمين للآيات من منازل العبودية الصادقة، كما تدعو الآية للتدبر في الآيات والنعم التي رزق الله عز وجل بني إسرائيل وإستقصاء أهميتها وأثرها وما فيها من الحجة والبرهان وصلاحيتها كطريق للتسليم بالنبوة على نحو الإطلاق الشمولي، وعدم الوقوف عند نبوة موسى عليه السلام.

وجاءت الآية بصيغة الماضي ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ وهو دليل على حصول الآيات في الزمن الماضي، وتدل بالدلالة التضمنية على حثهم على التدبر في أسباب عدم إتصال النعم، وكيفية تلقي آيات جديدة، ويقودهم هذا التدبر الى الإسلام لأنه آية بذاته وتترشح عنه آيات عديدة تتغشى أهله بل الناس جميعاً، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾(٢).

تفسير قوله تعالى ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾

قاعدة كلية ثابتة في الإرادة للتكوينية والتشريعية لا تنحصر بأمة دون أخرى أو جيل دون آخر او زمان دون غيره فهي باقية الى يوم القيامة لأن القرآن مصدر الأحكام، وهذا الثبات لمثل هذه القاعدة سر من اسرار القرآن تدل عليه آياته والشواهد الظاهرة والباطنة، وهذه الدلالة وتحمل القرآن لمسؤوليتها وأعبائها توكيد لموضوعية القرآن القدسية في حياة كل انسان، وفيها إشارة إلى

---

(١) سورة البقرة ١٨١.

(٢) سورة يونس ٦٠.

عظيم وظائف المسلمين وهو من مصاديق قوله تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، لقد جاء صدر الآية بأمور:

الأول: توجه الأمر من عند الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : تضمن الأمر معنى الإحتجاج قال تعالى﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾[2] .

الثالث : مجيء الآيات البينات.

الرابع : تعلق السؤال في أول الآية بنعم الله، أما ذيلها فهو قاعدة كلية تتعلق بتبديل النعمة.

فما هي الصلة بين الآيات والنعمة ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق فكل نعمة هي آية، وليس العكس وان الآيات من اعظم وجوه النعم لأن ذكر امة او ملة واختصاصها بآيات نازلة اليها يدل على انها آيات اخرى ونافلة من فضل الله تعالى غير المتعارفة عند الناس في واقعهم اليومي وحياتهم .

وما في الآفاق من الآيات الثابتة، وان المراد آيات متجددة مستحدثة مخصوصة للعبرة والموعظة وتتضمن صيغ الإكرام والإمتنان وتيسير الإيمان وتثبيته في النفوس.

وقد أنعم الله عز وجل على سليمان بن داود بالنبوة وأراد إحضار عرش بلقيس فأحضر عنده بمعجزة جلية.

وعن ابن عباس قال : إن سليمان أوتي ملكا، وكان لا يعلم

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة الجاثية ١٦-١٧ .

أن أحدا أوتي ملكا غيره؛ فلما فقد الهدهد سأله: من أين جئت؟ ووعده وعيدا شديدا بالقتل والعذاب، قال﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[١].

قال له سليمان: ما هذا النبأ؟ قال الهدهد﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً﴾[٢]، بسبأ﴿تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[٣]، فلما أخبر الهدهد سليمان أنه وجد سلطانا، أنكر أن يكون لأحد في الأرض سلطان غيره.

فقال لمن عنده من الجنّ والإنس:(يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)[٤] قال سليمان: أريد أعجل من ذلك(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ)[٥] وهو رجل من الإنس عنده علم من الكتاب فيه اسم الله الأكبر، الذي إذا دعي به أجاب:(أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)[٦].

فدعا بالاسم وهو عنده قائم، فاحتمل العرش احتمالا حتى وُضع بين يدي سليمان، والله صنع ذلك؛ فلما أتى سليمان بالعرش وهم مشركون، يسجدون للشمس والقمر، أخبره الهدهد بذلك، فكتب معه كتابًا ثم بعثه إليهم، حتى إذا جاء

---

(١) سورة النمل ٢٢.

(٢) سورة النمل ٢٣.

(٣) سورة النمل ٢٣.

(٤) سورة النمل ٣٩.

(٥) سورة النمل ٤٠.

(٦) سورة النمل ٤٠.

الهدهد الملكة ألقى إليها الكتاب(قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ)... إلى(وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ).

فقالت لقومها ما قالت(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)[1].

قال: وبعثت إليه بوصائف ووصفاء، وألبستهم لباسا واحدا، حتى لا يعرف ذكر من أنثى، فقالت: إن زيل بينهم حتى يعرف الذكر من الأنثى، ثم رد الهدية، فإنه نبي، وينبغي لنا أن نترك ملكنا ونتبع دينه ونلحق به، فردّ سليمان الهدية وزيل بينهم، فقال: هؤلاء غلمان وهؤلاء جوار وقال:(أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)... إلى آخر الآية [2].

وتدل الآية على ان اتيان الآيات وحده وعلى نحو مجرد نعمة مستقلة سواء تعقبها الإيمان بها أم لم يترتب عليها أثر في نفوسهم، او حصل الإيمان والإقرار بها ابتداء ثم حصل التحريف والجحود، وتبديل النعمة وبلحاظ الآيات يحتمل وجوهاً:

الأول : الكفر بالآيات.

الثاني : الإنتقاص منها كما لو ادعوا امكان حصولها تلقائياً او بالسحر مع انها سالمة عن المعارضة ويعجز الخلائق عن الإتيان بمثلها.

الثالث : انكار حصولها.

الرابع : القيام بالتحريف وذكر أوصاف للنعمة غير التي تدل عليى الإعجاز فيها وفي التنزيل ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ

(١) سورة النمل ٣٥.

(٢) تفسير الطبري ٤٦١/١٩.

﴿الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[١].

الخامس : الجحود والإنكار لما لا يتناسب والاهواء.

السادس : تسخير النعمة في غير مرضاة الله، فالكتاب المنزل مادة إقامة احكام الله وتبديله صد عن احكام الشريعة.

السابع : نسبة النعمة لغير الله.

والرزق الكريم وهو بلغة ووسيلة لطاعة وعبادة الناس لله عز وجل والتبديل تحريف وجحود وضلالة، وفي الآية دعوة للمسلمين لتعاهد نعمة التنزيل، وشكر الله عز وجل على نعمة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والهداية إلى الإسلام، قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[٢]، ومن الشكر أداء الصلاة عدة مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب العيني لما فيها من الإقرار بالنعم وإتخاذها سبيلاً للأمن في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣].

وتدل الآية على سعة أحكام القرآن وشمولها وعموماتها لأن النعمة عنوان جامع ومتشعب فيشمل النعم الشخصية والنوعية، الدنيوية والأخروية العقائدية والإجتماعية والأخلاقية وتعاهدها من مصاديق الإيمان لذا تفضل الله الله عز وجل وجعل كل مسلم ومسلمة يتلوان مرات عديدة كل يوم وعلى نحو الوجوب العيني

---

(١) سورة النساء ٤٦.

(٢) سورة العنكبوت ٤٣.

(٣) سورة الأحقاف ١٣.

قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(١).

والنعم الشخصية على وجوه متشعبة منها ما يتعلق بالصحة ومنها بالأمن او حالات النفس او الرزق او طول العمر وكثرة الأولاد وغيرها، والنعم النوعية أيضاً متشعبة منها سيادة الملة وإعزاز الأمة، وحسن الأحوال واعتدال الهواء وحسن المعاشرة وصفاء المجتمعات، وصرف البلاء والفتن.

وتدل ظواهر الألفاظ على أولوية المنطوق على المفهوم لأن المنطوق هو الأصل والمقصود، ومن اعجاز القرآن ان مفهوم الآية قد يكون بعرض واحد مع المنطوق في الدلالة خصوصاً في القواعد الكلية، وللمفهوم موضوعية خاصة كما في المقام فان الآية في منطوقها توبيخ وانذار ولكنها درس وموعظة وتأديب وتنبيه للمسلمين بقصد إرشادهم الى المحافظة على أحكام الشريعة وطرد أسباب التحريف عن الوصول الى القرآن، قال تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾(٢).

لقد تحمل المسلمون مسؤولية تعاهد نعمة التنزيل بالإلتزام بينن الإيمان ، وعدم تبديل النعم النازلة عليهم، وتعاهدوها للنجاة من العقاب والفوز بعظيم الثواب، وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾(٣) فمنهم من آمن ومنهم من جحد ومنهم من أمر ومنهم من انكر ومنهم من يبدل نعمة الله.

(١) سورة الفاتحة ٦.
(٢) سورة يونس ٢.
(٣) سورة البقرة ٢١١.

تفسير قوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

وفيها مسائل:

الأولى : جاءت الآية على نحو الإطلاق من غير تقييد بموضوع الآية وهو تبديل النعمة وان كانت القرينة المقالية والحالية تؤكد على اهميته وموضوعيته كسبب لإستحقاق العقاب الإلهي.

الثانية : تبديل النعمة والجحود بالآيات النازلة سبب وعلة لنزول الغضب الإلهي الا ان يشاء الله الإمهال والعفو، والتفضل لذا جاءت هذه الآية للتحذير والتنبيه.

الثالثة : يدل موضوع الآية على مفهوم معين وهو لزوم الاعتبار والاتعاظ من بني اسرائيل والأمم السالفة وما رزقهم الله من النعم، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1].

الرابعة : المسلمون أكثر الناس تلقياً للنعم الإلهية مما يستلزم التفاتهم واعتبارهم من الأمم السابقة وتعاهد هذه النعم من باب الأولوية القطعية، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

الخامسة : في الآية توكيد بان القرآن نعمة للأمم جميعاً حتى الجاحد به فأنه يتضمن إنذاره وتوبيخه وتحذيره.

السادسة : الآية دعوة لاستثمار الفرصة المتجددة بالإسلام كنعمة عامة وشاملة تتغشى أهل الأرض في كل يوم.

السابعة : من المعروف أن العقاب عذاب يتعقب المعصية والكبيرة من الذنوب مما يعني ان تبديل النعمة من الكبائر كما في تحريف الكتاب المنزل وما جاء به من البشارات، قال تعالى ﴿أَلَمْ

(١) سورة يوسف ١١١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾[١]، (وعن ابن عباس: هم المشركون من أهل بدر)[٢].

بحث بلاغي

ذكر في علم البلاغة وفي باب المبهمات انه قد يكون للشخص إسمان، فيقتصر على أحدهما دون الآخر، وأستدل عليه بقوله تعالى﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يذكروا في القرآن الا بها دون بني يعقوب[٣].

ولكن المثال أعم من المدعى إذ يتعلق هذا الاسم باليهود وليس بيعقوب نفسه، وقد ذكر يعقوب بالإسمين معاً في القرآن.

قال تعالى ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[٤] وذكر باسم يعقوب في القرآن ست عشرة مرة، وتسمية بني اسرائيل تتعلق بهم وبلحاظ ما عرف عنهم واشتهروا به من الاسم والدلالة بهالة من التشريف والإكرام لموضوعية النبوة في النسب، وتسمية بني إسرائيل من مصاديق قوله تعالى﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[٥].

إذ تدل الآية على انهم معروفون باسم بني اسرائيل ولهذه التسمية وشيوعها اسباب عقائدية، ويعني هذا الاسم بالدلالة التضمنية على الإضافة الى الله عز وجل وبيان لزوم عبادته، فالتسمية حجة بانها مظهر من مظاهر العبادة وفيها تذكير لبني إسرائيل بالنبوة، وبذا تتجلى لنا علوم إضافية توليدية من البلاغة القرآنية وان البلاغة مع كونها مصداقاً

---

(١) سورة إبراهيم ٢٨.

(٢) الدر المنثور ٥٦/٦.

(٣) البرهان في علوم القرآن ١٥٣/١.

(٤) سورة آل عمران ٩٣.

(٥) سورة البقرة ٤٠.

للإعجاز ووجهاً من وجوهه الا ان أحكاماً ومسائل متعددة تنبثق وتتفرع عنها، مما يستلزم عدم الوقوف عند المعنى البلاغي وحده فمع انه حجة بذاته فهو وسيلة ومقدمة للمعنى المتعدد والأسرار الخفية التي تتضمنها الآية القرآنية، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1].

(١) سورة الإسراء ٩.

قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ **الآية ٢١٢**

الإعراب واللغة

ومنهم من قرأ ﴿زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ على صيغة البناء للفاعل ونسبه الفراء إلى مجاهد وبلغة القيل، وهو تضعيف وحصر للقول إذ قال(ويقال أنه مجاهد فقط) (١)، والصحيح ما مرسوم في المصاحف من صيغة البناء للمجهول، وسيأتي مزيد كلام في باب (الآية سلاح).

زين: فعل ماض مبني للمجهول.

للذين: جار ومجرور.

كفروا: فعل ماض، وواو الجماعة فاعل، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

الحياة: نائب فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره، الدنيا: صفة الحياة مرفوع لإتباع الصفة للموصوف في الإعراب، وعلامة رفعه الضمة المقدرة على آخره.

والذين: الواو: حرف عطف، الذين: اسم موصول مبتدأ، اتقوا: جملة فعلية صلة الاسم الموصول.

فوقهم: ظرف مكان منصوب بالفتحة وهو مضاف، والضمير

(١)معاني القرآن الفراء ١١٦/١/ أنظر إعراب القرآن لابن سيده٤٢٨/١.

في محل جر مضاف إليه، والله: الواو إستئنافية، اسم الجلالة: مبتدأ مرفوع، يرزق: مضارع مرفوع ، وعلامة رفعه الضمة، من يشاء: من: اسم موصول مفعول به مبني في محل نصب مفعول به، يشاء: فعل مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، بغير: جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لمصدر(يرزق).

حساب: مضاف إليه مجرور.

والزين خلاف الشين، زانه الحُسْنُ يزينه زَيْنا. وازدانت الأرضُ بعُشبِها، وازَّيَّنَتْ وتَزَيَّنَتْ. والزّينة جامعٌ لكُلِّ ما يتزيّن به، قال:

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجُوهٍ ... كان للدُّرِّ حُسْنُ وَجهِك زَيْنا)[1].

وتزين هو وازدان بمعنى، وتزيين الشيء: تحسينه واظهاره بمظهر جميل يسر الناظر، وحصر زينة الحياة الدنيا بالكافر نوع توبيخ وتقريع له ولجماعته لأنه عنوان الإفتتان والغرور والجهل، ويقال سخر منه وبه سخراً وسخرياً: هزئ به.

في سياق الآيات

بعد ذم الذين يبدلون نعمة الله ويحرفون الكتاب، والوعيد بالعقاب الشديد للجاحدين والمارقين، جاءت هذه الآية لبيان حال الكافرين وكأنها بيان لأسباب الكفر وعلته.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة السابقة، وفيها وجوه:

الوجه الأول : صلة هذه الآية بقوله تعالى﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ...﴾[2]، وفيها

(١) العين ٩٢/٢.

(٢)سورة البقرة ٢١٠.

مسائل:

الأولى: تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول: زين للذين كفروا الحياة الدنيا هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام.

الثاني: زين للذين كفروا الحياة الدنيا وقضي الأمر.

الثالث: زين للذين كفروا الحياة الدنيا وإلى الله ترجع الأمور.

الرابع: ويسخرون من الذين آمنوا هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة.

الخامس: ويسخرون من الذين آمنوا وقضي الأمر.

السادس: ويسخرون من الذين آمنوا والى الله ترجع الأمور.

السابع: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل والذين فوقعهم يوم القيامة.

الثامن: والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة وقضي الأمر، وقال ابن جريج لا أحسبه إلا عن عكرمة، قال: قالوا: لو كان محمد نبيًا كما يقول، لاتبعه أشرافنا وساداتنا! والله ما اتبعه إلا أهل الحاجة مثل ابن مسعود)[1].

التاسع: والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة وإلى الله ترجع الأمور) وهل المراد الفوقية المكانية أم المعنى الأعم الجواب هو الثاني، ومنه أن الذين آمنوا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

العاشر: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والله يرزق من يشاء بغير حساب.

---

(١) تفسير الطبري ٤/٢٧٤.

(٢) سورة البقرة ٣٨.

الحادي عشر : وقضي الأمر والله يرزق من يشاء بغير حساب.

الثاني عشر : وإلى الله ترجع الأمور والله يرزق من يشاء بغير حساب) وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقام أيّاماً لم يُطعم طعاماً، حتى شقّ ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه، فلم يصب في بيت أحد منهنّ شيئاً، فأتى فاطمة فقال: يا بنيّة هل عندكِ شيء آكلُ فإنّي جائع؟ فقالت: لا والله بأبي أنتَ وأمّي، فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عندها، بعثت إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم، فأخذته منها ووضعته في جفنة وغطّت عليه وقالت: لأوثرنّ بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على نفسي ومن عندي،

وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة من طعام، فبعثت حسناً وحسيناً إلى جدّهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرجع إليها، فقالت : بأبي أنت وأمّي يا رسول الله قد أتانا الله بشيء فخبّأته لك، قال : فهلمّي به، فأتي به فكشف عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً.

فلمّا نظرت إليه بهتت وعرفت أنّها من بركة الله، فحمدت الله تعالى وصلّت على نبيّه، فقال عليه السلام: من أين لك هذا يا بنيّة؟ قالت : هو من عند الله إنّ الله يزرق من يشاء بغير حساب، فحمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الله وقال: الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيّدة نساء بني إسرائيل، فإنّها كانت يرزقها الله رزقاً حسناً فسُئلت عنه {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[1].

---

(١) سورة آل عمران ٣٧.

فبعث رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي رضي اللّه عنه،

ثم أكل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته جميعاً حتى شبعوا، قالت فاطمة : وبقيت الجفنة كما هي فأوسعت منها على جميع جيراني فجعل اللّه فيها بركة وخيراً)[1].

الثانية : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، ووعاء مكانياً وزمانياً لعمل الصالحات وجني الحسنات،، وتفضل الله عز وجل بنزول التكاليف والأوامر والنواهي إلى الناس، وجعل الواسطة فريدة وخاصة مع تعددها، ولا يطرأ عليها الخلط والتشويه والتحريف إذ أنزل الكتب السماوي وبعث الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، ولكن الكفار أصروا على الإعراض عن البشارات وعدم سماع الإنذارات.

وجاءت آية السياق بالتخويف والوعيد لهم، ليكون من إعجاز القرآن الوعيد بقوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾.

الثالثة : إتحاد لغة الخطاب في آية البحث والسياق بمجيء كل منهما بصيغة الغائب، وإرادة الذين كفروا، لتكون الآية موعظة للناس، وباعثاً للنفرة في نفوسهم من الكفر والجحود، قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

(١) الكشف والبيان ٦٧/٣.

﴿الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[1].

الرابعة : تتضمن كل من الآيتين الإنذار والوعيد للذين كفروا، ليدل الإنذار في مفهومه على دعوتهم للتوبة والإنابة.

الوجه الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً...﴾[2]، تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : يا أيها الذين آمنوا زين للذين كفروا الحياة الدنيا، وفيه مسائل:

الأولى : تتضمن آية السياق الثناء على المسلمين والمسلمات لنداداتهم بصيغة الإيمان، وفيه شهادة وإكرام من عند الله عز وجل لهم[3].

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين أن الله عز وجل يخبر المسلمين عن حب الذين كفروا للدنيا، وهل هذا الإخبار من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[4]، الجواب نعم، من وجوه:

أولاً : دلالة الخطاب والإخبار عن حال الذين كفروا على إكرام الله للمسلمين، وهو من الجزاء العاجل على الإيمان.

ثانياً : دعوة المسلمين للتنزه عن حب الدنيا.

ثالثاً : تفقه المسلمين في الدين، ومعرفتهم بأحوال الأمم.

---

(١) سورة الحجرات ٧.

(٢)سورة البقرة ٢٠٨.

(٣) أنظر الأجزاء ١٣٥/١٣٦/١٣٧/١٣٨ من هذا التفسير والتي جاءت بخصوص نداء الإيمان.

(٤)سورة آل عمران ١١٠.

الثالثة : دلالة الجمع بين آية البحث والسياق على ذم حب الدنيا وتحذير المسلمين من جعل الدنيا غاية همهم.

وعن عبد الله بن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يلقى الله أحد بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلا دخل الجنة ما لم يخلط معها غيرها، رددها ثلاثا قال قائل من قاصية الناس : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، وما يخلط معها غيرها ؟ قال : حب الدنيا، وأثرة لها ، وجمعا لها ، ورضى بها وعمل الجبارين[1].

الثاني : يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة زين للذين كفروا الحياة الدنيا) وفيه مسائل :

الأولى : تقسيم الناس بلحاظ الإيمان والكفر، من غير برزخ ووسط بينهما ليكون مقدمة لتقسيم الناس يوم القيامة، فأما إلى الجنة وأما إلى النار، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[2]، ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[3].

الثانية : بيان اللطف الإلهي بالمؤمنين بأمرهم بسبل الصلاح والنجاة، مع الإخبار عن قبح إختيار الذين كفروا الإقامة على الضلالة، وهل معنى الآية أنها تقول للمسلمين لا تكونوا كالذين كفروا لا همّ لهم الا الدنيا.

الجواب لا يصل مضمون الآية إلى هذا المعنى، لأن إبتداء آية السياق بنعت المسلمين بصبغة الإيمان ثناء عليهم، وتنزيه لهم من حب الدنيا، نعم هذه المعاني لا تمنع من تحذير المسلمين من حب

---

(١)شعب الإيمان ٣٣٨/٧.

(٢)سورة الزمر ٧١.

(٣)سورة الزمر ٧٢ .

الدنيا.

وذكر أن(عيسى عليه السلام كان يقول: حب الدنيا أصل كل خطيئة ، والمال فيه داء كبير . قالوا : وما داؤه ؟ ، قال : لا يسلم من الفخر ولا الخيلاء . قالوا : فإن سلم يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجل[1].

وفضل الله المسلمين ورزقهم إخراج الزكاة، وحبب إليهم الصدقة الواجبة والمستحبة وتفضل وجعل كفارة اليمين ونحوه بالصدقة بالمال والعتق، وبيّن موارد صرف الصدقة والأصناف التي تستحقها، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾[2].

الثالثة : يفيد الجمع بين الآيتين زجر المسلمين عن إتباع نهج الذين كفروا بتهالكهم على الدنيا، وقصر همتهم عليها، ومن الإعجاز في آية السياق دلالة مفهومها على لزوم عدم خروج أي من المسلمين عن جادة السلم والعمل بشرائع الإسلام مع تعدد معنى(كافة) الوارد فيها من وجوه:

أولاً : إرادة المسلمين والمسلمات كافة.

ثانياً : متعلق وموضوع (كافة) هو صدق الإيمان والعمل بأحكام الإسلام، ونبذ النفاق والرياء.

ثالثاً : إرادة الفرد الجامع للوجهين أعلاه.

والصحيح هو الأول و(كافة) سور الموجبة الكلية الجامع

---

(١)شعب الإيمان ٣٩٠/٢١.

(٢) سورة التوبة ٦٠.

للمسلمين والمسلمات، أما صدق الإيمان فدلّ عليه نداء الإيمان الذي إبتدأت به آية السياق.

الرابعة : ذكرت كل من الآيتين(الذين آمنوا) إذ ورد الثناء عليهم في آية السياق، بينما ذكرت آية البحث الأذى الذي لاقوه من الذين كفروا في الدنيا، ليكون في ميزان حسنات المؤمنين.

الخامسة : تضمنت آية السياق تحذير المسلمين من الأخلاق المذمومة، وأسباب الفرقة والشقاق وإتباع الذين كفروا وأعوان الشيطان في إرتكاب المحرمات، وجاءت آية البحث بمثل جلي لإتباع الشيطان من قبل الذين كفروا بامتلاء قلوبهم بحب الدنيا، وإمتناعهم عن التدبر والتفكر.

الثالث : تقدير الجمع بين خاتمتي الآيتين هو: والله يرزق من يشاء ولا تتبعوا خطوات الشيطان أنه لكم عدو مبين، وفيه مسائل:

الأولى : الوعد من عند الله للمسلمين بالرزق الكريم وتنمية ملكة التوكل عندهم و(عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطانا.

روى محمد بن كعب عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله)[1].

الثانية : بعث النفرة في قلوب المسلمين من الذين كفروا وفعل المنكرات.

الثالثة : أختتمت آية البحث بذكر فضل الله على المؤمنين

---

(١) الكشف والبيان ٣/٢٦٠.

ومضامين كل من آية السياق وآية البحث من فضل الله، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1].

الرابعة: أختتمت آية السياق بنهي المسلمين عن إتباع خطوات الشيطان، وجاءت آية البحث بالبشارة بسلامتهم من إتباعها لأن هذه السلامة من فضل الله عز وجل على المؤمنين والناس جميعاً.

الوجه الثالث: صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ...﴾[2]، وتقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول: ومن الناس من يشري نفسه إبتغاء مرضاة الله زين للذين كفروا الحياة الدنيا، وفيه مسائل:

الأولى: بيان التضاد بين المؤمنين والذين كفروا، ليكون هذا التضاد حجة يوم القيامة، ومقدمة للفصل والبينونة بينهم، فدار إقامة المؤمنين الجنة.

ودار إقامة الذين كفروا النار، قال تعالى في ذمهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[3][4].

الثانية: تضمنت آية السياق الثناء على المسلمين، وتضمنت آية البحث ذم الذين كفروا.

---

(١) سورة غافر ٦١.

(٢) سورة البقرة ٢٠٧.

(٣) سورة آل عمران ١٥١.

(٤) انظر الجزء التاسع عشر بعد المائة من هذا السفر الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية، والجزء العشرين بعد المائة الذي جاء بالصلة بينها وبين الآية التي بعدها.

الثالثة : يفيد الجمع بين الآيتين مواساة المسلمين من إستهزاء الذين كفروا بهم، بالإخبار عن علة إستهزائهم بالمسلمين، وهو الإيمان والتقوى وأداء الفرائض، وفيه حجة على الذين كفروا، لذا قالت آية البحث ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

الثاني : ومن الناس من يشري نفسه إبتغاء مرضاة الله والله يرزق من يشاء بغير حساب، وفيه مسائل:

الأولى : ذكرت آية السياق اسم الجلالة مرتين، ومن الإعجاز مجيء الإسمين متجاورين، وموضوع كل واحد منهما بيان لرحمة ورأفة الله عز وجل بالمسلمين من الأمم السابقة، والمسلمين أتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذكرت آية البحث اسم الجلالة بالثناء على الله عز وجل، وبيان سعة رزقه وعظيم قدرته وسلطانه، وهو سبحانه لا تستعصي عليه مسألة، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

الثانية : بيان قانون وهو أن الذي يبذل الوسع ويجاهد في سبيل الله يحفظه الله في نفسه وذريته وذكره الحسن.

فليس من ملازمة بين بذل النفس في سبيل الله وبين القتل، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[3].

ونزلت الآية أعلاه بخصوص معركة أحد، وصحيح أنه وقع يومئذ سبعون من أهل البيت والصحابة شهداء، وأصيب النبي

---

(١)سورة البقرة ٢١٢.

(٢) سورة البقرة ٢٠.

(٣)سورة آل عمران ١٤٣.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالجراحات إلى أن المسلمين لم يخسروا المعركة، ولم يكفوا عن الدفاع ولكن الذين كفروا هم الذين إنسحبوا، قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[1].

قال ابن إسحاق : وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ فَأَصَابَ فِيهِمْ الْعَدُوّ ، وَكَانَ يَوْمَ بَلَاءٍ وَتَمْحِيصٍ أَكْرَمَ اللّهُ فِيهِ مَنْ أَكْرَمَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِالشّهَادَةِ حَتّى خَلَصَ الْعَدُوّ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ. فَدُثّ بِالْحِجَارَةِ حَتّى وَقَعَ لِشِقّهِ فَأُصِيبَتْ رَبَاعِيَتُهُ وَشُجّ فِي وَجْهِهِ وَكُلِمَتْ شَفَتُهُ وَكَانَ الّذِي أَصَابَهُ عُتْبَةَ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ.

قَالَ ابن إسْحَاقَ : فَحَدّثَنِي حُمَيْد الطّوِيلُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك ، قَالَ: كُسِرَتْ رَبَاعِيَةُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمَ أُحُد ، وَشُجّ فِي وَجْهِهِ فَجَعَلَ الدّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ وَجَعَلَ يَمْسَحُ الدّمَ وَهُوَ يَقُولُ كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيّهِمْ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلَى رَبّهِمْ فَأَنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ فِي ذَلِكَ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذّبَهُمْ فَإِنّهُمْ ظَالِمُونَ}[2].

قَالَ ابن هِشَامٍ : وَذَكَرَ رُبَيْحُ بْنُ عَبْد الرّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ أَنّ عُتْبَةَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ رَمَى رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمئِذ فَكَسَرَ رَبَاعِيَتَهُ الْيُمْنَى السّفْلَى ، وَجَرَحَ شَفَتَهُ السّفْلَى ، وَأَنّ عَبْدَ اللّهِ بْنَ شِهَابٍ الزّهْرِيّ شَجّهُ فِي جَبْهَتِهِ وَأَنّ ابن قَمِئَةَ جَرَحَ وَجْنَتَهُ فَدَخَلَتْ حَلْقَتَانِ مِنْ حَلَقِ الْمِغْفَرِ وَجْنَتَهُ وَوَقَعَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ فِي حُفْرَةٍ مِنْ الْحُفَرِ الّتِي عَمِلَ أَبُو عَامِرٍ لِيَقَعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

---

(١) سورة آل عمران ١٣٩.

(٢) سورة آل عمران ١٢٨.

فَأَخَذَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِ رَسُولِ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلّمَ وَرَفَعَهُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللّه حَتّى اسْتَوَى قَائِمًا ، وَمَصّ مَالِكُ بْنُ سِنَان ، أَبُو أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ الدّمّ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلّمَ ثُمّ ازْدَرَدَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلّمَ مَنْ مَسّ دَمِي دَمَهُ لَمْ تُصِبْهُ النّارُ[1].

وعاد أكثر المؤمنين يومئذ إلى المدينة مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ كان عدد المقاتلين من المؤمنين نحو سبعمائة، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾[2].

الثالثة : يفيد الجمع بين الآيتين البشارة للمؤمنين بالأمن من أهوال يوم القيامة، وبالإقامة في النعيم الدائم بلحاظ إقتران العمل الصالح بالإيمان، وهو من بركات رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسلامة القرآن من التحريف والتبديل والتغيير.

الثالث : تقدير الجمع بين خاتمتي الآيتين: والله يرزق من يشاء والله رؤوف بالعباد) وفيه مسائل :

الأولى : بيان الفضل العظيم لله عز وجل على الناس وأنه سبحانه ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[3].

الثانية : الجمع بين الآيتين من الشواهد على قوله تعالى في

---

(١)ابن هشام/السيرة النبوية ٧٩/٢.

(٢) سورة آل عمران ١٥٢.

(٣)سورة الذاريات ٥٨.

خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١].

الثالثة : يدل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ بلحاظ الرزق على أمور:

أولاً : السعة في رزق الله، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢].

ثانياً : عدم الملازمة بين الإيمان والرزق، لأن الملاك في الرزق هو رأفة الله بالعباد، قال تعالى ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٣].

ثالثاً : دعوة المسلمين للإجتهاد بالدعاء لطلب الرزق الواسع الكريم من عند الله.

رابعاً : يفيد الجمع بين الآيتين أن الله عز وجل يهدي الناس إلى الإيمان برأفته ورحمته، وهذه الهداية من أصدق وجوه الرزق من عند الله، بلحاظ المعنى الأعم للرزق وعدم إختصاصه بالمال والأكل والشرب.

وفي أسباب نزول قوله تعالى ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[٤]، قال ابن عباس : يريد حمزة بن عبد المطلب كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها. أبو

---

(١)سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة النور ٣٨.

(٣)سورة الاسراء٢٠.

(٤)سورة الأنعام ١٢٢.

جهل، وذلك إن أبا جهل رمى النبي {صلى الله عليه وسلم} بالحجارة وحمزة لم يؤمن بعد فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع كعبد مسكين يقول : يا أ با يعلى أما ترى ما جاء به سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا وخالف أبانا.

فقال حمزة : ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون اللّه،

أشهد أن لا إله إلاّ اللّه لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

وقال الضحاك: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل)[1].

قال عكرمة والكلبي: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل، {كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون}[2] من الكفر والمعصية {وَكَذلِكَ} أي وكما زيّنا للكافرين أعمالهم كذلك جعلنا.

وقيل : وكما جعلنا فسّاق مكة أكابرها كذلك {جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ} يعني عظماء، جمع أكبر مثل أفضل وأحمر وأحامر وأسود وأساود {مُجْرِمِيهَا} إن شئت نصبته على التقديم تقديره وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر، كما تقول : جعلت زيداً رئيسها وإن شئت خفضته على الإضافة {ليمكروا فيهاوما يمكرون إلاّ بأنفسهم} لأن وبال مكرهم وجزاءه راجع إليهم {وَمَا يَشْعُرُونَ} إنه كذلك {وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ}[3] من النبوة، وذلك إن الوليد بن المغيرة قال : واللّه لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك لأني أكبر

---

(١) تفسير اللباب ١٥١/٧.

(٢) سورة الأنعام ١٢٢.

(٣) سورة الأنعام ١٢٤.

منك سناً وأكثر منك مالاً، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[١].

إعجاز الآية

التقسيم بين الناس إستقرائي على أساس الإيمان وبيان آثار وسوسة الشيطان للكافرين، وكيف يجعلهم لا يكتفون بالإنقطاع الى الدنيا بل يتوجهون الى معاداة المؤمنين ، وفيه دعوة للناس للهداية، وإنذار من الكفر والضلالة.

ولم تكتف الآية بهذا العرض وذكر الإختلاف والمنافاة فجاءت بوصف حال الآخرة وما للمؤمنين فيها من منازل الرفعة والسمو، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة)[٢].

وعن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عثمان بن مظعون من صلى صلاة الفجر في جماعة ثم جلس يذكر حتى تطلع الشمس كان له في الفردوس سبعون درجة ، كل درجتين كحضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة ، ومن صلى صلاة الظهر في جماعة كان له في جنات عدن خمسون درجة ، بعد ما بين كل درجتين كحضر الفرس الجواد المضمر خمسون سنة.

ومن صلى العصر في جماعة كان له كأجر ثمانية من ولد إسماعيل ، كلهم رب بيت يعتقهم.

---

(١)الكشف والبيان ٥/٢٨٧.

(٢) الدر المنثور ٣/٢١١.

ومــن صــلى المغــرب في جماعــة فهــو كحجــة مــبرورة وعمــرة متقبلة.

ومن صلى العشاء في جماعة، كان له كقيام ليلة القدر)[١].

وتــبين الآيــة أســباب إعــراض الكــافرين عــن الحــق بالخلــل في طريقــة تفكيرهــم والخطــأ في اعمــالهم بانشــغالهم بالــدنيا ومباهجهــا مــع انهــا طريــق ومزرعــة للآخــرة، كمــا تحــث الآيــة المــؤمنين علــى الصبر وتدعوهم لتحمل أذى العدو وتبشرهم بالجنة.

ولمــا إحتجــت الملائكــة علــى جعــل الإنســان خليفــة في الأرض مــع أنــه ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[٢]، تفضــل الله وجــاء بالبينــة والبرهــان، فقــال﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٣]، ومــن علــم الله عــز وجــل أنــه يــبين بــالقرآن ســنخية الــذين كفــروا وحــبهم للــدنيا، وميلــهم إلى زينتهــا ومباهجها، وإنقطاعهم إلى لذاتها، ليكون على وجوه:

الأول : عصمة المؤمنين من الميل إلى الدنيا.

الثــاني : تحلــي المــؤمنين بالصــبر والتحمــل، قــال تعــالى﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾[٤].

الثالــث : دعــوة المســلمين إلى تعاهــد الفــرائض والطاعــات والإقبــال بشــوق علــى الصــلاة والصــيام والحــج والفــرائض الأخــرى مع الإعراض عن الذين كفروا وسخريتهم بهم.

الرابــع : بعــث النفــرة في نفــوس النــاس مــن الــذين ينقطعــون إلى

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٣٨٥/٦.

(٢)سورة البقرة ٣٠.

(٣)سورة البقرة ٣٠.

(٤)سورة البقرة ٤٥ .

زينة الدنيا، ويصرون على الكفر والجحود.

الخامس : إقامة الحجة على مشركي العرب، وبيان علة عزوفهم عن الإسلام، ومحاربتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو حب الدنيا.

السادس : الآية دعوة للتوبة والإنابة والتنزه عن الإنقطاع إلى الدنيا.

السابع : كشف زيف الدنيا .

وعن عبد الله بن مسعود قال: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ اسْتَحْيُوا منْ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاء قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه إنَّا نَسْتَحي وَالْحَمْدُ للَّه قَالَ لَيْسَ ذَلكَ وَلَكنْ مَنْ اسْتَحَى منْ اللَّه حَقَّ الْحَيَاء فَلْيَحْفَظْ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى وَلْيَحْفَظْ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى وَلْيَذْكُرْ الْمَوْتَ وَالْبلَى وَمَنْ أَرَادَ الْآخرَةَ تَركَ زينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا منْ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاء)[1].

ومن علم الله عز وجل في المقام مجئ هذه الآية بذم إتباع مباهج الدنيا مع بيان منازل الرفعة والشرف التي يفوز بها المؤمنون يوم القيامة.

ومن الإعجاز في قوله تعالى﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2]، حث المسلمين والناس جميعاً على إعطاء الأولوية في القول والفعل للإدخار إلى عالم الآخرة وحسن الإقامة فيها، ورجاء فضل الله عز وجل ورزقه الواسع في النشأتين.

---

(١) مسند أحمد ٢٤/٨.

(٢)سورة البقرة ٢١٢.

ويمكن تسمية آية البحث آية(**زين للذين كفروا**)، وورد هذا اللفظ مرتين في القرآن، قال تعالى[بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ][(١)] لبيان غاية حميدة من آية البحث وهي لزوم الإحتراز من الذين كفروا وحبهم للدنيا، لأنه قبيح بذاته وقد يسوقهم لمحاربة الإسلام والنبوة والتنزيل.

الآية سلاح

ان معرفة المسلمين واطلاعهم على مبنى تفكير الكافرين وسنن حياتهم يهون من امرهم ويحول دون اتباعهم ويخفف من اثر ايذائهم للمسلمين ويجعل استخفافهم وسخريتهم بالمسلمين عديمة الجدوى، وسبباً في زيادة الإيمان كما ان الآية تعطي للآخرة الأولوية في السعي والعمل.

وإبتدأت الآية بصيغة المبني للمجهول(زين للذين) ترى من الذي زين للذين كفروا الحياة الدنيا، يحتمل الجواب وجوهاً:

الأول : إن الله عز وجل هو الذي يزين للكافرين حب الدنيا، إستدراجاً وخذلاناً لهم، لذا وردت قراءة بصيغة البناء للفاعل(زَيَّنَ للذين كفروا) لتكون الآية معطوفة على خاتمة الآية السابقة(فان الله شديد العقاب) ويكون تزيين الله الحياة الدنيا للكافرين فرع عقابه لهم، قال تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾[(٢)].

---

(١) سورة الرعد ٣٣.

(٢)سورة النمل ٤.

الثاني : إرادة تزيين الكفار لأنفسهم حب الدنيا، والمناجاة في الإنقطاع إليها، وترك وجوب تلقي النبوة والتنزيل بالتصديق، فكل فرد من الكفار يزين لصاحبه الحياة الدنيا كما أنهم مجتمعون يقومون بتزيين الحياة الدنيا بعضهم لبعض.

الثالث : غلبة النفس الشهوية عند الكافر، والميل إلى الدنيا، فهو بنفسه يزين الحياة الدنيا لنفسه.

الرابع : المقصود أن الشيطان يزين للذين كفروا الحياة الدنيا لميلهم للباطل وإتباعهم لخطوات الشيطان، قال تعالى ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾(١).

ويلحظ في الآية أعلاه أن الشيطان يزين لهم أعمال الباطل والكفر والصدود بعد إتيانهم لها، وليس سوقهم إليها، وفيه نكتة باقامة الحجة من الله على الذين كفروا، وأنه سبحانه لم يجعل للشيطان عليهم سلطاناً بحيث يأمرهم إبتداءً بفعل السيئات، لذا قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾(٢).

وهل حب الدنيا وزينتها لم ينزل الله به سلطاناً ، الجواب نعم، وإن لم يكن بمرتبة الشرك بالله.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وهو من أسرار مجئ آية البحث بصيغة المبني للمجهول (زين للذين كفروا) وعن عياض بن حمار المجاشعي : أنه شهد خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسمعه يقول : إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم من دينكم مما علمني

(١)سورة الأنفال ٤٨.

(٢)سورة آل عمران ١٥١.

يومي هذا ، إن كل مال نحلته عبداً فهو له حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنه أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)(١).

ليكون في الآية بعث المسلمين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحث الناس ومنهم الذين كفروا لتنزيه الأرض من اللهث وراء حلاوة الدنيا الذي يفقد الإنسان الصبر، ويمنعه من أداء ما يجب عليه من العبادات.

وفي الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحمك الله.

قال أريد أن أقطع هذه الشجرة.

قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتى قال فإنى لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقنى حتى أكلمك فقام عنه.

فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها.

فقال العابد لا بد لى من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بينى وبينك وهو خير لك وأنفع.

---

(١) الدر المنثور ٨٨/٤.

قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التى يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها.

فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبى فيلزمنى قطع هذه الشجرة ولا أمرنى الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له.

فرجع العابد إلى متعبده فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم اصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا

فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه إبليس وصرعه فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك فنظر العابد فإذا لا طاقة له به.

قال يا هذا غلبتنى فخل عنى وأخبرنى كيف غلبتك أولا وغلبتنى الآن.

فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرنى

الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك(١).

أسباب النزول

وفيها وجوه :

الأول : نزلت الآية في أبي جهل ورؤساء قريش، كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كعبد الله بن مسعود وعمار وخباب وسالم مولى ابي حذيفة وعامر بن فهيرة وأبي عبيدة بن الجراح بسبب ما كانوا عليه من الفقر والضر والصبر على انواع البلاء، مع ان الكفار كانوا في التنعم والراحة، روي عن ابن عباس.

الثاني : نزلت في جماعة من أهل الكتاب سخروا من فقراء المسلمين المهاجرين، لأنهم اخرجوا من ديارهم وأموالهم.

الثالث : نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي بن أبي سلول وأصحابه، كانوا يسخرون من ضعفاء المسلمين وفقراء المهاجرين.

ولا مانع من نزولها في الجميع ، اذا صحت نسبة سند سبب النزول، والمدار على عموم المعنى وليس سبب النزول .

مفهوم الآية

تذكر الآية عدة مواضيع يظهر بينها تناف وتناقض، ولكنها متحدة في باب المعرفة الإلهية وبعضها يدل على البعض الآخر كل بحسب حاله في الدلالة والحجة والبرهان فهناك تباين وإختلاف بين اللهث وراء بهجة الدنيا وغرورها، وبين التقوى وما يترشح عنها من انماط السلوك والأفعال والنظر الى الدنيا بلحاظ انها مزرعة الآخرة، وهذا التباين يسبب الخلل عند الذين كفروا فبدل من الإعتبار والإتعاظ والتدبر بالآيات والنظر بعين الإكرام والإجلال لأهل الإيمان اخذوا يستهزئون منهم لدخولهم الإسلام

(١)إحياء علوم الدين٤/٣٧٧.

وايمانهم بالآيات مما يدل على ان النظر الى الدنيا والإنقطاع الى زينتها يسبب العمى والغشاوة على البصيرة والإرباك ويجعل البياض سواداً والسواد بياضاً مما يؤدي الى إصرار صاحبها على الضلالة وتحمله اوزار كفره وتعديه على المؤمنين بما هم مؤمنين أي ان استهزائه لم يتعلق بهم كافراد او بلحاظ النسب والهيئة وافعال الجوارح ونحوها بل بسبب ايمانهم وتوظيفهم العقل في مرضاة الله والإستجابة لما ينزل من السماء لتكون عقوبة الكفر أشد، لذا فان وجود المؤمن بين الكفار سبب لزيادة البلاء والإثم عليهم .

قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١).

والآية سكينة للمؤمنين ومواساة سماوية لإستهزاء الكافرين ومنع من تأثيره على المسلمين بل أنه يزيدهم إيماناً وتجاهراً بالشعائر وإظهاراً لمضامين التقوى والصلاح ومفاهيم الأخوة والإتحاد فيما بينهم، وقد يقابل الإستهزاء شعور بالخجل ، ومحاولة لكتمان علة الإستهزاء ، والتواري عن الأنظار ، والبحث عن مشتركات في العقائد ووسطية في الأمور تخفف من شدة الإستهزاء .

ولكن هذه الآية جاءت حصانة للمسلمين وابطالاً لأثر الإستهزاء وافراغه من محتواه ليصبح وبالاً على اصحابه وفضحاً وخزياً لهم في الدنيا قبل الآخرة.

فمن الإعجاز القرآني ان هذه الآية تجعل المسلم يزداد إيماناً عند الإستهزاء به بموضوعه واعتقاده ليدحر المستهزئ ويجعل

---

(١) سورة الحجرات ١٣.

وطأة الإستهزاء ترجع عليه وتسبب له القلق والإضطراب والحيرة بالإضافة إلى الخسارة يوم القيامة وظهور آثار الإستهزاء العكسية عليهم وهم في النار والمؤمنون متنعمون في الجنة، وجاء وصف الفوقية في الآية للمعنى والرفعة والسمو في مراتب الجنة .

وعن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ بِالْمَوْسِمِ فَرَاثَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي، ثُمَّ رَأَيْتُهُمْ فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَاتُهُمْ ، قَدْ مَلَؤُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ" ، فَقَالَ: أَرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ ؟ .

فَقُلْتُ: "نَعَمْ". قَالَ: فَإِنَّ مَعَ هَؤُلاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَهُمْ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ". فَقَامَ عُكَاشَةُ فَقَالَ: يَا رسول اللّه، ادعُ اللّه أن يجعلني منهم فقال:"أَنْتَ مِنْهُمْ" فقام رجل آخر فقال: ﴿ادع الله أن يجعلني منهم فقال﴾ سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ" [1].

وخاتمة الآية رد وزجر الإستهزاء وإخبار عما فيه من الثواب للمسلمين، فتارة يأتي الأجر للعبد بما يفعله ويقوله من مصاديق الخير والصلاح وتارة يأتيه على نحو سلبي من غير ان يصدر منه فعل وذلك لإستهزاء الكافرين، سواء لما في هذا التحمل من الصبر او لمقابلته بالتحدي والثبات على الإيمان وحسن الإمتثال للأوامر الإلهية، وهذا الإستهزاء عبرة ودعوة للمسلمين للصبر فهو نوع ابتلاء وافتتان ويستلزم استقرار الإيمان، قال تعالى﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وجاءت الآية لتثبيت الإيمان في نفوس المسلمين من وجوه:

(١) تفسير ابن كثير ٢/٩٧.

(٢) سورة آل عمران ٢٠٠.

الأول : الإخبار عن حصول الإستهزاء في رصد القرآن للواقع اليومي للمسلمين ومن الإستهزاء ما يكون الإخبار عنه من علم الغيب قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1]، وان موضوع الآية لا ينحصر بايام التنزيل بل هو شامل ومستمر الى يوم القيامة، ويتباين في كيفياته وحيثياته واشكاله بحسب الحال والشأن وقد يتخذ صيغاً اكثر اتساعاً في زمان العولمة والثورة الإعلامية، والإستهزاء بالمؤمنين لإيمانهم وأدائهم الفرائض نوع عداوة وفي الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : يقول الله تعالى(من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وقال من أهان لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة)[2].

الثاني : ظاهر الآية أن عدم تعلق المسلمين بالدنيا وزينتها من مواضيع الإستهزاء فما في الآية من الأخبار وقاية وصيانة للمسلمين من الإنجرار الى التعلق بالدنيا.

الثالث : الآية دعوة للمسلمين كدول ومؤسسات وجماعات وافراد ان يقوموا بالتصدي لحملة الإستهزاء كل بحسبه وبالطريقة المناسبة واثبات بطلان هذا الإستهزاء وخطئه خصوصاً وانه نوع كيد ومكر، فلابد من التوقي منه ، وهذه الآية عون في ارجاعه الى نحور الكافرين.

الرابع : في هذا الإخبار تأديب للمسلمين في عدم محاكاة الكافرين في اقبالهم على الدنيا وزخرفها وقمع للنفس الشهوية.

---

(١) سورة البقرة ٢١٢.

(٢) تفسير البغوي ٦/٣٧٥.

الخامس : بعث العز في نفوس المسلمين وعدم ركونهم او ضعفهم وتداعي مجتمعاتهم وهو دعوة سلبية لأدائهم للفرائض بعد فضح هذا الإستهزاء وابطاله.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالفعل المبني للمجهول (زين) ويفيد رسم هذا اللفظ وعلقته بالمعنى الحسن والبهجة ، وهو نوع مفاعلة بين أطراف:

الأول : الذين يقوم بالتزيين ويتولاه.

الثاني : موضوع التزيين، وهو الحياة الدنيا.

الثالث : الذين يتلقون التزيين، وهم الذين كفروا.

وهل في الآية نوع عذر للذين كفروا بلحاظ أن فعل التزيين يقع عليهم كما في آدم وحواء عندما نهاهم الله عز وجل عن الأكل من الشجرة، وقال تعالى﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[1]، الجواب لا، من جهات :

الأولى : التباين الموضوعي، ولأن الدنيا دار التكاليف والإختبار بينما كان أكل آدم وحواء من الشجرة وهما في الجنة، ولم يرد لفظ(أزلهما) في القرآن إلا في الآية أعلاه.

الثانية : لم يأت التزيين إلا بعد تلبس الذين كفروا بالجحود والكفر،وهو إستدراج لهم.

الثالثة : لقد خلق الله الناس لعبادته، وجعل الدنيا واسطة وسبيلاً لهذه العبادة، قال تعالى﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ

(١)سورة البقرة ٣٦.

لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

الرابعة: بيان آية البحث لقبح تزيين الدنيا والإفتتان بها.

ومن الإعجاز في آية البحث أنها ذكرت الذين زينت لهم الدنيا من بين الناس وهم(الذين كفروا)، ثم ذكرت خصلة لهم وهي سخريتهم وإستهزائهم بالذين آمنوا بقوله تعالى﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وتحتمل النسبة بين تزيين الدنيا للذين كفروا وسخريتهم من المؤمنين وجوهاً:

الأول: سخرية وإستهزاء الذين كفروا من المؤمنين فرع تعلقهم بالدنيا وإنقطاعهم لها، لأن الذين آمنوا يواظبون على أداء الفرائض ويتخذون من الدنيا مزرعة للآخرة.

الثاني: حب الذين كفروا للدنيا سبب لسخريتهم من الذين آمنوا.

الثالث: كل من تزيين الدنيا بعيون الذين كفروا وسخريتهم من الذين آمنوا سبب للآخر.

الرابع: ليس من علقة سببية بين الأمرين، إذ أن واو العطف في (ويسخرون) تفيد التغاير الموضوعي.

والجواب إن العطف وهذا التغاير لا يتعارض مع السببية بين الإثنين في حال ثبوتها، فكما يعطف العام على الخاص، والخاص على العام، ذكرنا مبحثاً جديداً وهو قد يعطف السبب على المسبب وبالعكس بالواو كما هو الحال بالعطف بالفاء وفي التنزيل﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[2].

---

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢)سورة القصص ١٥ .

والمختار أن إختيار الذين كفروا الكفر والشرك هو علة تزيين الدنيا لهم وسخريتهم من الذين آمنوا إلا أن هذا لا يتعارض مع صيرورة كل من تزيين الدنيا والسخرية من الذين آمنوا سبباً للآخر على نحو السالبة الجزئية، وأثر حب الدنيا جلي في السخرية من الذين آمنوا.

وجاءت آية أخرى لبيان إستهزاء الظالمين من المؤمنين بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾[1]. ليكون بين السخرية، وهذا الضحك والتغامز عموم وخصوص مطلق، فالسخرية أعم.

وتحتمل النسبة بين حب الذين كفروا للدنيا وسخريتهم من الذين آمنوا من جهة الرتبة وجوهاً:

الأول: زينة وإنقطاع الذين كفروا للدنيا أكبر إثماً من السخرية من الذين آمنوا، لذا تقدم ذكره في آية البحث.

الثاني: سخرية الذين كفروا هي الأكبر إثماً وأشد غروراً.

الثالث: كل من زينة الدنيا والسخرية من الذين آمنوا بمرتبة واحدة.

والمختار أن الميل إلى الدنيا ومباهجها هو الأشد لما فيه من نسيان الآخرة، ولزوم الإستعداد لها وصرف أهوالها بالعمل الصالح، والسعي للعبور على الصراط يوم القيامة بأمن وأمان.

وفي حديث الصراط أنهما صراطان، فأحدهما في الدنيا وهو الإيمان والهداية والعمل الصالح، أما في الآخرة فهو جسر على جهنم يعبر عليه الناس باعمالهم، وليس له حد ثابت فقد يكون واسعاً عريضاً لأهل الإيمان، وقد يكون كحد السيف للذين كفروا

---

(١)سورة المطففين٢٩-٣٠.

الذين إنشغلوا بالدنيا وزينتها، وهو من مصاديق قوله تعالى﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1].

وقراءة المسلمين للآية أعلاه عدة مرات في اليوم، ليكون الإيمان والعمل الصالح مقدمة مباركة ووسيلة للعبور على صراط الآخرة.

وتحضر الأعمال العبادية للمؤمن عند الصراط لإعانته في العبور، وعن تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يقول الله لملك الموت : انطلق إلى وليي فائتني به فإني قد جربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب ، فائتني به لأريحه من هموم الدنيا وغمومها .

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من حنوط الجنة ومعهم ضبائر الريحان ، أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لوناً ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر ، فيجلس ملك الموت عند رأسه ، وتحتوشه الملائكة ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه ، ويبسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ، فإن نفسه لتعلل عنده ذلك بطرف الجنة مرة بأزواجها ومرة بكسوتها ومرة بثمارها ، كما يعلل الصبيّ أهله إذا بكى ، وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشاً، وتنزو الروح نزواً.

ويقول ملك الموت : أخرجي أيتها الروح الطيبة إلى سدر مخضود وطلح ممدود وماء مسكوب ، وملك الموت أشد تلطفاً به من الوالدة بولدها ، يعرف أن ذلك الروح حبيب إلى ربه ، كريم

---

(١) سورة الفاتحة ٦.

على الله فهو يلتمس بلطفه تلك الروح رضا الله عنه ، فسلّ روحه كما تسل الشعرة من العجين ، وإن روحه لتخرج والملائكة حوله يقولون : { سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون }[١]، وذلك قوله : { الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم}[٢].

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[٣]، قال : فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم قال : روح من جهد الموت وروح يؤتى به عند خروج نفسه وجنة نعيم أمامه . فإذا قبض ملك الموت روحه يقول الروح للجسد : لقد كنت بي سريعاً إلى طاعة الله بطيئاً عن معصيته ، فهنيئاً لك اليوم فقد نجوت وأنجيت ، ويقول الجسد للروح : مثل ذلك ، وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله عليها.

كل باب من السماء كان يصعد منه عمله وينزل منه رزقه أربعين ليلة ، فإذا اقبضت الملائكة روحه أقامت الخمسمائة ملك عند جسده لا يقلبه بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة عليهم السلام قبلهم ، وعلته بأكفان قبل أكفانهم وحنوط قبل حنوطهم ، ويقوم من باب بيته إلى باب قبره صفان من الملائكة يستقبلونه بالاستغفار، ويصيح إبليس عند ذلك صيحة يتصرع منها بعض إعظام جسده ، ويقول لجنوده : الويل لكم كيف خلص هذا العبد منكم؟ فيقولون : إن هذا كان معصوماً .

فإذا صعد ملك الموت بروحه إلى السماء يستقبله جبريل في

---

(١) سورة النحل ٣٢.

(٢) سورة النحل ٣٢.

(٣) سورة الواقعة ٨٨-٨٩.

سبعين ألفاً من الملائكة كلهم يأتيه من ربه ، فإذا انتهى ملك الموت إلى العرش خرت الروح ساجدة لربها ، فيقول الله لملك الموت : انطلق بروح عبدي فضعه {في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب}[1].

فإذا وضع في قبره جاءت الصلاة فكانت عن يمينه.

وجاء الصيام فكان عن يساره .

وجاء القرآن والذكر فكانا عند رأسه.

وجاء مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه.

وجاء الصبر فكان ناحية القبر ، ويبعث الله عتقاً من العذاب فيأتيه عن يمينه ، فتقول الصلاة : وراءك والله ما زال دائباً عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في قبره ، فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك . ، فيأتيه من قبل رأسه فيقول له مثل ذلك ، فلا يأتيه العذاب من ناحية فيلتمس هل يجد لها مساغاً إلا وجد ولي الله قد أحرزته الطاعة ، فيخرج عنه العذاب عندما يرى.

ويقول الصبر لسائر الأعمال : أما إنه لم يمنعني أن أباشره بنفسي إلا أني نظرت ما عندكم ، فلو عجزتم كنت أنا صاحبه ، فأما إذا أجزأتم عنه فأنا ذخر له عند الصراط وذخر له عند الميزان.

ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف وأصواتهما كالرعد القاصف وأنيابهما كالصياصي وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما بين منكبي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا ، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة إلا بالمؤمنين ، يقال لهما : منكر ونكير ، وفي يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها الثقلان لم يقلوها.

---

(١) سورة الواقعة ٣١.

فيقـولان لـه : اجلـس فيسـتوي جالسـاً في قـبره فتسـقط أكفانـه في حقويه . فيقولان له : من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك.

فيقـول : ربـي الله وحـده لا شـريك لـه ، والإِسـلام ديـني ، ومحمـد نـبي ، وهـو خـاتم النبـيين . فيقـولان لـه : صـدقت ، فيـدفعان القبر فيوسعانه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره ومن قبل رأسه ومن قبل رجليه .

ثـم يقـولان لـه : أنظـر فوقـك ، فينظـر ، فـإذا هـو مفتـوح إلى الجنـة ، فيقـولان لـه : هـذا منزلـك يـا ولـيّ الله ، لم أطعـت الله فوالـذي نفس محمد بيده إنه لتصل إلى قلبه فرحة لا ترتد أبداً.

فيقـال لـه : أنظـر تحتـك فينظـر تحتـه فـإذا هـو مفتـوح إلى النـار ، فيقولان : يـا ولـي الله نجوت مـن هـذا فوالـذي نفسي بيده إنـه لتصـل إلى قلبـه عنـد ذلـك فرحـة لا ترتـد أبـداً ، ويفـتح لـه سـبعة وسـبعون باباً إلى الجنـة يأتيـه ريحهـا وبردهـا حتـى يبعثـه الله تعـالى مـن قـبره إلى الجنة.

وأمـا الكـافر فيقـول الله لملـك المـوت : ويفـتح الله لملـك المـوت انطلـق إلى عبـدي فـائتني بـه فـإني قـد بسـطت لـه رزقـي وسـربلته نعمـتي فـأبى إلا معصـيتي فـأئتني بـه لأنـتقم منـه اليـوم ، فينطلـق إليـه ملـك المـوت في أكـره صـورة رآهـا أحـد مـن النـاس قـط ، لـه اثنتـا عشرة عيناً ومعه سفود من النار كثير الشوك ، ومعه خمسمائة من الملائكـة معهـم نحـاس وجمـر مـن جمـر جهـنم ، ومعهـم سـياط مـن النـار تـأجج فيضـربه ملـك المـوت بـذلك السـفود ضـربة يغيـب أصـل كل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق من عروقه ، ثـم يلويـه ليّـاً شـديداً ، فينـزع روحـه مـن أظفـار قدميـه ، فيلقيهـا في عقبيه ، فيسكر عدوّ الله عند ذلك سكرة.

وتضـرب الملائكـة وجهـه ودبـره بتلـك السـياط ، ثـم كـذلك إلى

حقويه ، ثم كذلك إلى صدره ، ثم كذلك إلى حلقه ، ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه.

ثم يقول ملك الموت : أخرجي أيتها النفس اللعينة الملعونة إلى ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۞ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ۞ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾(١).

فإذا قبض ملك الموت روحه قالت الروح للجسد : جزاك الله عني شراً فقد كنت بي سريعاً إلى معصية الله بطيئاً بي عن طاعة الله ، فقد هلكت وأهلكت .

ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي الله تعالى عليها ، وتنطلق جنود إبليس إليه يبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من بني آدم النار ، فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فتدخل اليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى ويبعث الله إليه حيات دهماء تأخذ بأرنبته وإبهام قدميه ، فتغوصه حتى تلتقي في وسطه.

ويبعث الله إليه الملكين فيقولان له : من ربك؟ وما دينك؟ فيقول : لا أدري فيقال له : لا دريت ولا تليت ، فيضربانه ضربة يتطاير الشرار في قبره ، ثم يعود ، فيقولان له : انظر فوقك ، فينظر ، فإذا باب مفتوح إلى الجنة.

فيقولان له عدو الله لو كنت أطعت الله تعالى ، هذا منزلك فوالذي نفسي بيده إنه ليصل إلى قلبه حسرة لا ترتد أبداً ، ويفتح له باب إلى النار ، فيقال : عدوّ الله هذا منزلك لما عصيت الله ، ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه من قبره يوم القيامة إلى النار(٢).

---

(١) سورة الواقعة ٤٢-٤٤.

(٢)الدر المنثور ٩/٤٠٣ .

وفي الآية مزيد توبيخ للذين كفروا من جهات متداخلة:

الأولى : حب الذين كفروا للدنيا، وإنشغالهم بملذاتها.

الثانية : الإستهزاء بالذين آمنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتتعدد ضروب هذا الإستهزاء من وجوه:

الأول : الإستهزاء بالمسلمين لدخولهم في الإسلام ونطقهم بالشهادتين، وهذا الإستهزاء ليس جديداً بل هو من الأذى الذي لاقاه الأنبياء وأتباعهم، وفي نوح ورد قوله تعالى ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾(١).

الثاني : تلقي المسلمين التنزيل بالقبول والرضا والغبطة.

الثالث : تصديق المسلمين بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم العقلية والحسية.

الرابع : أداء المسلمين الفرائض والعبادات وفق القرآن والسنة وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢).

وهل من مصاديق سخرية الذين كفروا مضامين قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾(٣)، أم أن القدر المتيقن من آية البحث وجوه السخرية التي تكون جلية واضحة خاصة وأن الآية أعلاه وردت بصيغة

---

(١) سورة هود ٣٨-٣٩.

(٢)سورة آل عمران ١١٠ .

(٣)سورة البقرة ١٤٢.

الإستقبال ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾(١).

والجواب هو الأول، إذ أن السخرية أعم من أن تكون بلفظ الإستهزاء، وتتغشى أفراد الزمان الطولية.

الثالثة : من مصاديق توبيخ الذين كفروا إخبار آية البحث بأن المؤمنين فوقهم يوم القيامة، وما فيه من معاني الإنذار والوعيد، ومن الإعجاز في آية البحث التباين بوصف المؤمنين فيها، ففي السخرية والإستهزاء من الذين كفروا ذُكر المسلمون بلفظ (الذين آمنوا) .

أما بالنسبة للآخرة وحال الناس فيها، فقد ذُكر المؤمنون بلفظ (الذين اتقوا) لبيان أن النسبة بين الذين آمنوا والذين اتقوا هي العموم والخصوص المطلق.

فيستهزأ الذين كفروا من كل الذين يدخلون الإسلام بينما يكون ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾(٢)، فوق الذين كفروا يوم القيامة ليخرج بالتخصيص الذي آمن بالدعوة الإسلامية ظاهراً، ونطق بالشهادتين، ولكن الإيمان لم يستمكن من قلبه، وفي التنزيل ﴿قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(٣).

ومن أسرار إنتقال آية البحث من الحديث عن الدنيا وإستهزاء الذين كفروا إلى عالم الآخرة أمور:

الأول : تذكير المسلمين والناس جميعاً بعالم الحساب، وهو

(١) سورة البقرة ١٤١.
(٢)سورة الملك ١٢.
(٣)سورة الحجرات ١٤.

من أبهى معاني الذكرى والموعظة، قال تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[1].

الثاني: بيان أن الدنيا دار عمل بلا حساب، وأن الإستهزاء بالمسلمين سيكون حاضراً يوم القيامة، وهو وبال على أصحابه، قال تعالى ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2].

الثالث: الإخبار بأن المدار على عالم الآخرة، وحال الإنسان فيها.

الرابع: البشارة للمسلمين بالعلو والفوز بالمقام الرفيع في الآخرة.

الخامس: مواساة المسلمين، ودفع الحزن والخوف عن نفوسهم بسبب إستهزاء الذين كفروا بهم، وبه دلالة على الإطلاق في قوله تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، ويحتمل موضوع الآية أعلاه والسلامة من الخوف والحزن وجوهاً:

الأول: إرادة الحياة الدنيا.

الثاني: المقصود عالم الآخرة.

الثالث: المراد سلامة المهتدين من الخوف والحزن في الدنيا والآخرة.

والصحيح هو الأخير لأصالة الإطلاق، وفيه مسألتان:

الأولى: حدوث الخوف والحزن للمؤمنين في أيام الحياة

---

(١)سورة الأعلى ٩.

(٢) سورة الأنعام ٣١.

(٣)سورة البقرة ٣٨.

الدنيا، وقد يصيبهم من أسباب الحزن والخوف أشد مما يصيب الذين كفروا.

الثانية : وردت النصوص بأن متعلق عدم الحزن والخوف للمؤمنين هو خصوص عالم الآخرة، وعن ابن عمر مرفوعاً : ان لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه ، فجثا أعرابي على ركبتيه فقال : يا رسول الله صفهم لنا حلهم لنا .

قال : قوم من إفناء الناس من نزاع القبائل تصادقوا في الله وتحابوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم ، يخاف الناس ولا يخافون ، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[1].

أما الأولى فان القدر المتيقن من الخوف والحزن اللذين تنفيهما آية البحث هو: خوف الإنسان وهو في الدنيا مما يلاقيه في الآخرة، فليس عند المؤمن خوف من هذا الجانب للبشارات، من عند الله بالأمن والسلامة يوم القيامة.

فان قلت معنى الحزن هو الأسى والحسرة على ما فات وجرى(قال ابن الأعرابيّ ومحمّدُ بن حَبيب: الحُزْنُ: ما ثَبَتَ في القَلْبِ فلم يُسْلَ، والحَزَنُ - بفَتْحَتَيْن - : ما سَلاه صاحبُ المُصِيْبَةِ. وقال الحَسَنُ لابْنِه: لقد شَغَلَني الحُزْنُ عليكَ عن الحُزْنِ لك [2].

والجواب إنه أعم ، ولا دليل على ثبات الحَزن في القلب، ومن معاني تسمية الإنسان أنه ينسى، وكما يطرأ الحزن على الإنسان فان الفرح يطرأ عليه أيضاً، ولكن الرعب الذي ورد في

---

(١)الدر المنثور ٥/٢٤٨.

(٢)المحيط في اللغة ١/٢٠٤.

قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[1]، لا ينساه المسلمون والكافرون .

أما المؤمنون فانهم يتلون الآية أعلاه كل يوم خمس مرات وعلى نحو الوجوب العيني على كل مسلم ومسلمة في الصلاة اليومية، فتبعث السكينة في نفوسهم .

وأما الكافرون فان الرعب يتجدد في قلوبهم وهو من أسرار مجئ الآية أعلاه بصيغة المضارع (سنلقي) فلا يسعهم دفع أفراده التي توجهت لهم في معركة أحد ولمن خلفهم وبعدهم.

وأختتمت الآية بالوعد الكريم للمؤمنين، والترغيب بالإيمان، والثناء الله عز وجل على نفسه ، وهو سبحانه ﴿الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2].

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : إبتدأت آية البحث بالإخبار عن تزيين الحياة الدنيا للذين كفروا ، ومع أن إثبات شئ لشئ لا يدل على نفيه عن غيره إلا أن الآية تنفي تزينها للذين آمنوا لأنهم إختاروا الآخرة وآمنوا بلقاء الله يوم القيامة فلذا تضمنت آية البحث بشارتهم بالمقام الكريم فيها ، قال تعالى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[3].

الثانية : بيان القبح العرضي لحب الدنيا والإغترار بها، لأنه

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة الذاريات ٥٨.

(٣) سورة الأنعام ٣٢.

يؤدي إلى السخرية من الذين آمنوا الذين زهدوا فيها.

الثالثة : هناك تباين بين حب الدنيا وبين إقبالها، فكون الذين كفروا يحبون الدنيا لا يعني أنها مقبلة عليهم بزخرفها ومباهجها لذا جاء الذم بخصوص حب الدنيا وقد تقبل على الذين آمنوا فيسخرونها في مرضاة الله، ويكون هذا الفعل حسرة في نفوس الذين كفروا في الدنيا والآخرة ، قال تعالى في الثناء على المؤمنين الذين أتبعوا الأنبياء وقاتلوا معهم ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ (١).

وجاءت آية البحث بالإطلاق في سخرية وإستهزاء الذين كفروا من الذين آمنوا مما يدل أن موضوع هذه السخرية هو الإيمان والتصديق بالنبوة والتنزيل وإتيان الفرائض والواجبات، وهذه السخرية شرف للمؤمنين ومناسبة لتنمية ملكة الصبر عندهم ونيلهم الثواب لعظيم ، وهو من مصاديق قوله ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢).

فمع سخرية الذين كفروا فان المسلمين يدعون إلى عبادة الله، ويتعاهدون سنن التقوى، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣).

الرابعة : من غايات آية البحث تذكير الناس بعالم الآخرة، ومن الإعجاز فيها بيان التنزيل بين الشأن الرفيع للذين آمنوا وبين مرتبة الأدنى للذين كفروا، والتباين والتضاد بين حال الذين آمنوا

---

(١)سورة آل عمران ١٤٨.

(٢)سورة آل عمران ١١٠ .

(٣)سورة آل عمران ١٣٢.

والذين كفروا يوم القيامة أشد وأكبر من مسألة الفوق والأدنى إلا أن الآية جاءت للإحتجاج وتوبيخ الذين كفروا وزجرهم عن السخرية والإستهزاء بالذين آمنوا .

وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن مثلي ومثل ما بعثني الله تعالى به كمثل رجل أتى قوما، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به من الحق، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق)[1].

وقد جاءت الحروف المقطعة التي في بدايات عدد من سور القرآن لمنع الذين كفروا من إيذاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ أنه كان يجهر بالقراءة في الصلوات كلها، فيقوم المشركون بالتصفيق والصفير ويأتون بالفاظ مقاربة من لفظ الآية القرآنية لإرادة تغليط النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قراءته، فانزل الله الحروف المقطعة لجذبهم إلى الإنصات لها، وجعلهم في حال من الحيرة والاندهاش فتأتي بعدها آيات الأحكام والبشارة والإنذار ليتدبروا في معانيها طوعاً وقهراً، وإرادة ذم النهي عن السخرية بالمؤمنين، ومنع تجاوز الحد فيها وصيرورتها سبباً ومقدمة للحرب وقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، ولبيان حقيقة وهي أن الذين آمنوا على الحق والهدى، وأن الذين كفروا في ضلال .

قال الشاعر :

---

(١) دلائل النبوة/ البيهقي ١/٢٧٠.

(ليس في الحق يا أمية ريب

إنما الريب ما يقول الكذوب[١]

التفسير

قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

وفيه وجوه:

الأول : جاء الفعل ﴿ زُيِّنَ ﴾ بصيغة المبني للمجهول فمن الذي زين لهم الحياة الدنيا فيه مسائل :

الأولى :استدراجاً وابتلاء وعقوبة من عند الله تعالى ، قال الله تعال ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢].

الثانية : ذات الحياة الدنيا أي انها تمتلك القدرة على اغراء الكافرين.

الثالثة : استحواذ الشيطان واغوائه ووسوسته للذين كفروا .

الرابعة : الكافرون بعضهم يزين لبعضهم الأخر مباهج الدنيا والتعلق بها.

الخامسة : كل واحد من الكفار تزين له نفسه الحياة الدنيا لما يحصل عنده من الفراغ والاعراض عن الآخرة.

الثاني : الاقوى ان الوجوه جميعا تصلح للفعل لذا فمن الاعجاز مجيؤه مبنياً للمجهول ولكنه لا يعني انها تكون عند كل الكافرين بعرض واحد، بل انها متباينة في الشدة والضعف، والسعة والضيق، ومتعددة الاشكال والمواضيع، أي ان حب الدنيا عند الكافرين من الكلي المشكك ولكن جميع افراده

---

(١) الدر المنثور ١٩/١.

(٢) سورة البقرة ١٥.

مذمومة فجاءت الآية حرباً عليها ، ومنعاً من طغيان حب الدنيا على النفوس ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

الثالث : قال الجبائي من المعتزلة: المزين هو غواة الجن والإنس، وقال المجبرة انه تعالى زين ذلك، واشكل الرازي على الجبائي بانه اذا كان كل واحد منهم يزين للآخر وحينئذ يصير دوراً، وقال: (اسقط كلام ابي علي في هذا الباب بالكلية)[2].

وليس المقام من الدور بل التأثير المتبادل كجزء من الإبتلاء والإستدراج والتمادي في المعصية.

واستدل على ان المزين هو الله بقراءة من قرأ (زَين) على البناء للفاعل، (وقرأ ابن أبي عبلة: زينت، بالتاء وتوجيهها ظاهر، لأن المسند إليه الفعل مؤنث، وحذف الفاعل لفهم المعنى، وهو: الله تعالى، يؤيد ذلك قراءة مجاهد، وحميد بن قيس، وأبي حيوة: زين، على البناء للفاعل، وفاعله ضمير يعود على الله تعالى، إذ قبله: {فإن الله شديد العقاب})[3].

وورود الفعل مبنياً للمجهول نوع اعجاز اضافي، فقد يكون الشيء نتيجة لسبب، وهو ذاته يكون سبباً لأمر آخر.

الرابع : قد ورد تزيين الله عز وجل للكافرين اعمالهم قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾[4]، والتزيين يكون تارة بالاستدراج، وأخرى بواسطة الأسباب

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) مفاتيح الغيب ٥/؟؟.

(٣) إعراب القرآن لابن سيده ٤٢٨/١ .

(٤) سورة النمل ٤.

عقوبة وإبتلاء.

الخامس : جاء التزيين ايضاً من إغواء الشيطان قال تعالى ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

السادس : تبين الآية حال الضلالة والخسارة التي عليها من زينت الدنيا له.

السابع : في الآية تحذير من الإنشغال بالدنيا واللهث وراء لذاتها.

الثامن : هناك ملازمة بين الهوى واتباع الدنيا.

التاسع : يملي اختيار الفوز في الآخرة على العبد اجتناب اعطاء الأولوية للدنيا ، قال تعالى ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾[٢].

العاشر : هل يجتمع تزيين الدنيا مع تزيين الآخرة، الجواب على شعبتين، فتارة يكون تزيين الدنيا لذاتها وارادة التمتع بها بتجرد عن أحكام الآخرة، واخرى بتزيينها كمدخل ومزرعة للآخرة فتبدو بهيجة مع الإيمان .

(وأخرج أبو يعلى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهداً زاره ، وإن كان مريضاً عاده . ففقد رجلاً من الأنصار في اليوم الثالث فسأل عنه فقالوا : تركناه مثل الفرخ لا يدخل في رأسه شيء إلا خرج من دبره . قال : عودوا أخاكم فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) سورة الانعام ٤٣.

(٢) سورة الأسراء ١٩.

نعوده ، فلما دخلنا عليه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كيف تجدك؟ قال : لا يدخل في رأسي شيء ألا خرج من دبري. قال : ومم ذاك؟ .

قال يا رسول الله : مررت بك وأنت تصلي المغرب فصليت معك ، وأنت تقرأ هذه السورة {القارعة ❖ ما القارعة}[1] إلى آخرها{نار حامية}[2].

فقلت : اللهم ما كان من ذنب أنت معذبي عليه في الآخرة فعجل لي عقوبته في الدنيا فنزل بي ما ترى . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بئس ما قلت ، ألا سألت الله أن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار ، فأمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدعا بذلك ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام كأنما نشط من عقال)[3].

تفسير قوله تعالى ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

في الآية مسائل:

الأولى : أسباب السخرية إنشغال الذين كفروا في الدنيا ونظرهم اليها وليس منها مما يؤدي الى اعراضهم عن علوم الآخرة واحوالها ووظائفهم في الحياة الدنيا.

الثانية : تبين الآية عظيم الذنب بالإستهزاء بالمسلمين.

الثالثة : في الآية وعد كريم للمؤمنين وعون لهم على الإعراض عن هذا الإستهزاء.

الرابعة : الإخبار عن هذا الإستهزاء حرب على الكفار

---

(١) سورة القارعة ١-٢.

(٢) سورة القارعة ١١.

(٣) الدر المنثور ٣٣٥/١٠.

وخزي لهم.

الخامسة : فضح الكفار في إساءتهم للمسلمين تحذير وانذار لهم، اذا لا يمكن ان يذكر القرآن الحال على نحو مجرد من العقاب للكافرين، والثواب للمسلمين لعمومات قوله تعالى ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[1] ز

وفي إكرام الله عز وجل لموسى عليه السلام ورد قوله تعالى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[2].

السادسة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على ان الأذى الذي يتعرض له المسلمون بعين الله عز وجل.

السابعة : لعل الإستهزاء أقل اذى من وجوه اخرى من الإبتلاء الذي كان يعانيه المسلمون، وذكر الأقل في القرآن يفيد بالأولوية إنذار الكفار مما هو أكبر من الظلم والتعدي.

الثامنة : للإستهزاء بالعبد او الجماعة اضرار نفسية وآثار اجتماعية، والقرآن يتصدى لها ويدفع اضرارها وما قد تسببه من الآلام والإرباك في الأفعال العبادية او الخطط والمضامين الجهادية.

التاسعة : الإستهزاء من قبل الكفار لم يكن عرضياً او جاء اعتباطاً بل هو فعل منظم مدروس يراد منه محاربة الإسلام واضعافه ولذا فضحه القرآن.

العاشرة : الآية تدل على ان القرآن سلاح في ميادين لم يرق العقل البشري آنذاك للمواجهة فيها فلا يكون النصر فيها بالسيف، ولكن بالإحتجاج وإقامة البرهان والإخبار بأن الله يعلم

---

(١) سورة الطور ٤٨.

(٢) سورة طه ٣٩.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[١].

وتتضمن الآية تنمية ملكة الصبر عند المسلمين والمسلمات من جهات:

الأولى : الإتعاظ من نهج الذين كفروا والأضرار التي يجلبها حبهم للدنيا عليهم، وعلى ذراريهم.

الثانية : بيان القبح الذاتي للإنقطاع إلى الدنيا، والإنشغال بها وبملذاتها ، وترك الأخرة ولا تدل الآيات على إعراض المسلمين عن الدنيا فهي دار العمل الصالح والإعمار والطيبات، قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٢].

الثالثة : الصبر على إستهزاء وسخرية الذين كفروا من المؤمنين سواء الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة أو الى المدينة المنورة أو الأنصار من الأوس والخزرج ، وعموم الذين آمنوا بالبعثة النبوية المباركة من الرجال والنساء .

وفي التنزيل ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ﴾[٣]، ولم يرد لفظ(غرّ) في القرآن إلا في الآية أعلاه الثعلبي بخصوص الآية: هؤلاء قوم بمكة مستضعفين حبسهم آباؤهم وأقرباؤهم من الهجرة، فلمّا خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم كرهاً .

فلمّا نظروا إلى حلة المسلمين ارتابوا وارتدّوا وقالوا : غرّ هؤلاء دينهم فقتلوا جميعاً منهم : قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو

(١) سورة غافر ١٩.

(٢) سورة الكهف ٤٦.

(٣)سورة الأنفال ٤٩.

قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان والحرث بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج والوليد بن عتبة وعمرو بن بن أمية، فلما قُتلوا مع المشركين ضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم[1].

ولكن الآية أعم في موضوعها إذ أن الآية صريحة في ذم المنافقين وأشباههم، وحال النفاق ظهرت في المدينة بعد أن تجلت معاني النصر وبدأ بناء صرح دولة الإسلام فاظهر بعضهم الإيمان مع إبطانه وإخفائه الكفر .

وقال ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾[2] أي أدخل المسلمون أنفسهم في أمر شاق وعسير، وواجهوا بقلتهم يوم بدر قريشاً في كثرة عددها وعدتها، وصدر هذا الكلام عند خروج المسلمين إلى معركة بدر، وعند اللقاء مع المشركين وبعده فمه النصر العظيم للمسلمين يوم بدر وتفضل الله بتسميته ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾[3]، فان المنافقين وأهل الشك والريب والحسد، أخذ يبثون الإشاعات المغرضة، ويتلقون الأخبار التي تفيد بأن كفار قريش يجهزون الجيوش لغزو المدينة وأنهم عازمون على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأسر المهاجرين وإعادتهم مكرهين إلى مكة، ولكن الله عز وجل خذل الكافرين بولايته للمؤمنين وصدق وعد عهد، قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾[4][5][1].

---

(١)الكشف والبيان ٦٠/٦.

(٢) سورة الأنفال ٤٩.

(٣)سورة الأنفال ٤١.

(٤)سورة آل عمران ١٥١.

(٥)انظر الجزء الحادي والعشرين بعد المائة الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

وعن عمرو بن ميمون، أنه سمع عبدالله بن مسعود حدث عن سعد بن معاذ، أنه كان صديقا لامية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد بن معاذ، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية.

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة انطلق سعد بن معاذ معتمرا فنزل على أمية بمكة، قال سعد لامية: انظر لى ساعة خلوة لعلى أطوف بالبيت، فخرج به قريبا

من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا صفوان من هذا معك ؟ قال: هذا سعد.

قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد أو يتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لو لا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما.

فقال له سعد، ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لامنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبى الحكم، فإنه سيد أهل الوادي.

قال سعد: دعنا عنك يا أمية، فو الله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: " إنهم قاتلوك " قال: بمكة ؟ قال: لا أدرى.

ففزع لذلك أمية فزعا شديدا فلما رجع إلى أهله قال: يا أم صفوان ألم ترى ما قال لى سعد ؟ قالت: وما قال لك ؟.

قال: زعم أن محمدا أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة ؟ قال: لا أدرى فقال أمية: والله لا أخرج من مكة.

---

(١) أنظر الجزء العشرين بعد المائة الذي جاء خاصاً بصلة هذه الآية مع الآية التي سبقتها.

فلما كان يوم بدر، استنفر أبو جهل الناس، فقال: أدركوا عيركم.

فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، إنك متى يراك الناس قد تخلفت، وأنت سيد أهل الوادي، تخلفوا معك.

فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتني فو الله لاشترين أجود بعير بمكة.

ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني.

فقالت له: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي قال: لا، وما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا.

فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلا إلا عقل بعيره، فلم يزل كذلك حتى قتله الله ببدر)[1].

تفسير قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وفيه مسائل :

الأولى : جاء الإكرام والتشريف على اساس التقوى، والتقوى اعلى رتبة من الإسلام ومترشحة عنه ولاحقة له، فالمكلف يسلم وينطق بالشهادتين ثم يتقي الله بجوارحه وافعاله واركانه، والآية لا تنفي علو المسلمين عموماً على الذين كفروا اذ انه لا واسطة بين الجنة والنار في الآخرة.

الثانية : ذكر المتقين في الآية على نحو الخصوص اما من باب المثال الأهم او الإتيان بالخاص وارادة العام، أي ان المسلمين فوقهم ولكن ذكروا بلحاظ خصوصية وصفة حميدة ، (عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣٨٤/٢.

أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لِتَفَاضُلِ ما بينهم". قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: "بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين".)[١].

الثالثة : الآية تذكير بنواميس الآخرة وانها ستكون من حيث السعادة والنحوسة ، والرفعة والوضاعة، بلحاظ الإيمان والتقوى او عدمهما.

الرابعة : المراد من الفوقية في الآية الكرامة والوجاهة والعز والرفعة ولا مانع من شمول المعنى للفوقية المكانية وان المؤمنين في الجنة العالية والكفار في النار في ادنى الدرجات.

الخامسة : تتضمن الآية وعداً ووعيداً، وعداً للمؤمنين ووعيداً للكافرين.

السادسة : تبين الآية منافع وخصائص وأهوال يوم القيامة وما فيه من السعادة او الشقاء ليحترز الناس ويتعظوا ويعتبروا ويخاف الكافر ويستبشر المؤمن ، وفي التنزيل ﴿هَـٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾[٢].

السابعة : البشارة والوعد في الجنة يشمل المسلمين ولا ينحصر بالمتقين واثبات شيء لشيء لا يعني نفيه عن غيره.

الثامنة : الآية تحول دون إفتتان المؤمنين وخشيتهم من الكافرين.

التاسعة : الآية سلاح ومدد للمؤمنين.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٦/٢.

(٢) سورة إبراهيم ٥٢.

تفسير قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

وفيه مسائل :

الأولى : الآية بشارة ورحمة وعون للمسلمين.

الثانية : الوعد الكريم لا ينحصر بالمتقين ولا في الآخرة فقط فهو اعم موضوعاً وزماناً ومكاناً ، وفي التنزيل ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

الثالثة : ان سخرية الكفار من المسلمين لم تستمر لا بمعنى انها تنقطع في الآخرة فهذا امر مفروغ منه، بل انها تنقطع في الدنيا بالعز والرفعة المتنامية للمؤمنين واتساع رقعة الإسلام واتصال الآيات وظهورها ونزول تمام القرآن، وفي كل آية منه اعجاز ذاتي وعرضي .

الرابعة : ورد مضمون الآية خمس مرات في القرآن وفي واحدة منها ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ﴾ واخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾، ولا ينحصر موضوعها بعالم الآخرة بل يشمل الدنيا كما في قصة زكريا وسؤاله مريم عليها السلام، ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢).

الخامسة : الآية بشارة فوز المؤمنين بالجنة لأن عطاءه ورزقه سبحانه في الجنة لا نفاد له بالإضافة الى تعدد انواعه.

السادسة : تخبر الآية بان رزقه تعالى للمؤمنين غير متناه ، قال

---

(١) سورة الشورى ١٢.

(٢) سورة آل عمران ٣٧.

تعالى ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [1] لبيان أن نعمة الجنة دائمة ليس لها إنقطاع .

وعن أبي سعيد الخدري (قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ .

فيشرفون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ ، فيشرفون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ، فيقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : { وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة}[2] وأشار بيده وقال : أهل الدنيا في غفلة)[3].

السابعة : تبين الآية عظمة قدرته تعالى بمنح النعم الجزيلة التي يصعب على الناس احصاؤها، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "اياكم والتفكر في الله ولكن اذا اردتم ان تنظروا الى عظمة الله فانظروا الى عظيم خلقه".

الثامنة : من وجوه وأسباب سخرية الكافرين من المؤمنين فقر شطر من المؤمنين في الدنيا، فجاءت الآية مواساة للمسلمين وحثاً لهم على التقوى.

التاسعة : السخرية في الآية أعم من إظهار الإستهزاء.

(1) سورة ص٥٤.

(2) سورة مريم ٣٩.

(3) الدر المنثور ٤٦٤/٦.

العاشرة : الآية واقية وحرز وابطال لتأثير السخرية بالبشارة والأمل واللجوء الى الله عز وجل لنيل المطالب وتحقيق الرغائب.
الحادي عشرة : لم تمض الأيام الا والنعم ظاهرة بجلاء على المسلمين بما فتح الله عز وجل عليهم من البلدان والثروة والعز والمنعة .

وعن ابن إسحاق عن عدي الطائي أنه كان يقول فيما بلغني ما رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سمع به منى أما أنا فكنت امرا شريفا وكنت نصرانيا وكنت أسير في قومي بالمرباع فكنت في نفسي على دين وكنت ملكا في قومي لما كان يصنع بى فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كرهته فقلت لغلام كان لى عربي وكان راعيا لابلي اعزل لا أبا لك اعزل لى من إبلي أجمالا ذللا سمانا فاحبسها قريبا منى فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فأذني ففعل .
ثم إنه أتاني ذات غداة فقال : يا عدي ما كنت صانعا إذا غشيك محمد فاصنعه الآن فاني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا هذه جيوش محمد .
فقلت : فقرب لى أجمال فقربها فاحتملت بأهلي وولدي ثم قلت ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام وخلفت بنتا لحاتم في الحاضر .

فلما قدمت الشام أقمت بها وتخالفني خيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سبايا من طئ وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هربي إلى الشام فجعلت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها فمر بها

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقامت إليه وكانت امرأة جزلة فقالت يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن على منّ الله عليك .

وقال : من وافدك قالت عدي بن حاتم .

فقال : الفار من الله ورسوله.

ثم مضى وتركني حتى إذا كان من الغد مر بى فقلت له مثل ذلك وقال لي مثل ما قال بالامس حتى إذا كان بعد الغد مر بى وقد يئست فأشار إلى رجل من خلفه أن قومي فكلميه قالت فقمت إليه فقلت :

يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن على منّ الله عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنينى.

فسألت عن الرجل الذى أشار إلى أن كلميه فقيل هو علي بن أبى طالب فأقمت حتى قدم ركب من بلى أو قضاعة قالت وإنما أريد أن آتى أخي بالشام .

قالت : فجئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ قالت فكساني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحملنى وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

قال عدي : فوالله إني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلى تؤمنا .

فقلت : ابنة حاتم قال فإذا هي هي ، فلما وقفت علي انسجلت تقول القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والديك عورتك .

قلت : أي أخيه لا تقولي إلا خيرا فوالله ما لي من عذر لقد صنعت ما ذكرت قال ثم نزلت فأقامت عندي فقلت لها وكانت امرأة حازمة ماذا ترين في أمر هذا الرجل قالت أرى والله أن تلحق به سريعا فان يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله وإن يك ملكا فلن تذل في عز اليمن .

وأنت أنت . قلت :

والله إن هذا للرأي ، قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلت عليه فقال من الرجل فقلت عدى بن حاتم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وانطلق بى إلى بيته فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة

ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها قال قلت في نفسي والله ما هذا بملك قال ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلى فقال اجلس على هذه قال فقلت بل أنت فاجلس عليها قال بل أنت فجلست عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالارض ، قلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك ثم قال إيه يا عدي بن جاتم ألم تك ركوسيا قال قلت بلى قال أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع قال قلت بلى قال فان ذلك لم يكن يحل لك في دينك قال قلت أجل والله قال وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل ثم قال لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليو شكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن

الملـك والسـلطان في غيرهـم وايـم الله ليوشـكن أن تسـمع بالقصـور البـيض مـن أرض بـال قـد فتحـت عليهم قـال فأسـلمت قـال فكـان عدى يقول مضت اثنتان .

وبقيـت الثالثـة والله لتكـونن قـد رأيـت القصـور البـيض مـن أرض بابـل قـد فتحـت عليهم وقـد رأيت المرأة تخرج مـن القادسية علـى بعيرهـا ولا تخـاف حتـى تحـج هـذا البيـت وايـم الله لتكـونن الثالثة ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه)[1].

الثانيـة عشـرة : في الآيـة إخبـار عـن عظـيم الثـواب للمسـلمين بتعرضـهم للإبـتلاء والإمتحـان وسـخرية الكـافرين ووعـد بـان الله عز وجل لا يضيع عملهم وصبرهم على الأذى.

الثالثة عشرة : كما يحتمـل قولـه تعـالى ﴿ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ في خاتمة آية البحث عدم الإنقطاع او الإحصاء فانه يحتمل عدم الإحتساب وان الله عـز وجـل يـرزق المـؤمن مـن حيـث لا يحتسـب، ومنـه دحـر الكـافرين وجعلـهم اذلاء مشـغولين بانفسـهم لا يقـدرون علـى السخرية والإستهزاء فضلاً عن الإيذاء.

الرابعـة عشـرة : الآيـة بشـارة وإخبـار عـن عـدم دوام هـذه السـخرية وانهـا في حـال وجودهـا بـاب لنيـل المـؤمنين الـدرجات العلى.

الخامسـة عشـرة : مـن مفـاهيم الآيـة الكريمـة ان اسـتهزاء الكفـار بالمسلم سـبب وعلـة لإرتقائـه في منـازل التقـوى ثوابـاً منـه تعـالى ومصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ .

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

(1) عيون الأثر ٢٨٦/٢.

قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ **الآية ٢١٣**

الإعراب واللغة

كان : فعل ماض ناقص.

الناس : اسم كان مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره.

أمة : خبر كان منصوب بالفتحة .

واحدة : صفة لأمة منصوب مثله .

فبعث: الفاء حرف عطف ، وهي عاطفة على جملة مقدرة إختصاراً .

والتقدير: كان الناس امة واحدة على الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين، لأن النبوة ملازمة لوجود الإنسان على الأرض ، وكان آدم وحواء أمة ، وفي إبراهيم عليه السلام ورد قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾(١).

واسم الجلالة : فاعل مرفوع.

(١) سورة النحل ١٢٠.

النبيين: مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.
مبشرين: حال منصوب وعلامة نصبه الياء ز
الواو : حرف عطف ، منذرين : معطوف على مبشرين منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.
وأنزل: الواو: حرف عطف.
أنزل: فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره(هو) يعود إلى الله عز وجل، ولا يقدر على إنزال الكتب والبشارات والإنذارات الحق من السماء إلا هو سبحانه.
معهم: مع: ظرف مكان مفعول فيه منصوب، وهو مضاف والضمير(هم) مضاف إليه.
الكتاب: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.
بالحق: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الكتاب.
ليحكم: اللام: حرف جر للتعليل، يحكم: فعل مضارع منصوب بان مضمرة بعد لام التعليل.
بين : ظرف مكان منصوب متعلق بحكم .
الناس: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت آخره.
فيما: في: حرف جر: ما : اسم موصول مبني في محل جر.
إختلفوا: فعل ماض مبني على الضم، الواو: فاعل، فيه: جار ومجرور.
وما أختلف: الواو حرف عطف.
ما : نافية ، أختلف فعل ماض مبني على الفتح.
فيه: جار ومجرور.
إلا: أداة حصر.

الذين: اسم موصول مبني في محل رفع فاعل.

اوتوه: اوتوا: فعل ماض مبني على المجهول، والواو: نائب فاعل، الهاء: مفعول به ثان.

من بعد: جار ومجرور متعلق بـ(اختلف).

ما: حرف مصدري، جاءتهم: جاء: فعل ماض، التاء تاء التأنيث الساكنة، هم: ضمير متصل مفعول به.

البينات: فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره.

بغياً: مفعول لأجله.

بينهم: بين: ظرف مكان منصوب بالفتحة، والضمير(هم) ضمير مضاف إليه.

فهدى: الفاء حرف عطف، هدى: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف.

الله: اسم الجلالة فاعل مرفوع.

الذين: اسم موصول في محل نصب مفعول به.

آمنوا: فعل ماض مبني على الضم، الواو: فاعل.

لما اختلفوا: اللام: حرف جر، ما: اسم موصول في محل جر.

اختلفوا: فعل ماض مبني على الضم، الواو: فاعل.

من الحق: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير الغائب في(فيه).

بإذن: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الذين آمنوا، الهاء: مضاف إليه.

والله يهدي: الواو: استئنافية، اسم الجلالة: مبتدأ .

يهدي: فعل مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر، تقديره هو يعود الى الله عز وجل.

من: اسم موصول مفعول به.

يشاء : فعل مضارع مرفوع بالضمة.
إلى صراط : جار ومجرور متعلق ب(يهدي).
مستقيم : صفة لصراط مجرور لأن الصفة تتبع الموصوف بالإعراب.

بحث بلاغي

قالوا ان في الآية فن القلب البلاغي الذي استدل عليه الكسائي والزمخشري والجوهري بقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾[1] وان الأصل فيه: ويوم تعرض النار على الذين كفروا.

ومع قولنا بجواز القلب لفظاً الا ان المعنى في الآية الكريمة يحمل على الظاهر، او قل ان الظاهر يستوعبه تفسيراً ودلالة، كما ان المثل القرآني هذا يمكن ان يناقش فما دام الظاهر ممكناً فلا حاجة الى انصراف المعنى الى خلافه الا مع القرينة الراجحة، وعرض الكفار على النار امر ممكن اذ ان النار موجودة وثابتة وهؤلاء يمكن نقلهم وانقيادهم .

وأستدل على القلب بقول المتنبي :

وعذَلتُ أهلَ العشقِ حتى ذقتهُ
فعجِبت كيفَ يموتُ مَنْ لا يعشقُ[2]

وأن أصله لا يموت ، وببيت من الشعر لعروة بن الورد ، وكلاهما ليس بحجة في المقام بالإضافة الى امكان حملهما على الظاهر كما ان الأمر لا يتعلق باللغة والنحو والبلاغة وحدها بل

---

(1) سورة الاحقاف ٢٠.
(٢) مغني اللبيب ٢٦٤/١.

يرتبط بالمعنى والمفهوم والدلالة.

في سياق الآيات

بعد التذكير بالنعم العظيمة التي آتاها الله بني اسرائيل وذكر الأذى الذي يعانيه المؤمنون من الكافرين وما يترتب عليه من الثواب لأهل التوحيد ودين الحق، جاءت هذه الآية لتعطي سجلاً تأريخياً للنبوة وكيف انها حاجة عقائدية وتدارك واصلاح ورحمة ومنع للإختلاف

لقد قسمت الآية السابقة الناس إلى قسمين :

الأول : الذين اتقوا وهم المؤمنون الذين يخشون الله.

الثاني : الذين كفروا .

ومن إعجاز القرآن أنه اذا ذكر المؤمنين والكفار فانه سبحانه يبين عظيم وحسن إختيار المؤمنين، ورفعة منزلتهم، وما ينتظرهم من الثواب العظيم، كما في الآية السابقة ، وقال تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1].

وإبتدأت آية البحث بالفعل الماضي الناقص (كان الناس) وإرادة كل الناس ، وفي الآية حذف على وجوه :

الأول : كان الناس أمة واحدة في الإسلام.

الثاني : لقد أنعم الله عز وجل على الناس فجعلهم أمة واحدة في الإيمان.

الثالث : كان الناس أمة واحدة في الهدى والإيمان وبعث لهم النبيين لتثبيت إيمانهم ووقايتهم من الكفر والجحود.

الرابع : كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ، فبعث الله النبيين

---

(١) سورة مريم ٧٢.

مبشرين بالثواب العظيم على الإيمان، ومنذرين من الكفر والجحود واللهث وراء الدنيا وزينتها .

وعن أبي بن كعب قال : كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم ، ففطرهم الله على الإسلام وأقروا له بالعبودية ، فكانوا أمة واحدة مسلمين ، ثم اختلفوا من بعد آدم[1].

ومن معاني الصلة بين آية البحث والآية السابقة أن الإيمان سابق على الكفر، وأن الكفر سبب وعلة للإنقطاع إلى الدنيا وزينتها، فليس الدنيا وزينتها سبب للكفر، إنما إختار شطر من الناس الكفر فابتليوا باللهث وراء الدنيا وزينتها، وفيه حجة على الذين كفروا لأنهم إمتنعوا عن الإيمان وأصروا على الكفر، فغلب عليهم هواهم ، وأغواهم الشيطان فصارت الدنيا غاية لهم.

لقد جاءت كل الشرائع بالعناية بالمسكين والرأفة به والإحسان إليه ليكون التراحم بين الناس مقدمة وسبباً للفوز برحمة الله في الدنيا والآخرة، وفي قوله تعالى ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾[2]، قال ابن عباس : هم ناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة ، وكان يطعم منها السائلين ، فمات أبوهم فقال بنوه : إن كان أبونا لأحمق يطعم المساكين ، فأقسموا ليصرمنّها مصبحين وأن لا يطعموا مسكيناً)[3].

ومن وجوه تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : كان الناس أمة واحدة لم تزين لهم الحياة الدنيا .

الثاني : كان الناس أمة واحدة فثبّت الله الذين اتقوا على

---

(١) الدر المنثور ٤٨٧/١.

(٢) سورة ن ١٧.

(٣) الدر المنثور ٧٨/١٠.

الهدى والإيمان فلم تزين لهم الحياة الدنيا.

الثالث : كان الناس أمة واحدة فلا يسخر بعضهم من بعض.

الرابع : كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين للذين اتقوا بالجنة يوم القيامة، ومنذرين للناس من الفر وما فيه من الحرمان من الثواب العظيم.

الخامس : كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين للذين آمنوا ومنذرين للذين يسخرون من الذين آمنوا، لما أخبرت آية البحث عن إتصاف الأنبياء بصفتين :

الأولى : الأنبياء مبشرون إذ يأتون بالبشارات من عند الله عز وجل وهي بلحاظ الآية السابقة على وجوه :

أولاً : البشارة للمؤمنين، وذكرت الآية المرتبة العالية للمتقين في الآخرة، فعل تختص مصاديق بشارة الأنبياء بعالم الآخرة الجواب لا، إنما تشمل الدنيا والآخرة، فحالما يدخل الإنسان الإسلام ويؤدي الفرائض تتوالى عليه مصاديق البشارة.

ثانياً : إكرام الذين آمنوا والدفاع عنهم في آية البحث وآية السياق .

ثالثاً : البشارة لمن يعرضون عن الحياة الدنيا حباً لله عز وجل.

رابعاً : البشارة بالرزق الكريم للمؤمن في الحياة الدنيا، فان قلت يرزق الله عز وجل الذين كفروا في الدنيا ومنهم من يكون في حال غنى وجاره في السوق أو السكن مؤمن فقير، والجواب إنه من الإبتلاء في الدنيا، وأن ذات الإيمان أعظم وأبهى رزق، فتأتي بشارات الأنبياء دعوة للناس للشكر لله عز وجل ، قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(١).

(١) سورة إبراهيم ٧.

الثانية : الأنبياء منذرون بالوعيد في الآخرة والعذاب الأليم يوم القيامة للذين كفروا والمنافقين والفاسقين، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[1].

إعجاز الآية الذاتي

تخبر الآية عن احوال الناس قبل الإسلام و عظيم اهمية النبوة وموضوعيتها في بقاء الحياة الإنسانية وتعاهد سبل الصلاح ورأفته تعالى بالناس وفضله ببعث الأنبياء، وفي الآية مواساة وعبرة للمؤمنين لما يتلقونه من الكفار، ووعد كريم بسيادة حكم النبوة وبيان لعظيم فضله تعالى بالهداية، وتتضمن في مفهومها مدحاً للمسلمين لما هم عليه من الهداية.

أخبرت الآية بأن الناس كانوا أمة واحدة، ولم تبين زمان هذه الوحدة وتحتمل وجوهاً :

الأول : عند هبوط آدم وحواء إلى الأرض .

الثاني : آدم وحواء وأولادهما الصلبيون.

الثالث : آدم وحواء وأولادهما وأحفادهما .

الرابع : إرادة الناس عندما كانوا يقيمون في موضع ومصر واحد من الأرض.

الخامس : المقصود وحدة الناس في الإقرار بالتوحيد والتسليم بالعبودية لله عز وجل .

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[2]، ليكون من إعجاز آية البحث بيان قانون

---

(١) سورة النساء ١٤٥.

(٢) سورة يونس ١٩.

يتعلق بفطرة الناس وأن الله عز وجل جبلهم على التوحيد .

وتبين الآية مسائل :

الأولى : حب الله عز وجل للناس جميعاً، وفضله عليهم بهدايتهم إلى الإيمان، وذات الإتحاد والوحدة طريق للرشاد، ومناسبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الثانية : توارث أجيال من الناس الإيمان والتقوى، والبقاء على ذات النهج الذي أراده الله عز وجل لهم بقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

الثالثة : بيان حقيقة وهي أن الذين كفروا اتبعوا شهواتهم، وخرجوا عما أمرهم به الله سبحانه ، وجمعهم والناس فيه من سنن التوحيد، لذا نعتوا بالفاسقين أي الخارجين عن طاعة الله، قال تعالى ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

وجعل الله سبحانه دين التوحيد هو ملاك الوحدة ، وهو حرب الإختلاف ، وشاهد على حاجة الناس لرحمة الله ، وتقوم الحياة به ولبيان قانون وهو أن الحساب والجزاء في الآخرة على الدين وإتباع نهج الأنبياء .

ولم تقف آية البحث عند الإخبار عن كون الناس أمة واحدة بل أخبرت بأن الله عز وجل بعث الأنبياء متعاقبين، كل واحد منهم مبشر بالجنة على الإيمان، ومنذر بالعذاب بالنار على الكفر والجحود .

---

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة الحشر ١٩.

وتفضل الله عز وجل وأنزل معهم الكتاب، ومنه آية البحث فهي حق أنزله الله ليكون قولهم وبلاغهم حق وصدق، وليحكموا بين الناس فيما إختلفوا فيه.

ومن الإعجاز في آية البحث أنها ذكرت في وسطها اختلاف الناس وحكم الأنبياء فيه للدلالة على وجود حذف في الآية وتقديره : كان الناس أمة واحدة) فاختلفوا (فبعث الله النبيين) والقرآن يفسر بعضه بعضا ، إذ يدل عليه قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾(١).

ومن الإعجاز في آية البحث بيانها لقانون وهو عدم إجتماع الناس على الكفر حتى قيام الساعة ، فاما إتحاد على الإيمان والهدى ، وإما اختلاف .

لتتضمن الآية في مفهومها الثناء على المسلمين ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢).

ويمكن تسمية آية البحث آية ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾(٣).

إعجاز الآية الغيري

تبين الآية تعدد الفضل الإلهي على الناس بما يؤدي إلى ثباتهم على الإيمان، والحيلولة دون إختلافهم في الملة والدين ، وتبين الآية مسائل :

الأولى : كان الناس أمة واحدة ببركة الأنبياء الذين بين ظهرانيهم .

---

(١) سورة يونس ١٩.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة البقرة ٢١٣.

الثانية : كان الناس أمة واحدة فبعث الأنبياء وأنزل معهم الكتاب لمنع الفرقة والشقاق ودبيب مفاهيم الكفر بينهم.

الثالثة : كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين وأنزل الكتب السماوية بجمعهم على الهدى ، وبعث النفرة في نفوسهم من الكفر والجحود .

وتتضمن الآية التحدي بالإخبار عن هداية الله للذين آمنوا إلى الحق وسبله ، وإلى الصراط المستقيم ليكونوا حجة على الناس جميعاً .

وليس من حصر لكل من مصاديق البشارة والإنذار التي جاء بها الأنبياء من عند الله، وتبين الآية حقيقة من جهتين:

الأولى : مع الإتحاد في مسالك الإيمان يكون الصلاح وسيادة مفاهيمه .

الثانية : مع الإختلاف والفرقة يكون الشقاق والخصومة والنزاع.

وتبين حال العرب في زمان ما قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حال الإقتتال بينهم وإستمرار الحروب لسنوات على أسباب بسيطة، وعلة خلاف العقلائية، فمثلاً إستمرت معركة البسوس نحو أربعين سنة من سنة ٤٩٤ ميلادية.

وكان سببها أن كليباً بن ربيعة التغلبي ، سيد قبائل سعد وملكهم رمى ناقة للبسوس فقتلها لأنها تورد مع إبله، فقتله ابن أخت البسوس وهو الجساس بن مرة الشيباني ز

وحرب داحس والغبراء بمنطقة القصيم بين فرعين من قبيلة واحدة ، وهما عبس وذبيان من قبيلة غطفان.

وداحس والغبراء اسمان لفرسين يتصفان بسرعة الجري، وجرى التسابق والمخاطرة والرهان عليها بعشرين من الإبل

وإستمرت الحرب نحو أربعين سنة[١] .

وتبين هذه الحروب حاجة الناس لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنعه لسفك الدماء والإسراف بالقتل ، وفي الآية دعوة للناس جميعاً للتقيد بحكم الكتاب النازل من السماء.

وتتضمن الثناء على المؤمنين الذين إتبعوا النبوة والتنزيل، وصدّقوا بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لعقلية والحسية، وليكون من معاني قوله تعالى في آية البحث ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٢]، الثناء على المسلمين والمسلمات الوارد في قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٣].

الآية سلاح

الآية مدرسة في تأريخ الأمم وقراءته من خلال الآيات القرآنية، وهي سلاح ضد التحريف والوهم والمبالغة، وفيها تحريض على الشكر له تعالى، ودعوة للاهتمام بقصص الانبياء والاعتبار منها.

مضامين آية البحث من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[٤]، بذكرها لتعدد وتوالي الحجج والآيات في هذه الآية والتي تؤدي بالناس إلى الإيمان وهي :

الأول : إبتداء سكن الناس في الأرض كأمة واحدة في الإيمان والهدى والتسليم بعبوديتهم لله عز وجل .

(١) أنظر الجزء الحادي والخمسون بعد المائة ، وفيه تفصيل لكل من الحربين أعلاه.

(٢) سورة البقرة ٢١٣.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

(٤) سورة الأنعام ١٤٩ .

الثاني : تفضل الله عز وجل ببعث الأنبياء .

وعن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء؟ .

قال : مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً . قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم؟ .

قال : ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير . قال : يا أبا ذر أربعة سريانيون : آدم ، وشيث ، ونوح ، وخنوخ وهو إدريس ، وهو أوّل من خط بقلم ، وأربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك ، وأوّل نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى ، وآخرهم عيسى ، وأوّل النبيين آدم ، وآخرهم نبيك[1].

الثالث : نزول الكتب من السماء وفيها أحكام العبادات والحلال والحرام، وأبناء من الغيب وأخبار المعاد وأهوال الآخرة.

الرابع : صيرورة الكتب النازلة من السماء حاكماً وحكماً بين الناس، فلم تقل الآية (ليحكموا بين الناس).

بل ذكرت حقيقة وهي أن ذات الكتاب هو الحاكم والحكم والفيصل مما يدل على إفادته البيان والتبيين، وفي القرآن والثناء عليه ، قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

وتبين الآية قانوناً وهو أن الكتاب والتنزيل وسيلة سماوية لمنع الخلاف، وفك الخصومات، ويتقوم هذا الفك بالإيمان، ورجحان كفة الهداية فليس فيه صلح وتراض إلا بما يرضي الله ويؤدي إلى تثبيت معالم الإيمان في الأرض ، لذا أختتمت الآية بالهداية وتفضل الله عز وجل، قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ

---

(١) الدر المنثور ٣/٢٩٨.

(٢) سورة النحل ٨٩.

الأَعْلَوْنَ﴾(1).

مفهوم الآية

من إعجاز القرآن أنه بيان لكل شيء ، وما فيه من العلوم والإشارات يفوق قدرات البشر واوهامهم، فجاءت هذه الآية وثيقة تأريخية تفصيلية لأحوال الأمم ونشأة المجتمعات على الأرض بما لا يقبل الترديد وما يحول دون الإفتراء وسوء التأويل لذا فان الآية تفتح الباب لدراسة تأريخ الأمم وفق قراءة قرآنية اذ انها تؤكد على موضوعية الإيمان في اصل الخلق والنشأة وان الرحمة الإلهية تتغاشهم منذ خلق الله عز وجل آدم الا انهم اختلفوا فيما بينهم فادركتهم الرحمة مرة اخرى بمجيء الأنبياء والرسل من عنده تعالى ومعهم الكتب السماوية التي تتضمن الحلول الصحيحة لموارد الإختلاف فيما بينهم أي ان في الآية حذفاً وأصله ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فاختلفوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾.

فظاهر الآية يخبر عن وجود اختلاف بين الناس وانهم تشعبوا إلى فرق متعددة فكان هذا التفرق علة لبعث الأنبياء، وفي الآية رد على الذين قالوا بعدم الحاجة الى النبوة.

فالنبوة جاءت بسبب الإختلاف والتباين وهذا لا يتعارض مع القول بان آدم عليه السلام نبي فانه بعث نبياً لبيان احكام الشريعة وتعليم الناس الحلال والحرام وكيفية أداء العبادات، ووصف الأنبياء بانهم مبشرين ومنذرين اخبار عن ماهية الإختلاف بين الناس وانه اختلاف عقائدي وانقسام الناس الى مؤمن وكافر، فالأنبياء

---

(1) سورة آل عمران ١٣٩.

مبشرون للمسلمين، ومنذرون للكافرين ، فال تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾[1].

ولا ينحصر موضوع هذه البشارة والإنذار الرسالية المتجددين التبليغ كما ان اثرهما لا يتعلق بعالم الآخرة فقط بل يكون في الدنيا على وجوه منها :

الأول : إصلاح الأرض ، وتهذيب النفوس .

الثاني : تدارك حالات الزلل .

الثالث : منع الهلكة .

الرابع : حفظ للجنس البشري .

الخامس : كل من البشارة والإنذار حاجز دون استبداد الكافرين وسيادة الكفر في الأرض ، قال تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

فمن فلسفة النبوة انها مدد سماوي وحفظ وواقية وأمن ورحمة والكتاب الذي يأتي به النبي قانون سماوي وحكم الله في الأرض للهداية الى سبل الرشاد وللفصل بين الناس .

ولا ينحصر موضوع هذا الفصل بالحقوق المالية والإعتبارية بل يشمل العقائد وهو اهم وجوه الفصل ، وتنبسط الحاجة اليه على ايام الحياة الدنيا والآخرة بمعنى ان مثل هذا الفصل لا سبيل له الا العناية الإلهية ببعثة الأنبياء وانزال الكتب فجاء فضله تعالى بهما ليكون حجة على الناس لذلك بينت الآية ماهية وسبب

---

(١) سورة النساء ١٦٥.

(٢) سورة القصص ٥.

الإختلاف وانه البغي والتعدي وتجاوز الحد فاحتاج الناس للنبوة ليس للتبشير والإنذار فحسب بل للحكم وفصل الخطاب ، واستدامة الحياة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

ومن مفاهيم آية البحث ان وظيفة الكتاب السماوي لا تنحصر بالتبليغ والوعد والوعيد بل يتخذه المؤمنون منهاجاً للعمل ودليلاً وعيناً مما يعني ان القرآن واحكامه باقية الى يوم القيامة وان الله عز وجل يقيض له حملة يتعاهدونه ويعملون باحكامه، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٢).

وجاءت خاتمة الآية ترغيباً بالإيمان بصيغة الثناء والمدح لمن اختار الهداية وتظهر الآية استدامة الخلاف مع دوام وجود الكتاب فيصلاً وحاكماً ، وان الله تعالى يهدي شطراً من عباده للعمل بالكتاب وانارة الطريق للآخرين وتحمل إستهزاء الجاحدين والصبر على البلاء ، وفي خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾(٣).

لقد جعل الله عز وجل الدنيا مرآة للنعيم في الآخرة، ومقدمة للبث الدائم فيه فجعل حياة الناس تبدأ فيها بالوئام والوفاق الذي يترشح عن الإيمان والتقوى .

وتتضمن آية البحث إقامة الحجة على الناس من جهات:

الأولى : نزول القرآن من عند الله عز وجل.

---

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة الحجر ٩.

(٣) سورة الحجر ٩٥.

الثانية : إخبار آية البحث بأن الفرقة والشقاق من فعل الناس أنفسهم.

الثالثة : ما دام الناس بالأصل أمة واحدة فلابد أن يبذلوا وسعهم للعودة إلى هذا الأصل، لذا تجد كثيراً من النزاعات والخصومات تنتهي بالصلح والوئام، وتقدير أول آية البحث على وجوه :

الأول : يا أيها النبي كان الناس أمة واحدة ، بلحاظ توجه الخطاب الى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قبل السابقة.

الثاني : يا أيها الذين آمنوا كان الناس أمة واحدة.

الثالث : يا أيها الناس كان الناس أمة واحدة .

الرابعة : من الحجج البالغة بعثة الأنبياء من عند الله وهو سبحانه الغني عن العالمين، فيتفضل باختيار أفراد من البشر ليكونوا رسلاً بينه وبين الناس .

الخامسة : بيان الآية لوظائف الأنبياء الجهادية، وقيامهم بالبشارة والإنذار، وليس من تشريف وإكرام أعظم من مقام النبوة، ولا يختص هذا التشريف باشخاص الأنبياء بل هو يشمل الذين يؤمنون بنبوتهم ويصدقون بما جاءوا به من الحق ليفوز المسلمون بالنصيب الأوفر إذ أنهم يؤمنون ببعثة كل الأنبياء، وورد في التنزيل خطاباً للمسلمين ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ

وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(١).

السادسة : يدل تقديم البشارة على الإنذار في آيات القرآن على سعة رحمة الله وعظيم فضله وجزيل إحسانه ، وسبق رحمته تعالى لغضبه.

وعن ابن زيد يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الله لما أراد أن يخلق آدم بعث ملكاً والأرض يومئذ وافرة فقال: اقبض لي منها قبضة آتني بها أخلق منها خلقاً قالت : فإني أعوذ بأسماء الله إن تقبض اليوم مني قبضة يخلق خلقاً يكون لجهنم منه نصيب .

فعرج الملك ولم يقبض منها شيئاً فقال له : مالك . . . ؟ قال : عاذت باسمائك أن أقبض منها خلقاً يكون لجهنم منه نصيب فلم أجد عليها مجازاً ، فبعث ملكاً آخر ، فلما أتاها قالت له مثل ما قالت للأوّل ، ثم بعث الثالث فقالت له مثل ما قالت لهما ، فعرج ولم يقبض منها شيئاً ، فقال له الرب تعالى مثل ما قال للذين قبله .

ثم دعا إبليس واسمه يومئذ في الملائكة حباب فقال له : اذهب فاقبض لي من الأرض قبضة ، فذهب حتى أتاها ، فقالت له مثل ما قالت للذين من قبله من الملائكة ، فقبض منها قبضة ، ولم يسمع لحرجها .

فلما أتى ، قال الله تعالى : ما أعاذت بأسمائي منك؟ قال : بلى .

---

(١) سورة البقرة ١٣٦.

قال : فما كان من أسمائي ما يعيذها منك؟ قال : بلى . ولكن أمرتني فأطعتك .

فقال الله : لأخلقن منها خلقاً يسوء وجهك ، فألقى الله تلك القبضة في نهر من أنهار الجنة حتى صارت طيناً ، فكان أول طين، ثم تركها حتى صارت حمأ مسنوناً منتن الريح ، ثم خلق منها آدم ، ثم تركه في الجنة أربعين سنة حتى صار صلصالاً كالفخار . يبس حتى كان كالفخار .

ثم نفخ فيه الروح بعد ذلك ، وأوحى الله الى ملائكته : إذا نفخت فيه من الروح فقعوا له ساجدين ، وكان آدم مستلقياً في الجنة فجلس حين وجد مس الروح فعطس فقال الله له : أحمد ربك فقال : يرحمك ربك . فمن هنالك يقال : سبقت رحمته غضبه . وسجدت الملائكة إلا هو قام فقال { ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين } [١]، فاخبر الله أنه لا يستطيع أن يعلن على الله ما له يكيد على صاحبه فقال { أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[٢] إلى قوله { ولا تجد أكثرهم شاكرين}[٣] .

وقال الله { ولقد صدق عليهم إبليس ظنه}[٤] وإنما كان ظنه أن لا يجد أكثرهم شاكرين[٥].

---

(١) سورة الأعراف ١٢.

(٢) سورة الأعراف ١٣.

(٣) سورة الأعراف ١٧.

(٤) سورة سبأ ٢٠.

(٥) الدر المنثور ١٢/١.

السابعة : بيان قانون من رحمة الله وخلافة الإنسان للأرض بأن تفضل الله وأنزل الكتب السماوية مع الأنبياء.

ولم تقل الآية (وجعل معهم الكتاب) لإفادة لفظ(جعل) معنى أعم، وقد يراد منه عمل النبي اللاحق بما نزل على النبي السابق من الوحي والتنزيل، ولكن الله عز وجل يعطي بالأتم والأوفى، فتفضل بالوحي والتنزيل على كل نبي من الأنبياء.

الثامنة : من الحجج والبراهين في آية البحث أن صبغة الكتاب النازل من عند الله عز وجل أنه حق وصدق.

التاسعة : ترغيب الناس باللجوء إلى الأنبياء والكتب السماوية النازلة في موارد الخلاف بينهم، لأنها حق وصدق، وليكون هذا اللجوء نوع طريق للرجوع إلى الوحدة والتآلف ولوفاق بين الناس الذي كانوا عليه في بداية عمارتهم الأرض.

العاشرة : تتحدى آية البحث الناس بقانون، وهو عدم وقوع الإختلاف بين الناس إلا بعد أن جاءهم الكتاب والبراهين والبينات الواضحات، ليدل إخبار الآية عن الإختلاف بأن فريقاً من الناس إبتعد عن الحق .

فتفضل الله عز وجل ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهدى المسلمين لما أختلف الناس فيه .

الحادية عشرة : إخبار الآية عن كون الهداية بيد الله، وفيه دعوة للناس للدعاء وسؤال الهداية والرشاد ، قال تعالى﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾[1].

الثانية عشرة : بيان قانون أن الله عز وجل لايهدي إلا إلى الصراط المستقيم، وقد أنعم على المسلمين بأن يتلو كل واحد

(١) سورة الليل ١٢-١٣.

منهم عدة مرات في اليوم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، رجاء الأجر والثواب وللأمن من الزلل .

الآية لطف

إبتدأت الآية بالفعل الماضي (كان) للإخبار عن مصداق لقوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[2]، فمن هذه القصص ذكر حال الناس وأنهم كانوا أمة أمة واحدة في الهداية والرشاد، وهو من أسرار خلافة الإنسن في الأرض، وتقدير الآية على وجوه :

الأول : كان الناس أمة واحدة بالإقرار بالعبودية لله عز وجل قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

الثاني : كان الناس أمة واحدة في العصمة من الشرك.

الثالث : كان الناس أمة واحدة على الهدى والإيمان.

الرابع : كان الناس أمة واحدة في إقامة لصلاة وأداء العبادات.

الخامس : كان الناس أمة واحدة فليس بينهم قتال وحروب، فان قلت قد قتل قابيل بن آدم أخاه هابيل، والجواب هذا القتل قضية شخصية وليست قتالاً وحرباً، إذ امتنع هابيل عن مقابلة قابيل بالمثل كما ورد وفي التنزيل ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة يوسف٣.

(٣) سورة الذاريات ٥٦.

لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(1).

وتبين آية البحث حب الله عز وجل للناس بأن جعلهم أمة واحدة ، وتتقوم هذه الوحدة بالهدى والإيمان والرشاد، ليكون سبباً لنزول النعم والخيرات عليهم، قال سبحانه﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(2) .

وتدل كل كلمة وشطر من هذه الآية على حب الله عز وجل للناس جميعاً، وإرادة سلامتهم من درن الشرك والنفاق لتقودهم هذه السلامة إلى الأمن من أهوال الآخرة.

ومن حب الله عز وجل للناس بعث الأنبياء والرسل لهم جميعاً للبشارة باللبث الدائم في الجنة مع الثبات على الإيمان، وللإنذار من الكفر بالذات والأثر .

ويدل حرف الفاء في (فبعث الله) على أنه سبحانه بعث الأنبياء للناس يوم كانوا أمة واحدة واستمر تعاقب الأنبياء ونزول الكتب السماوية حتى بعد أن إختلف الناس وإختار شطر منهم عبادة الأوثان وإتباع الشيطان، لتكون بعثة الأنبياء من اللطف الإلهي بالناس، كما ورد نعت الأنبياء مبشرين ومنذرين بصيغة الإطلاق في الموضوع والجهة التي توجه إليها الأنبياء في بشاراتهم وإنذاراتهم .

وعن جابر بن سليم الهجيمي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض طرق المدينة ز

(1) سورة المائدة ٢٨.

(2) سورة الرعد ١١.

قلت : عليك السلام يا رسول الله ، فقال : عليك السلام تحية الميت ، سلام عليكم ، سلام عليكم ، سلام عليكم ، أي هكذا فقل .

قال فسألته عن الإزار؟ فأقنع ظهره وأخذ بمعظم ساقه فقال : ههنا ائتزر ، فإن أبيت فههنا أسفل من ذلك ، فإن أبيت فههنا فوق الكعبين ، فإن أبيت فإن الله لا يحب كل مختال فخور . فسألته عن المعروف ، فقال : لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تعطي صلة الحبل ، ولو أن تعطي شسع النعل ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي ، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق ، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه ، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض . وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك وأنت تعلم فيه نحوه فلا تسبه فيكون أجره لك ووزره عليه ، وما سَرَّ أذنك أن تسمعه فاعمل به ، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه[1].

وعن حذيفة قال : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة . ولَتَنْقُضَنَّ عُرا الإسلام عروة عروة ، ولَيُصَلِّيَنَّ النساء وهن حيض ، ولَتَسْلُكَنَّ طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، وحذو النعل بالنعل ، لا تخطو طريقهم ولا تخطىء بكم حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة تقول إحداهما : ما بال الصلاة الخمس ، لقد ضل من كان قبلنا إنما قال الله { أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل }، لا تصلوا إلا ثلاثاً . وتقول

---

(١) الدر المنثور ١٢١/٣.

الأخرى : إنما المؤمنون بالله كإيمان الملائكة لا فينا كافر ولا منافق حق على الله أن يحشرهما مع الدجال[١].

وتقدير الآية على وجوه :

الأول : فبعث الله النبيين مبشرين للذين آمنوا.

الثاني : فبعث الله النبيين منذرين للذين كفروا.

ولا يمنع هذا التفصيل من إنتفاع المؤمنين في أنفسهم من صيغ الإنذار التي جاء بها الأنبياء ، وإستقراء الذين كفروا مسائل الهداية من بشارات الأنبياء لذا تجد في كل يوم هناك من يتوب إلى الله عز وجل، وينيب إلى الحق، وهذا القانون دائم ومتجدد في الأرض، وهو من أسرار قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢].

إفاضات الآية

لقد خلق الله عز وجل الناس ليعمروا الأرض بذكره وعبادته، وتفضل وبعث الأنبياء وأنزل معهم الكتب السماوية، وأنعم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بكلامه الخالد والباقي إلى يوم القيامة وهو القرآن، قال تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

والنسبة بين الكتاب والقرآن هي العموم والخصوص المطلق، فالقرآن هو الكتاب الذي أنزل من السماء، وكذا التوراة والإنجيل

(١) الدر المنثور ١٨٦/٧.

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة التوبة ٦.

فلذا ذكرت الآية الكتاب بلفظ اسم الجنس وإرادة ما أنزل على الأنبياء متفرقين، ليكون الجامع المشترك بينهم، والشاهد على النبوة، ومن أسرار مجئ اسم الجنس في الآية أن الكتب السماوية كلها عضد ونصير للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

ومن فيوضات آية البحث ذكرها للأنبياء بلغة الإكرام والتشريف وانهم أدوا ما عليهم من التبليغ والبشارة والإنذار ، ومنها الثناء على المسلمين لأنهم تعاهدوا أخبار وقصص الأنبياء وتلقوا بشاراتهم بالتصديق والقبول والعمل الذي يؤدي إلى تنجزها وتحقق مصداقها الواقعي ،إذ يتضمن قوله تعالى ﴿مُبَشِّرِينَ﴾أموراً :

الأول : مجئ البشارة من عند الله عز وجل ، إنما ينبئ ويخبر عنها الأنبياء .

الثاني : قيام الملائكة بنقل البشارة إلى الأنبياء ، وفي التنزيل ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [1] .

الثالث : تبليغ الأنبياء البشارة والإنذار للناس عموماً البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

الرابع : مجئ الكتاب السماوي بذات البشارة والإنذار .

الخامس : توثيق القرآن للبشارات التي جاء بها الأنبياء السابقون ، وهل ورد الذي جاءوا به في القرآن والسنة ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة الشورى ٥١.

وسلم على الأنبياء السابقين ، وعمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١).

لقد بينت آية البحث وقوع الإختلاف بين الناس مما تترشح عنه الحاجة والضرورة للحكم والفصل بينهم ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٢) أنه سبحانه لم يترك الناس يغرقون في مستنقع الخلاف الذي قد يهلك الأخضر واليابس ، فتفضل سبحانه وأنزل الكتب السماوية لفك الخصومة بتأكيد سنن التوحيد ، ووجوب عبادة الله عز وجل ونبذ الشرك والضلالة ، وفي التنزيل ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (٣).

وحينما إحتجت الملائكة على جعل الإنسان خليفة في الأرض كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (٤).

إحتج الله عز وجل عليهم بقوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥) ومن علم الله عز وجل في المقام تفضله بأمور منها :

الأول : إبتداء وجود الناس في الأرض كأمة واحدة متجانسة، يكون الإيمان هو سور الموجبة الكلية الجامع بينهم ، حتى إذا

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة الأنعام ٥٧.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

(٥) سورة البقرة ٣٠.

حدث الفساد أو القتل بغير الحق بينهم تلقاه الناس بالنفرة والإستهجان ، ويتجلى هذا القانون في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة ، وهو من مصاديق قوله تعالى أعلاه .

الثاني : توالي وتعاقب بعث الأنبياء وإرسال الرسل من عند الله عز وجل لهداية البشر ، ومنعهم من الشطط ، وحصانتهم من شرور وإغواء الشيطان ، وليس من نبي إلا وحذر قومه من الشيطان .

الثالث : قيام الأنبياء بالبشارة والإنذار .

الرابع : تأكيد قدرة الله المطلقة على جميع الأشياء ، وأن قلوب العباد بيد الله عز وجل وهو سبحانه يهدي من يشاء ، ويجنبه الفساد ويعصمه من سفك الدماء .

إكرام الآية للمسلمين

من معاني الآية توجه الخطاب والنداء فيها للمسلمين، ويمكن تقدير أول الآية على وجهين:

الأول : يا أيها الذين آمنوا كان الناس أمة واحدة....) وقد ورد ذات النداء قبل خمس آيات بقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[1].

الثاني : كما كان الناس أمة واحدة على الهدى فقد تعاهد المسلمون هذه النعمة ، قال سبحانه ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2]، لبيان أن المسلمين أمة تعاهدت الإيمان وفعل الخيرات، ومن معاني خروجهم للناس نبذ الإختلاف على الأنبياء.

---

(١) سورة البقرة ٢٠٨.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

وقد ورد لفظ(أمة واحدة) في القرآن تسع مرات، منه قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(١)، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(٢)، وهل حصل إختلاف الناس على نحو دفعي أو تدريجي بتعاقب الأجيال، الجواب هو الثاني.

ومن أسرار بعثة الأنبياء أنها إكرام للذين يؤمنون بنبوتهم، ويتبعونهم، وقد فاز المسلمون بالتصديق بهم جميعاً، وفي التنزيل ورد خطاب وأمر موجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٣).

ويدل ذكر الآية للإختلاف بين الناس على حقيقة وهي وجود أمة على الحق ونهج الأنبياء، قائمة بعبادة الله عز وجل التي هي علة خلق الناس، ولقد اتبع شطر من الناس أهواءهم، فجاءت الآية لبيان ضرره عليهم ولزوم تركهم إغواء الشيطان.

ولقد أكرم الله عز وجل المسلمين بهذه الآية فقال سبحانه ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾،

(١) سورة يونس ١٩.

(٢) سورة هود ١١٨.

(٣) سورة آل عمران ٨٤.

وأختتمت الآية بالإخبار عن تفضل الله عز وجل بهداية من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد أنعم الله عز وجل على المسلمين والمسلمات وجعلهم يتلون في كل يوم عدة مرات قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1].

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالإخبار عن بدايات وجود الناس في الأرض ، ويدل قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ..﴾[2] على أن المراد ليس أيام آدم وحواء خاصة بل يشمل الذرية والأعقاب وتكاثر الناس في موطن واحد .

ولم تذكر الآية إختلاف الناس بعد إخبارها عن كونهم أمة واحدة في طاعة الله ، إنما ذكرت بعث الله عز وجل الأنبياء للناس على وحدتهم ، وفيه آية من فضل الله بأن يتعاهدوا هذه الوحدة ، لذا لم تقل الآية (ثم بعث النبيين) وما يدل عليه الحرف (ثم) من الإبطاء والتأخير .

إنما جاءت الآية بالحرف الفاء الذي يدل على تعقب التالي على السابق لذات الحرف من غير إبطاء وتأخير ، كما يقال : جاء زيد فعمر) ليكون من معاني الآية : فبعث الله النبيين مبشرين للناس في وحدتهم ومنذرين من الإختلاف بينهم .

ثم عطفت الآية إنزال الكتب السماوية على بعثة الأنبياء لبيان قانون وهو تعدد الفضل الإلهي على الناس في كل موضوع متحد

---

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة البقرة ٢١٣.

لبيان تعدد فضل الله عز وجل على الناس وإقامة الحجة عليهم في الهداية إلى الإيمان والرشاد.

وقد ذكرت الآية كون الأنبياء مبشرين ومنذرين، أما بالنسبة لكتب السماوية ففيها وجوه:

الأول : يتضمن كل كتاب سماوي البشارة والإنذار.

الثاني : بعض الكتب السماوية فيها بشارة وإنذار دون بعضها الآخر التي قد تكون قصصاً وأخباراً وأحكاماً.

الثالث : إرادة التباين في البشارة والإنذار بياناً وتوضيحاً وكثرة.

والصحيح هو الأول والثالث، فليس من كتاب سماوي إلا ويتضمن أسباب الهداية والبشارة بالثواب العظيم في الآخرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، والعقاب الأليم للذين كفروا ويكفرون ، قال تعالى ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1].

ومن الإعجاز في آية البحث أنها نسبت الحكم إلى الكتاب لتكون البشارة والإنذار من وجوه الحكم ومقدماته والإمتثال له و ولتأكيد قانون وهو نزول الكتاب من عند الله ، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[2].

(١) سورة آل عمران ١٦٢.

(٢) سورة البقرة ١٧٦.

ومن الآيات أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يقوم بالحكم بين الناس كما يقوم به الكتاب ، قال تعالى ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(١).

لقد جعل الله عز وجل الأنبياء حكاماً بين الناس، وكذا الكتب السماوية لمنع الجهالة والغرر، ولطرد الغفلة ولبيان موضوعية العدل وصحة وسلامة الحكم في دوام الحياة الإنسانية.

ومن إعجاز الآية أنها تجعل الكتاب السماوي حاكماً وناطقاً وفيصلاً، وكأن له لساناً ، قال تعالى ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾(٢).

وتدل الآية في مفهومها على وجوب إجتناب الظلم والحكم باتباع الهوى، وفي التنزيل ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٣).

وتبين الآية أن النسبة بين بشارة وإنذار الإنبياء وبين حكم الكتاب بين الناس هي العموم والخصوص المطلق، فالبشارات والإنذارات أعم، ومنها ما يكون بذاته حكماً، وهي من البينات التي تذكرها الآية في قوله تعالى ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ والتي تشمل معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودلالات صدق نبوته.

ولكن الذين كفروا جحدوا بها بغياً وحسداً، وجمعوا الجيوش وساروا لمحاربته والذين آمنوا معه في معركة بدر وأحد والخندق، فكان

---

(١) سورة المائدة ٤٢.

(٢) سورة الجاثية ٢٩.

(٣) سورة ص٢٦.

جزاؤهم الخزي والعار ، قال تعالى في وصف حال كفار قريش وسوء حالهم في معركة أحد ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾[(١)].

وتتضمن الآية التعريض واللوم للذين أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن من مصاديق قوله تعالى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي مبشرين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنذرين الذين يكفرون ويجحدون بها﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[(٢)].

ومن مصاديق الآية أعلاه هداية المؤمنين إلى التصديق ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والخروج معه للقتال دفاعاً عن النبوة والتنزيل بشوق ولهفة ويقين، وقد خاطبهم الله عز وجل في معركة أحد ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[(٣)].

وقيدت الآية إيمان المسلمين بأنه باذن الله، لبيان فضل الله عز وجل عليهم ودعوتهم لشكره سبحانه على نعمة الهداية، والنهي عن الغرور والغلو بالذات، وفي التنزيل﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[(٤)].

(١) أنظر الجزء الحادي والثمانين من هذا السفر الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية الكريمة.
(٢) سورة التوبة ٣٢.
(٣) سورة آل عمران ١٤٣.
(٤) سورة الأعراف ٤٣.

ومن إعجاز آية البحث إبتداؤها بقانون، وإختتامها بقانون آخر وهو ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وفيه مسائل :

الأولى : دعوة المسلمين للثبات في مقامات الإيمان .

الثانية : حث المنافقين على هجران النفاق وإبطان الكفر .

الثالثة : ترغيب للناس بالإسلام ، وفي التنزيل ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[1].

الرابعة : بعث السكينة في نفوس المؤمنين بأنهم على النهج القويم، والطريق الذي يوصل إلى الخلود في النعيم .

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : تبين الآية بدايات وجود الإنسان في الأرض على الهدى والوئام .

الثانية : موضوعية الفطرة الإنسانية والإيمان في حياة الناس في الأرض.

الثالثة : تأكيد حقيقة وهي أن الطمع والحاجة ليسن علة تامة لوقوع الخلاف بين الناس، إذ يدل قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي أنهم في إكتفاء وتكافل ، ويتعاهدون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الرابعة : دعوة المسلمين والناس للتصديق ببعثة الأنبياء وأنها حق وصدق، وما من نبي إلا ومعه معجزة تناسب أهل زمانه،

(١) سورة الحجرات ٧.

والأمر الذي يولونه عناية وأهمية أو بعتنون فيه للدلالة على عظيم قدرة الله، وصدق النبي، فموضوع المعجزة لا يختص باعلان النبي نبوته بل يشمل تذكير الناس بـ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وعلى الناس عبادته وطاعته وكانت معجزة نوح عليه السلام السفينة وصناعتها وإتخاذها وسيلة للنجاة من الطوفان.

ومعجزة صالح عليه السلام الناقة ، قال تعالى﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

ومن الإعجاز في الآية أعلاه نسبة الناقة إلى الله كما تقول للمسجد الحرام بيت الله، لبيان عظيم شأنها كآية لم تولد في رحم، ولأنها حجة في خلقها وشربها الماء وما تعطيه من الحليب في اليوم الواحد بحيث يكفي قوم صالح كلهم.

وعن السدي قال : إن الله بعث صالحا إلى ثمود، فدعاهم فكذّبوه، فقال لهم ما ذكر الله في القرآن، فسألوه أن يأتيهم بآية، فجاءهم بالناقة، لها شِرْب ولهم شِرْبُ يومٍ معلوم. وقال:(ذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء)[3].

---

(١) سورة البقرة ٢٠.

(٢) سورة الأعراف ٧٢.

(٣) سورة الأعراف ٧٣.

فأقرُّوا بها جميعًا، فذلك قوله ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ (١). وكانوا قد أقرُّوا به على وجه النفاق والتقيَّة، وكانت الناقة لها شِرْبٌ، فيومَ تشرب فيه الماء تمرّ بين جبلين فيرحمانها، ففيهما أثَرُها حتى الساعة، ثم تأتي فتقف لهم حتى يحلبُوا اللبنَ ، فيرويهم، إنما تصبُّ صبًّا، ويوم يشربون الماءَ لا تأتيهم.

وكان معها فصيل لها، فقال لهم صالح: إنه يولدُ في شهركم هذا غلامٌ يكون هلاككم على يديه ! فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر، فذبحوا أبناءهم، ثم وُلد للعاشر فأَبَى أن يذبح ابنه، وكان لم يولد له قبل ذلك شيء.

فكان ابن العاشر أزْرَق أحمرَ ، فنبت نباتًا سريعًا، فإذا مرَّ بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناؤنا أحياءَ كانوا مثل هذا ! فغضب التِّسعة على صالح ، لأنه أمرهم بذبح أبنائهم (تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)(٢).

قالوا: نخرج، فيرى الناس أنّا قد خرجنا إلى سفر، فنأتي الغار فنكون فيه، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى المسجد ، أتيناه فقتلناه ، ثم رجعنا إلى الغار فكنا فيه، ثم رجعنا فقلنا:(ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون)(٣)، يصدقوننا ، يعلمون أنّا قد خرجنا إلى سفر! فانطلقوا .

---

(١) سورة فصلت ١٧ .

(٢) سورة النمل ٤٩.

(٣) سورة النمل ٤٩.

فلما دخلوا الغارَ أرادوا أن يخرجوا من الليل، فسقط عليهم الغارُ فقتلهم، فذلك قوله:(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ)[١] حتى بلغ ها هنا ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢].

وكانت لإبراهيم معجزات متعددة منها نجاته من النار بعد أن أوثقوه وجعلوه وسطها ، وفي التنزيل ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٣].

وكذا بالنسبة لموسى عليه السلام وعصاه المعجزة التي لم يشهد التأريخ مثلها في ذاتا وتعدد صيغ التعدي والآيات التي تترشح عنها وكيف جعلها الله عز وجل سبباً لنجاة بني إسرائيل من فرعون وجنوده ، ومن الغرق ، لتبقى ذراريهم إلى هذا الزمان إذ يتضمن القرآن الإخبار عن إيحاء الله عز وجل لموسى عليه السلام بخصوص إستعمال العصا كمعجزة وآية باهرة، كما في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[٤]، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٥]، ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ

---

(١) سورة النمل ٤٨.
(٢) تفسير الطبري ٥٣٠/١٢.
(٣) سورة الأنبياء ٦٩.
(٤) سورة الأعراف ١١٧.
(٥) سورة الشعراء ٦٣.

﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(١).

وأما نبي الله عيسى عليه السلام فقد آتاه الله سبحانه المعجزة من حين ولادته، ثم جعله يحيي بضعة أفراد من الموتى وأنزل عليه مائدة من السماء، قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾(٢) .

ومن معاني ودلالات المعجزة النبوية أنها تكون بشارة وإنذاراً، وجاء القرآن ليجعل معجزات الأنبياء الحسية ذات دلالات عقلية باقية إلى يوم القيامة، وسالمة من التحريف أو التغيير أو المبالغة أو القطع والنقص فيها، وهو من أسرار معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم العقلية والحسية، ومن وجوه تفضيله على الأنبياء السابقين ، وسلامة القرآن من التحريف، ليكون في قوله تعالى﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ دعوة من وجوه :

الأول : دعوة الناس للتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإتباعه ونصرته.

---

(١) سورة البقرة ٦٠.

(٢) سورة المائدة ١١٠.

الثاني : بيان صبغة نبوة محمد صلى عليه وآله وسلم وأنها رسالة هدى للناس جميعاً، قال سبحانه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

الثالث : بعث المسلمين لتعاهد الأخوة الإيمانية بينهم، وصيرورتهم أمة واحدة، تتصف بعمل الصالحات، والعصمة من السيئات، قال تعالى في الثناء عليهم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

الرابع : من مصاديق خروج المسلمين للناس في الآية أعلاه دعوتهم جميعاً إلى الإيمان، ونبذ الفرقة والإختلاف .

الخامس : تذكير الناس عامة بسنخية الوحدة التي تتغشى الصلات العقائدية والإجتماعية للناس في بدايات الخلق، ودعوتهم للصبر في طاعة الله ومنع الإختلاف والفرقة.

السادس : آية البحث حجة في الجدال والإحتجاج على الذين يسعون للفتنة بين الناس، وتحريضهم على محاربة الإسلام، إنما جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أجل وحدتهم وسلامتهم وصلاحهم.

الخامسة : بيان قانون وهو نزول الكتاب السماوي للفصل بين الناس، وإصلاح ذت بينهم، ومنع الإقتتال بينهم، فحينما إحتج الملائكة على جعل الإنسان خليفة في الأرض بقولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1]، تفضل الله عز وجل وأجابهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2] .

ومن علم الله سبحانه أنه ينزل الكتب السماوية للحكم بين الناس فيما يختلفون فيه من قبل أن تصل النوبة إلى الفساد والإقتتال والله وحده يعلم ما محاه وصرفه سبحانه من الفساد والإقتتال والقتل بانزال الكتب السماوية من رجوع الناس إليها عند الإختلاف وهو أمر ينكشف للملائكة والناس والخلائق يوم القيامة .

ليتجلى بيان لمصاديق من علم الله عز وجل في الآية أعلاه من سورة البقرة .

ويرجع الناس للكتاب من وجوه :

الأول : تلاوة الكتاب السماوي والتدبر في معانيه.

الثاني : الرجوع إلى نبي الزمان واللجوء اليه عند الإختلاف، كما في بني إسرائيل في مجيئهم إلى موسى عليه السلام في قصة ذبح البقرة عندما قتل أحدهم، وكان أمر القتل عندهم عظيماً .

أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت عن ابن عباس قال : كانت مدينتان في بني إسرائيل . وأحداهما حصينة ولها أبواب ، والأخرى خربة . فكان أهل المدينة الحصينة إذا أمسوا أغلقوا أبوابها ، فإذا أصبحوا قاموا على سور المدينة فنظروا هل حدث فيما حولها حادث ، فأصبحوا يوماً فإذا شيخ قتيل مطروح بأصل مدينتهم ، فأقبل أهل المدينة الخربة فقالوا :

---

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

قتلتم صاحبنا وابن أخ له شاب يبكي عليه ويقول : قتلتم عمي .
قالوا : والله ما فتحنا مدينتنا منذ أغلقناها ، وما لدينا من دم صاحبكم هذا! فأتوا موسى ، فأوحى الله إلى موسى {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}[1] إلى قوله {فذبحوها وما كادوا يفعلون}[2].

قال : وكان في بني إسرائيل غلام شاب يبيع في حانوت له ، وكان له أب شيخ كبير ، فأقبل رجل من بلد آخر يطلب سلعة له عنده فأعطاه بها ثمناً ، فانطلق معه ليفتح حانوته فيعطيه الذي طلب والمفتاح مع أبيه ، فإذا أبوه نائم في ظل الحانوت .

فقال: أيقظه .

قال ابنه: إنه نائم وأنا أكره أن أروّعه من نومته . فانصرفا فأعطاه ضعف ما أعطاه على أن يوقظه فأبى ، فذهب طالب السلعة .

فاستيقظ الشيخ فقال له ابنه : يا أبت والله لقد جاء ههنا رجل يطلب سلعة كذا ، فأعطى بها من الثمن كذا وكذا ، فكرهت أن أروعك من نومك فلامه الشيخ ، فعوّضه الله من بره بوالده أن نتجت من بقر تلك البقرة التي يطلبها بنو إسرائيل ، فأتوه فقالوا له: بعناها . فقال : لا .

قالوا : إذن نأخذ منك . فأتوا موسى فقال : اذهبوا فارضوه من سلعته .

قالوا : حكمك؟ قال : حكمي أن تضعوا البقرة في كفة الميزان وتضعوا ذهباً صامتاً في الكفة الأخرى ، فإذا مال الذهب أخذته

---

(١) سورة البقرة ٦٦.

(٢) سورة البقرة ٧١.

ففعلوا ، وأقبلوا بالبقرة حتى انتهوا بها إلى قبر الشيخ ، واجتمع أهل المدينتين فذبحوها ، فضرب ببضعة من لحمها القبر ، فقام الشيخ ينفض رأسه يقول : قتلني ابن أخي طال عليه عمري وأراد أخذ مالي ، ومات)[1].

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

تفضل من الله تعالى بالإخبار عن أحوال الناس ومللهم ليكون مدرسة قرآنية تستقرأ منها العبر واصول الحكمة، فقد يتعذر مجيء مثل هذا الإخبار عن طريق آخر غير القرآن خصوصاً وانه يتعلق بالماضي السحيق الذي قد تطال اخباره يد التحريف والتغيير والإضافة والحذف وتخضع للأهواء والميول او للكبت والتقية.

وظاهر الآية والنظم ان الألف واللام في الناس للإستغراق والجنس وليس للعهد وان كان المراد جمع قلة ولا يمكن حمل اللفظ على آدم وحده وان كان امة في الخير، اذ أن لفظ الناس يحمل في الأصل والظاهر على الجمع والمتعدد والكثرة.

والمراد من الآية اتحاد الناس في الملة والإعتقاد وظهور الإتفاق بينهم، وذكرت فيه أقوال:

الأول : انهم كانوا على الكفر وهو المروي عن ابن عباس في احدى روايتين عنه.

الثاني : قال الحسن البصري انهم كانوا كفاراً بين آدم ونوح.

الثالث : نسب الطبري الى بعضهم: كانوا كفارا بعد نوح

---

(١) الدر المنثور ١٣٥/١ .

الى ان بعث الله ابراهيم والنبيين بعده، والى بعضهم ايضاً: كانوا كفارا عند كل نبي.

الرابع : انهم كانوا مؤمنين مهتدين، روي عن ابن عباس ايضاً.

والتباين والتعدد فيما يروى عن ابن عباس في المسألة الواحدة يستلزم التنقيح في أسانيد الروايات المنسوبة اليه بالاضافة الى دلالتها، ومع صحتها فيجوز تعدد السبب .

الخامس : روي عن قتادة ونسبه الرازي الى اكثر المحققين.

ان الناس كانوا امة واحدة في التمسك بالشرائع العقلية وهي الاعتراف بوجود الصانع وصفاته، وشكر نعمته واتباع حكم العقل باجتناب ما هو قبيح عقلا كالظلم والسرقة والزنا ونحوها.

السادس : أن الناس كانوا امة واحدة من جهة الاجتماع والالفة من غير ان يكونوا على الإيمان او على الكفر وهو موقوف على الدليل، ذكره الرازي، ولكن الدليل قطعي وهو ملازمة الإيمان لوجود الانسان في الارض بل وفي اصل وعلة خلقه، وليس له معارض يدل على خلوها من الإيمان منذ ان اهبط منها آدم عليه السلام وان انحسرت رقعته وقل أهله في بعض الفترات.

السابع : ﴿النَّاسُ﴾ في الآية اهل الكتاب ممن آمن بموسى عليه السلام.

وفي الآية مسائل:

الأولى : ﴿ أُمَّةً ﴾ عنوان جامع ويصدق بحسب اللحاظ والجهة، فتارة يتعلق بالخلق والنشأة، وثانية بالعقيدة، وثالثة بموضع السكن والاجتماع والنسب ونحوها، والظاهر ان

المراد في الآية هو النشأة والعقيدة، بالاضافة الى انطباق النسب ووحدته.

الثانية : الآية أعم من ان تنحصر بقوم دون غيرهم فلا تخص قوم موسى عليه السلام بقرينة بعث الله النبيين والرسالات قبل زمان موسى عليه السلام.

الثالثة : مما عليه القرآن والسنة والاجماع هو ان النسل والناس كلهم من آدم وحواء حينما يرجع الى الماضي وتقسيم الناس وفق الانتماء العقائدي لابد من الابتداء بهما، وهما مؤمنان، شاهدا الآيات في الجنة وأكلا من ثمارها، وقد خلق الله تعالى آدم ونفخ فيه من روحه تشريفا له.

الرابعة : مما عليه الاجماع ان آدم نبي، وفي الخبر عن ابي ذر: (انه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلت: يا رسول الله وآدم نبي مرسل ؟ قال: نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلا)، الأمر الذي يعني ان الإتحاد والاجتماع بين الناس كان على التوحيد والإيمان، لان آدم عليه السلام جزء وفرد من الناس وكان مبعوثاً لاولاده ذريته.

الخامسة : صحيح ان الفاء تفيد التعقيب والتراخي الا انه لايتعارض مع الحقيقة الثابتة في اقتران النبوة بالوجود الانساني على الارض كما ان الآية وبلحاظ هذه الحقائق الثابتة تحتمل الملازمة وبعثة الأنبياء والناس في حال الإجتماع والإتفاق.

السادسة : يمكن ان يكون الإجتماع والإتفاق على الإستعداد للقبول بالشرائع السماوية وانتفاء الشرك، لذا ورد عن الإمام الباقر عليه السلام انه قال: (كانوا قبل نوح امة واحدة على فطرة الله لا مهتدين ولا ضلالاً فبعث الله النبيين)، وقال الواقدي والكلبي: هم اهل سفينة نوح حين أغرق الله الخلق ثم اختلفوا بعد ذلك،

فالتقدير على قول هؤلاء كان الناس امة واحدة فاختلفوا.

السابعة : الإجمال في الآية نوع اعجاز وفيه سعة في التأويل، والتنكير يحمل على الاطلاق.

تفسير قوله تعالى ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

وفيه مسائل :

الأولى : الآية جامعة فتبين فضله تعالى بالنبوة وان بعثة النبي تأتي عن حاجة وتكون سبباً لتعاهد التوحيد في الأرض.

الثانية : تظهر الآية أهمية الرسالات السماوية في منع الناس من الإختلاف الشديد الذي يؤدي الى التنازع وضعف الإيمان على مستوى النوع.

الثالثة : قصة قتل قابيل لهابيل مصداق للإختلاف ولحاجة الناس الى النبوة وانه مع وجود النبوة فان اسباب الإختلاف باقية، لذا جاء وصف الأنبياء بذكر الوظيفة الأساسية لهم وهي مركبة من التبشير والإنذار مع التباين في الموضوع والمقصود في كل منهما.

الرابعة : البشارات للمؤمنين والإنذارات للكافرين والفجار مما يدل على ان الإختلاف عقائدي وفكري، وهذه الوظائف السامية للأنبياء يتفرع عنها ما لا يقل عنها اهمية وهو منع تنامي وتشعب الإختلاف وتعدد حيثياته ومواضيعه لأنه من الكليات المشككة ولا ينحصر بحيثية او كيفية واحدة.

الخامسة : جاء تقديم التبشير على الإنذار لأن رحمته تعالى سبقت غضبه.

السادسة : في الآية اشارة الى ان الإجتماع كان على التوحيد وليس على الفطرة فقط.

السابعة : البشارة حفظ لحال التوحيد والإستقرار العقائدي، والإنذار علاج ووعيد بالعقوبة.

الثامنة : البشارة والإنذار في الآية ليسا من اللف والنشر في البلاغة، فلا تتعلق البشارة بالمؤمنين وحدهم، والإنذار بالكافرين على نحو الحصر، فالبشارة تشمل الكافر اذا اختار الإيمان وازاح المواقع التي اوجدها بنفسه وحالت دون الإيمان، فالبشارة دعوة لكل انسان لإتباع النبيين وفيها حجة، والإنذار اتعاظ تنبيه وتخويف اعتباري لإتباع الأنبياء.

التاسعة : في الآية حث على عدم التفريط بأحكام النبوة ودعوة لصاحب الإيمان المتزلزل لإستقراره.

العاشرة : لأن البشارة تتعلق بالأصل وهو صحة السلوك وصفاء السريرة وسلامة السجايا وانماط السلوك التي تبرز على الأركان والجوارح واللسان ولأن الإنسان خلق على الفطرة، تفضل الله عز وجل وجعل عنده العقل آلة للتبصر والحكمة.

الحادية عشرة : لأن الدنيا مزرعة الآخرة جاء تقديم البشارة ليكون تفاؤلاً وعوناً على اتيان الصالحات والإلتزام باحكام الشريعة واسباب الهداية والتقوى.

الثانية عشرة : هل تنحل الآية على نحو الإنفراد أي ان كل نبي يكون مبشراً ونذيراً ام لا ؟ "

الجواب: هو الأول، فمن وظائف النبي ان يكون مبشراً لأتباعه والمؤمنين مطلقاً ، ومنذراً لأهل الجحود والمعصية ، وفي التنزيل ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء ١٠٥.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾

إخبار الهي يتضمن تصديق الأنبياء في رسالاتهم والمدد الإلهي للتوفيق الخاص والعام، الخاص بالنبي والعام للأمة ولا عبرة بمن شذ وعصى، ولقد تقدمت وظائف النبوة من التبشير والإنذار في الآية الكريمة على انزال الكتب السماوية وفيه وجوه:

الأول : انه من تقديم العام على الخاص لأن التبشير والإنذار أصل وظائف النبي.

الثاني : الآية مصداق للفارق بين النبي والرسول، وان الرسول هو الذي جمع الى جانب المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي من لم ينزل عليه وانما يدعو الى كتاب من قبله، فبلحاظ الآية يكون بين النبي والرسول عموم وخصوص مطلق، فالنبي مبشر ومنذر، والرسول اعم منه، فبالإضافة الى البشارة والإنذار يكون عنده كتاب منزل.

وقال القاضي: ظاهر هذه الآية يدل على انه لا نبي الا معه كتاب منزل فيه بيان الحق طال ذلك الكتاب ام قصر، ودون ذلك الكتاب او لم يدون، وكان ذلك الكتاب معجزاً او لم يكن كذلك، لأن كون الكتاب منزلاً معهم لا يقتضي غير ذلك، ونقله الرازي عنه.

ولكن الظاهر اعم لامكان اتحاد المعنى وارادة النبي والرسول معاً، وصيغة الجمع تتعلق بعدد الانبياء ولان شطرا من الانبياء يعمل برسالة وكتاب من سبقه من الرسل، والنبوة تعني لغة الاخبار والوحي وقد ينبأ النبي في منامه وقد يبعث الى نفسه او اسرته.

تفسير قوله تعالى ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾

وفي الآية مسائل :

الأولى: اللام للتعليل، ويحكم: فعل مضارع وفي فاعله وجوه:

الأول : أنه الله تعالى، أي ليحكم الله، وفي التنزيل ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾(1).

الثاني : النبي المنزل عليه الكتاب فتكون وظيفته مع التبليغ الحكم والقضاء بين الناس.

الثالث : الكتاب بما فيه من بيان الاحكام ومسائل الحلال والحرام ومنع الظلم والتعدي.

الرابع : يرجع الضمير المضمر الى الله عز وجل بالاصالة، والى النبي بالمباشرة للحكم والى الكتاب بالبيان والاستنباط.

الخامس : هل يمكن ان يقرأ ﴿لِيَحْكُمَ﴾ على البناء للمجهول ليصبح الحكم السائد في الارض وكيفيته مستقرأة من الكتب المنزلة ويتولى الانبياء والأولياء شؤون الحكم؟ الجواب: ان التفسير يكون على القراءة الموجودة في المصاحف وهذا الوجه لا يتعارض معها وتمثله القراءة المرسومة في المصاحف ايضاً بتقدير ليحكم الحاكم بين الناس.

اما بالنسبة للقول الأول برجوع الضمير الى الله عز وجل فان الله عز وجل يحكم بين الناس بالحق وان لم ينزل الكتب، ثم ان الآية تتعلق بالحكم في الحياة الدنيا كما هو الظاهر، اما بالنسبة للكتاب فانه وان كان صالحاً للحكم الا ان الآية الكريمة تتعلق بالإفتاء والقضاء بين الناس وهدايتهم لما فيه الصلاح والرشاد.

---

(1) سورة يونس ١٠٩.

فالأقوى ان المراد منه هو النبي، أي ليحكم النبي والذي يأتي من بعده من الحكام والرؤساء فينتهجون نهجه ويعملون بالكتاب المنزل، فملاك الآية الكريمة هو سيادة حكم السماء في الأرض ودوامه وعدم الإستغناء عن الكتاب في الحكم، وبهذه الحالة يصبح الكتاب صالحاً للحكم ولكن بالواسطة، فحينما يحكم بما فيه يعتبر ايضاً حاكماً بالرجوع اليه في استظهار الأحكام، وهذا وقد انفرد ابو جعفر القارئ بقراءة (ليحكم) بضم الياء وفتح الكاف أي على البناء للمجهول.

الثانية : ان القضاء بين الناس ووفق الكتاب حاجة لازمة بعد حصول الإختلاف والفرقة بينهم وعدم بقائهم مجتمعين على التوحيد والهدى.

الثالثة : لقد كان آدم واولاده امة واحدة على التوحيد والهدى بالإضافة الى الرحم وقرب النسب قبل ان يتفرقوا، ثم كانوا مرة اخرى امة واحدة على الإقرار بالوحدانية والإيمان عندما نجى نوح ومن معه في السفينة بعد ان غرق اهل الأرض.

الرابعة : ظاهر الآية نفي سيادة الكفر وتغشيه للناس في زمن ما، فلابد في كل زمان من وجود مؤمنين يحفظون الرسالة ويتعاهدون لواء التوحيد، ولفظ الإختلاف يدل عليه لأنه يدل على المفاعلة بين جهتين عقائدياً.

تفسير قوله تعالى ﴿ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾

وفي الآية مسائل :

الأولى : تؤكد الآية وجود الإختلاف بين الناس وحصول الكفر من بعضهم.

الثانية : الحكم الإلهي في الإختلاف يعني رجحان كفة الحق

وسيادة الشرائع.

الثالثة : الآية دعوة للرجوع الى النبوة والكتب المنزلة لمنع الإختلاف.

الرابعة : الإختلاف ادنى رتبة من الخصومة والصراع الا انه قد يأتي للمعنى الأعم الشامل لهذه الوجوه، والظاهر ان المراد في المقام الكلي المشكك الشامل للمراتب المتباينة من الخلاف.

الخامسة : في الآية رحمة وهي منع الفتن والإختلاف وتداركه وحصره والحيلولة دون اتساعه.

السادسة : تحث الآية على الرجوع الى النبوة والكتاب السماوي لحل كل اختلاف ومنع كل شقاق.

السابعة : تنقسم النبوة إلى قسمين:

القسم الأول: مبشرة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم اذ جاءت البشارة على لسان الأنبياء السابقين والكتب السماوية التي سبقت القرآن.

القسم الثاني: هو نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي المبشَر بها والشريعة الباقية الى يوم القيامة.

الثامنة : الإخبار عن الإختلاف في الآية يعني حصول التقصير والغلو كما يشمل الإختلاف في الفروع وصغريات المسائل والأحكام أي ان الإختلاف عنوان جامع وسور يضم التباين العقائدي والشقاق وايضاً الإختلاف ضمن اطار الشرائع السماوية.

التاسعة : لو كان الإختلاف حاصلاً بين شريعتين كل فريق يحكم بحكم خاص من المسألة بحسب انتمائه، فكيف يكون الجمع والتوفيق بينهما؟ الجواب: انه لا اختلاف في اصل الشرائع فكل شريعة متممة للأخرى وعلى فرض وجود مثل هذا الإختلاف

بسبب النسخ مثلاً فيؤخذ باحكام الشريعة اللاحقة.

العاشرة : الإختلاف ليس مطلقاً بمعنى انه لا يعم الناس جميعاً والعقائد كلها ويدل عليه بعث الأنبياء والعمل بالكتاب قال تعالى ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾[1].

الحادية عشرة : الآية دعوة للرجوع الى الكتاب والنبوة حين ظهور أي خلاف.

الثانية عشرة : العودة الى الكتاب تعني الدخول في الإسلام لأن الكتب السابقة تبشر وتدعو اليه، ولأن الأحكام كلها في القرآن.

الثالثة عشرة : الآية تذم الإختلاف والفرقة والخصومة والشقاق وشق عصا الطاعة.

الرابعة عشرة : تبين الآية قدرة اهل الكتاب السماوي على العمل باحكامه وحل الخصومات ودعوة الناس الى الهداية والرشاد.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾

في الآية مسائل :

الأولى : الهاء في ﴿فِيهِ﴾ ضمير يفيد العموم والإطلاق في وجوه الحق والنبوة والكتاب مما يصلح ان يكون موضوعاً للخلاف العقائدي، اما الهاء في اوتوه فتعود للكتاب السماوي كاسم جنس جامع للكتب المنزلة قبل القرآن.

الثانية : يمكن ان يكون الضمير في ﴿فِيهِ﴾ عائداً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خصوصاً وان المشركين

---

(1) سورة هود ١١٨ – ١١٩.

كانوا يرجعون الى اهل الكتاب للسؤال عن صفات نبي آخر الزمان وانطباقها على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن صدق نبوته.

الثالثة : في الآية توبيخ وتقبيح لأهل الكتاب الذين اتخذوه موضوعاً للخلاف والله عز وجل اراده سبباً وعلة للإتفاق والإلتقاء في مرضاته تعالى.

الرابعة : باستحضار القاعدة الكلية وهي عدم وجود تعارض بين الكتب السماوية فان الإختلاف من فعل الإنسان ومن وجوهه التحريف وسوء التأويل وعدم التقيد بما فيه من الأحكام.

الخامسة : في الآية اخبار عن وجود شقاق وخلاف بين اهل الكتاب فقد يراهم المسلمون متفقين في معاداة الإسلام فجاءت الآية لتفضحهم وتظهر ما يحصل بينهم من اختلاف وشقاق وخصومة، وفيه عون للمسلمين.

السادسة : الخلاف الوارد في الآية لا ينحصر بين الملل السابقة فيشمل المذاهب المتعددة في الملة الواحدة كما هو ظاهر لمن تتبع التأريخ الديني.

السابعة : تحذر الآية من الإختلاف في الدين.

الثامنة : تدعو الآية الى الرجوع الى الكتاب والسنة النبوية الشريفة لمنع الإختلاف رفعاً ودفعاً.

التاسعة : المراد من الإختلاف الوارد في الآية هو خروج شطر منهم عن احكام الكتاب وتدل الآية بالدلالة الإلتزامية على عزلتهم وضعفهم.

تفسير قوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾

في الآية مسائل :

الأولى : الآية شاهد قرآني باتمام الحجة على اهل الكتاب واهل الخلاف والخصومة مطلقاً.

الثانية : في الآية ذم صريح لأهل الفرقة والخروج عن الدين بوصفهم ، بالبغي وتلبسهم به.

الثالثة : لقد ورد ذكر البينات كآية جاء بها الأنبياء قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾[1].

الرابعة : الإختلاف من الكليات المشككة وقد يصل الى القتل والإفساد في الأرض فوصفته الآية بالبغي مما يدل على حصوله بأعلى المراتب من الشدة والخصومة قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[2].

تفسير قوله تعالى ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

في الآية مسائل :

الأولى : أي ان سبب الإختلاف هو الظلم والتعدي والحسد بينهم.

الثانية : في الآية توكيد لبطلان موضوع الإختلاف والنزاع بينهم لأن البغي قبيح عقلاً وشرعاً.

الثالثة : انهم يعرفون خطأ ما هم عليه.

---

(١) سورة البقرة ٩٢.

(٢) سورة البقرة ٢٥٣.

الرابعة : ان البغي والتعدي ليس من طرف واحد، فظاهر الآية ان البغي صبغة عامة شاملة لكل المختلفين والمتنازعين.

الخامسة : نعت المختلفين بالبغي والظلم يعني وجود فرقة على الحق وهم اتباع الأنبياء وقد تخلف اهل الكتاب عن اتباعهم بعدم ايمانهم بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم وظل المسلمون وحدهم باعتبارهم الفرقة التي تقف في وجه البغي لذا جاءت الآية في القرآن بياناً وتحذيراً وتنبيهاً.

السادسة : إشارة ودعوة للمسلمين لتحمل أعباء الجهاد الفكري في التصدي للإختلاف والخلاف.

السابعة : توطين واخبار عن وجود الإختلاف والذي يعني تعدد الآراء والأدلة ووجوه الجدل والإحتجاج مما يعني المنع من دبيب اليأس والقنوط في نفوس المسلمين.

الثامنة : اذن ضمني للأعراض عن اهل الإختلاف لأن بأسهم يقع بينهم والفتنة تضعف كلاً منهم.

التاسعة : بشارة دحر المسلمين لأعدائهم المنشغلين بالإختلاف والفرقة.

العاشرة : دعوة لإصلاح الجميع بهدايتهم للإسلام وحثهم على اتباع الأنبياء وتذكيرهم بالآيات البينات التي جاء بها انبياؤهم كما هو منهج القرآن وما فيه من صيغ اقامة الحجة عليهم.

الحادية عشرة : تخبر الآية عن حال جهالة عند اهل العناد لأن البغي والتعدي يجعل غشاوة على البصيرة، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ

عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[1].

الثانية عشرة : تحذير المسلمين من الإختلاف وتعدد المذاهب وكثرة الأقوال والتباين في الفتوى في الموضوع الواحد وبذا يمكن تأسيس قاعدة قرآنية وهي ان ذم اهل الزلل والمعصية في القرآن مدرسة وعبرة للمسلمين لكي يجتنبوا سبلهم.

تفسير قوله تعالى ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾

في الآية مسائل :

الأولى : الآية إخبار سماوي عن صحة اعتقاد المسلمين واتباعهم الحق ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

الثانية : توكيد حقيقة كونية تشريعية وهي بقاء عقيدة التوحيد في الأرض.

الثالثة : هل يمكن حمل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ على المعنى الأعم فيشمل المؤمنين من اهل الكتاب قبل نزول القرآن كما في قوله تعالى ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾[3] الأقوى نعم.

الرابعة : فضله تعالى على المسلمين بالهداية الى الإيمان.

---

(١) سورة الجاثية ٢٢.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة الاعراف ١٥٩.

الخامسة : كأن هداية المسلمين حاجة ومادة لإصلاح الآخرين واظهار الخلل الناجم عن الخلاف والفرقة.

السادسة : الآية بشارة للمؤمنين بنيل الثواب ودخول الجنة.

السابعة : نسبة الهداية الى الله تعالى اشارة الى استدامتها عند المسلمين لأنه تعالى كريم اذا تفضل بنعمة فانه يتعاهدها.

الثامنة : الآية دعوة لأهل الكتاب والناس جميعاً لإتباع المسلمين في سبل الهداية والإيمان.

التاسعة : في الآية تزكية كل مسلم لإختياره اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

العاشرة : تبين الآية فضل الله تعالى على الناس جميعاً بالإسلام والمسلمين ، فيعرف الناس مواطن الخلاف ووجوه الخلل والضرر في هذا الإختلاف، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

تفسير قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

في الآية مسائل:

الأولى : الآية قاعدة كلية تظهر حكمة الله تعالى في الهداية موضوعاً وحكماً ومصاديق.

الثانية : سبحانه لايسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو الذي يتفضل على من يشاء بالهداية.

الثالثة : في الآية ترغيب بنبذ الخلافات عسى ان تشملهم اسباب الهداية بزوال المانع منها والتوجه الى مواثيق الانبياء وسننهم.

---

(١) سورة النحل ٨٩.

الرابعة : الآية دعوة لتلمس المعارف النظرية من الكتب السماوية المنزلة لانها مرآة الهداية ونبراس الحكمة.

الخامسة : الصراط المستقيم عنوان جامع يستوعب احكام الدار الدنيا والاخرة بلحاظ أنه نوع طريق وسيرة فانه ينحصر بالاسلام والقرآن ونبوة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الإعجاز في شريعة سيد المرسلين تلاوة كل مسلم مسلمة عدة مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب العيني لقوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1].

السادسة : في الآية تفضيل للمسلمين وعز لهم، ووعيد لاهل الاختلاف والخصومة.

السابعة : الآية دعوة للإلتجاء الى الله عز وجل بالدعاء والرجوع الى الكتب المنزلة للاهتداء والصلاح واتباع من تبشر به وهو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

بحث روائي

عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق. فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا")[2].

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[3]، فقال: كان

(١) سورة الفاتحة ٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٦٩/١.

(٣) سورة البقرة ٢١٣.

ذلك قبل نوح، فقيل: فعلى هدى كانوا؟ .

قال: بل كانوا ضلالاً وذلك انه لما انقرض آدم وصالح ذريته وبقى شيث وصيه لا يقدر على اظهار دين الله الذي كان عليه آدم وصالح ذريته وذلك ان قابيل توعده بالقتل كما قتل أخاه هابيل.

فسار فيهم بالتقية والكتمان فازدادوا كل يوم ضلالة حتى لم يبق على الارض معهم الا من هو سلف ولحق الوصي بجزيرة في البحر يعبد الله، فبدء الله تبارك وتعالى ان يبعث الرسل، ولو سئل هؤلاء الجهال لقالوا قد فرغ من الأمر، وكذبوا انما شيء يحكم به الله في كل عام، ثم قرأ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1].

فيحكم الله تبارك وتعالى ما يكون في تلك السنة من شدة او رخاء او مطر وغير ذلك، قيل : أفضلالاً كانوا قبل النبيين أم على هدى؟ .

قال: لم يكونوا على هدى كانوا على فطرة الله التي فطرهم عليها لا تبديل لخلق الله ولم يكونوا ليهتدوا حتى يهديهم الله أما تسمع قول ابراهيم ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[2]، أي ناسياً للميثاق.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

(١) سورة الدخان ٤.

(٢) سورة الانعام ٧٧.

قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ الآية ٢١٤

الإعراب واللغة

أم: حرف إضراب واستئناف بمعنى (بل) وتسمى (المنقطعة) لأن ما بعدها مستأنف ومنقطع عما قبلها وليس معطوفاً عليه، وتأتي (ام) للإضراب وليس للعطف في ثلاث مواضع:

الأول : بعد الخبر المحض.

الثاني : بعد همزة يقصد بها الإستفهام الإستنكاري وليس الحقيقي او التسوية.

الثالث : بعد استفهام ولكنه بغير همزة، وهي في المقام من القسم الثاني، وهمزة الإستفهام الإنكاري محذوفة والتقدير بل احسبتم.

حسبتم: فعل وفاعل.

ان تدخلوا: ان: حرف مصدري ونصب، تدخلوا: فعل مضارع منصوب (بأن)، وعلامة نصبه حذف النون.

الجنة: مفعول به على السعة، وقيل انها ظرف مكان لتدخلوا وان المفعول به الثاني محذوف وتقدير الجملة ام حسبتم

دخولكم الجنة ثابتاً.

ولما: الواو: حالية، لما: حرف نفي جازم، واصلها لم فزيد عليها وتغير معناها، و(لما) يصح الوقوف عليها كما لو قلت: أحان أوان الإفطار؟ تقول: لّما.

يأتكم: فعل مضارع مجزوم بما، وعلامة جزمه حذف حرف العلة والكاف: مفعول يأتكم.

مثل: فاعل يأتكم.

الذين: مضاف اليه.

خلوا: فعل وفاعل، والجملة لا محل لها لأنها صلة الذين.

من قبلكم : من قبل : جار ومجرور، والضمير (كم) في محل مضاف إليه .

مستهم: مسّ: فعل ماض، التاء: تاء التأنيث الساكنة، الهاء: مفعول به.

البأساء: فاعل، الضراء: عطف على البأساء.

وزلزلوا: الواو: عاطفة، زلزلوا: فعل ماض مبني للمجهول.

الواو: نائب فاعل، والجملة معطوفة على مستهم.

حتى: حرف غاية وجر، يقول: فعل مضارع منصوب بان مضمرة بعد حتى، الرسول: فاعل.

معه: ظرف مكان متعلق بآمنوا، ومضاف اليه.

متى نصر الله: متى: اسم استفهام في محل نصب ظرف زمان خبر مقدم، نصر: مبتدأ مؤخر مضاف.

اسم الجلالة: مضاف اليه.

الا: أداة استفتاح وتنبيه.

إن نصر الله قريب: ان واسمها وخبرها.

وحسب الشيء كائناً حسباناً: ظنه وتوقعه واحتمله.

وخـلا الشـيء خلـواً: مضـى وانقضـى، والقـرون الخاليـة: أي الماضية والمنصرمة.

البأسـاء والضـراء: الأولى مـن البـؤس، والثانيـة مـن الضـر، والبأسـاء: القحـط والجـوع والشـدة، والضـراء: المـرض ونقصـان الأنفس والأموال.

قـال الأزهـري: البأسـاء في الأمـوال وهـو الفقـر، والضـراء في الأنفُسِ وهو القتل)[1].

والزلزلة: والزلزال: تحريك الشيء واضطرابه، يقال زلزله زلزلة وزلزالاً، وزُلزل الشخص: أي خوف وحذر حتى بات غير مستقر لما اصابه من الخوف والقلق والإضطراب.

بحث بلاغي

في الوصف اعجاز بلاغي وبيان يترشح عنه الإنتباه والإلتفات الى مضمون الآية والإعجاز فيه مركب من جهة اللغة واللفظ.

والوصف لغة هو بيان حلية ونعت الشئ والدلالة التي تميزه عن غيره ، وهل الاسم من الوصف ، الجواب لا ،لتعلق الوصف بالمسمى والسنخية والهيئة ، وجاء لفظ ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ [2] بصيغة الإستعارة من المحسوس وإلى الأمر العقلي بلحاظ أن المس والمساس في الأجسام ، وهو لا يمنع من استعمال اللفظ في الآية بمعناه الحقيقي والحسي للأضرار البدنية والمادية التي لحقت بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت والصحابة ، ومن الإعجاز في الآية الكريمة ذكر الأذى بصيغة المس بقوله تعالى ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ [3]

(١) العباب الزاخر ٦٤/١.

(٢) سورة البقرة ٢١٤.

(٣) سورة البقرة ٢١٤.

ولم تقل أصابتهم أو حلت أو نزلت بهم ، وبين الإصابة والمس عموم وخصوص ، فكل إصابة هي مس وليس العكس ، والمس أدنى وأقل مرتبة ، ليكون هذا الأذى حجة على الذين كفروا ، فيتفضل الله بالنصر للمؤمنين .

ولقد أصاب المسلمين الأذى والبأساء والجراحات وسقط منهم شهداء كما في معركة بدر وأحد ، قال تعالى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾[1].

وتقدير آية البحث : مستكم وستمسكم البأساء والضراء حتى تقولوا متى نصر الله إلا أن نصر الله قريب ، وتنمي آية البحث ملكة الصبر عند المسلمين ، وتحث على الدعاء ورجاء الفرج والظفر والنصر على الذين كفروا .

وهل يختص موضوع الآية والخطاب فيها بأصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته ، الجواب لا ، فان موضوع الآية عام ومتصل إلى يوم القيامة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

وقد وصفت آية البحث المؤمنين من الأمم السابقة بضروب من الإبتلاء وهي :

---

(١) سورة آل عمران ١٤٠ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الأول : البأساء والشدة والمشقة والفتن والعوز والفقر والضرر الخاص والعام ، ومن معاني قوله تعالى ﴿مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ﴾ (١) وجود قوم ظالمين يحاربون الأنبياء السابقين وأتباعهم بلحاظ القرائن ، وهو الأمر الذي تجلي في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ حارب رؤساء قريش النبي محمداً من جهات :
الأولى : إيذاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في شخصه وبدنه وعن(عبد الله بن مسعود قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم يصلي عند المقام فقال أبو جهل لأصحابه و هم جلوس عنده : من يذهب فيأتينا بسلى الجزور عند أبي فلان ؟ فقام غاو منهم فجاء به فقيل له : إذا رأيت محمدا ساجدا فضعه بين كتفيه فلما سجد رسول الله صلى الله عليه و سلم وضعه بين كتفيه فلم يتحلحل حتى فرغ من سجوده و بلغ فاطمة فجاءت و هي جارية فأخذته و جعلت تمسح عن ظهر رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم أقبلت عليهم تشتمهم و استضحكوا حتى صرعوا .
فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم صلاته استقبل الكعبة و رفع يديه فدعا عليهم : اللهم عليك بعمرو بن هشام و عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة و عمارة بن الوليد و أمية بن خلف و عقبة بن أبي معيط قال عبد الله بن مسعود : و أنا يومئذ غلام غير ذي منعة في القوم فوالذي أنزل الكتاب على محمد لقد رأيتهم صرعى في الطوى طوى بدر ﴾
وعن ابن اسحاق قال : و قد قال عمر بن الخطاب فيما يزعمون بعد إسلامه يذكر ما رأت قريش من العبرة فيما كان أبو جهل هم به من رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم و قائل يقول : قالها أبو طالب فالله أعلم بمن قالها :

(١) سورة البقرة ٢١٤.

(أفيقوا بني غالب و انتهوا ... عن البغي في بعض ذا المنطق)
(و إلا فإني إذن خائف ... بوائق في داركم تلتقي)
(تكون لغابركم عبرة ... و رب المغارب و المشرق)
(كما ذاق من كان قبلكم ... ثمود و عاد فمن ذا بقي)
(غداة أتاهم بها صرصرا ... و ناقة ذي العرش إذ تستقي)
(فحل عليهم بها سخطة ... من الله في ضربة الأزرق)
(غداة يعض بعرقوبها ... حسام من الهند ذو رونق)
(و أعجب من ذاك من أمركم ... عجائب في الحجر الملصق)
(بكف الذي قام من حينه ... إلى الصابر الصادق المتقي)
(فأيبسه الله في كفه ... على رغم ذا الخائن الأحمق)
(أحيمق مخزومكم إذ غوى ... بغي الغواة و لم يصدق))(1).

الثانية : فرض رؤساء قريش الحصار على بني عبد المطلب وبني المطلب في شعب أبي طالب لأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم دعا إلى عبادة الله، ونبذ مظاهر الشرك من الأصنام ونحوها.

الثالثة : إيذاء كفار قريش للصحابة رجالاً ونساءً، قال تعالى﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾(2)، وقضاء النحب هو الموت، وقيل هو الوفاء بالعهد، والأولى هو الصحيح والآية أعلاه مدنية وذكر في أسباب نزولها وجوه، منها أنها نزلت في شهداء بدر(3)، ومنها أنها نزلت في جعفر الطيار والإمام علي عليه السلام، فأنها تشمل شهداء الإسلام في مكة مثل ياسر وسمية والدي عمار بن ياسر، فمن قضى نحبه

(1) سيرة ابن اسحاق ١٩١/١.
(2) سورة الأحزاب ٢٣.
(3) أنظر الجزء الحادي والستين بعد المائة من هذا السفر المبارك.

تحت التعذيب، ومنهم من لاقى شتى ضروب التعذيب وبقي على إيمانه مثل بلال وعمار وأخيه وغيرهم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمرّ عليهم وهم يعذبون(فيقول صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[1].

ولاقى بلال أشد العذاب من مولاه أمية بن خلف، ففوض أمره إلى الله، ورضي بالقتل وعدم إعطائهم كلمة واحدة ترضيهم، وكانوا يخرجونه من مكة ويلقونه على رمضاء مكة في شدة الحر، ويضعون الصخرة العظيمة على صدره ثم يقول له(لَا وَاَللّهِ) لَا تَزَالُ هَكَذَا حَتّى تَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمّدٍ وَتَعْبُدَ اللّاتَ وَالْعُزّى .

فَيَقُول وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ أَحَدٌ أَحَدٌ . قَالَ ابن إسْحَاقَ : وَحَدّثَنِي هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ يَمُرّ بِهِ وَهُوَ يُعَذّبُ بِذَلِكَ وَهُوَ يَقُول : أَحَدٌ أَحَدٌ ؛ فَيَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ وَاَللّهِ يَا بِلَالُ ثُمّ يُقْبِلُ عَلَى أُمَيّةَ بْنِ خَلَف ، وَمَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِهِ مِنْ بَنِي جُمَحٍ فَيَقُولُ أَحْلِفُ بِاَللّهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ عَلَى هَذَا لَأَتّخِذَنّهُ حَنَانًا ، حَتّى مَرّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ (ابن أَبِي قُحَافَةَ))[2].

وهل يختص لفظ (البأس) و(الضراء) في الآية بخصوص الأذى الذي لاقاه الأنبياء السابقون وأصحابهم من الكفار، الجواب لا، إنما يشمل أنواع الأمراض والفقر وشدة الحاجة والغربة.

الثاني : الضراء وهي ضد النعماء، إذ أصيب المؤمنون من الأمم السالفة بالأمراض وأنواع الرزايا.

لقد آخى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار، ولا يفي هذا أن كل مهاجر لا يؤاخي إلا أنصارياً، فقد تكون

(١) زاد المعاد ١٧/٢.

(٢) أنظر ابن هشام/ السيرة النبوية ٣١٧/١.

المؤاخاة بين إثنين من المهاجرين أو إثنين من الأنصار، فهل آخى الأنبياء السابقون بين أصحابهم .

الجواب لا دليل عليه، نعم يكون الإيمان سوراً جامعاً لهم، ويشملهم قوله تعالى﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١]، فإن قيل نزلت الآية أعلاه بخصوص المسلمين ولزوم السعي في الصلح بينهم ولا يقول الأصوليون بالإستصحاب القهقري، والجواب من جهتين:

الأولى : موضوع الآية اعم، وهو قانون يضبط الصلات بين المؤمنين، ويتغشى الحياة الدنيا من أيام أبينا آدم وإلى يوم القيامة.

الثانية : إمتناع الإستصحاب القهقري لا تشمل مواضيع وأحكام القرآن .

ومن معاني آية البحث مواساة الصحابة ودعوتهم وعامة أجيال المسلمين إلى الصبر والتأسي ، والحث على الدعاء ورجاء التخفيف والنصر منه تعالى.

وهل يصح القول بالدعاء لمحو البأساء والضراء الجواب نعم، وهو من إطلاقات الوعد من عند الله عز وجل بالإستجابة لقوله تعالى﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢].

ومن الإعجاز في آية البحث مجيؤها بصيغة المثال والذكر للأمم السالفة، ويكون من تقدير الآية بلحاظ الدعاء وجوه:

أولاً : يا أيها الذين آمنوا إدعوا الله للأمن والسلامة من البأساء.

ثانياً : يا أيها الذين آمنو سلوا الله الوقاية والنجاة من الضراء.

---

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة غافر ٦٠.

ثالثاً : سؤال المسلمين لله عز وجل للنجاة طرو حال الإضطراب والإرباك والخوف الشديد والدعاء لتكون الزلزلة والإرباك في صفوف الذين كفروا .

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الاحزاب فقال: " اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الاحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم " وفى رواية: اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم)[1].

الثالث : الزلزلة والإرباك والإضطراب في صفوف أتباع الأنبياء السابقين من شدة ما يلاقونه من القوم الكافرين ليكونوا أسوة للمسلمين، وتحث آية البحث المسلمين على الصبر عند الشدائد، وقد نزلت تلك الزلزلة بالمسلمين في واقعة الخندق إذ أحاط عشرة آلاف رجل من الأحزاب بالمدينة المنورة، وحفر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه خندقاً حولها .

وفي التنزيل ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾[2].

ومن إعجاز آية البحث أنها تبين أفراد الأذى الذي لاقاه المؤمنون من الأمم السالفة ليتخذوا طريقهم إلى اللبث الدائم في الجنة من جهات:

الأولى : الإتعاظ من قصص الأمم السابقة وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[3]، وهو من مصاديق

---

(١) ابن كثير/ السيرة النبوية ٢١٤/٣.

(٢) سورة الأحزاب ٩-١٠.

(٣) سورة يوسف ١١١.

ومعاني قوله تعالى﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ﴾[1].

الجواب نعم، إذ أن جهاد الأنبياء السابقين وأصحابهم من أحسن القصص وكذا بيان تحملهم وصبرهم، ودلالة بداية آية البحث على البشارة بفوزهم بالجنة، وخاتمة الآية على تحقيقهم النصر والغلبة على الذين كفروا بفضل من عند الله.

الثانية : تلاوة آية البحث وآيات القرآن، وهذه التلاوة واقية من تعدي وظلم الذين كفروا في الجملة، وهي سلاح يغني عن الدفاع والقتال، ولا يعلم ما محاه الله عن المسلمين من المعارك والإقتتال بتلاوتهم القرآن وأدائهم الفرائض إلا هو سبحانه .

وهل يطلع المسلمون على هذا الفضل يوم القيامة ، الجواب نعم قال تعالى﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2].

الثالثة : بعثة الآية المسلمين على الصبر والجهاد والدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبيضة الإسلام.

في سياق الآيات

بعد بيان اختلاف أمم سالفة ، وتفضله تعالى بهداية المسلمين جاءت هذه الآية لذكر ما في طريق الجنة من المشاق والشدائد وبعد ان ختمت الآية السابقة بهداية الله للمؤمنين جاءت هذه الآية على نحو الجملة الخبرية لتبين وظائف المسلمين لبلوغ السعادة في الآخرة.

قد تقدم قبل سبع آيات نداء الإيمان وتوجه النداء والخطاب منها للمسلمين بقوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ

(١) سورة يوسف ٣.

(٢) سورة ق٢٢.

كَافَّةً....﴾[١]، وجاء الخطاب في هذه الآية للمسلمين والمسلمات﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾[٢] .

وتقدير الآية (يا أيها الذين آمنوا أم حسبتم أن تدخلوا الجنة...) لبيان قانون وهو أن آية البحث رحمة بالمسلمين وسبيل لهدايتهم ، وهي ضياء ينير لهم دروب الرشاد ، ولقد بينت الآية السابقة أموراً :

الأول : الأصل في الناس أنهم أمة واحدة على الهدى.

الثاني : حدوث الإختلاف بين الناس مع تقادم الأحقاب .

الثالث : تفضل الله عز وجل ببعث الأنبياء للبشارة بالنعيم الدائم لمن يتعاهد الإيمان، والإنذار بالعذاب الأليم لمن يصر على الكفر والجحود، لتكون بعثة كل نبي رحمة بأهل زمانه والناس جميعاً لأنها برزخ دون الإختلاف والفرقة ، قال تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣].

وتبين هذه الآية مراتب الإختلاف الذي تذكره الآية السابقة بترتب الأذى على الذين آمنوا إذ كانوا يتعاهدون الإيمان ويعلنون إيمانهم بالله وملائكته ورسله وكتبه، فتحملوا العناء وجاءهم الأذى من الذين كفروا، وهم صابرون في مرضاة الله ويتطلعون إلى نصر الله عز وجل.

لقد أختتمت الآية السابقة بقانون وهو أن الله عز وجل يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وهذه الهداية متصلة إلى يوم

(١) سورة البقرة ٢٠٨.

(٢) سورة البقرة ٢١٤.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

القيامة، وفيها حث للمسلمين للدعاء بسؤال الهداية إلى الصراط المستقيم .

وقد تفضل الله عز وجل عليهم بأن يتلو كل مسلم ومسلمة قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، عدة مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب العيني كل مكلف منهم لوجوب قراءة سورة الفاتحة في الصلاة .

وعن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب)[2].

والصلة بين آخر الآية السابقة وأول هذه الآية هو : والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم) ويحتمل دخول الجنة بلحاظ خاتمة الآية السابقة وجوهاً :

الأول : دخول الجنة من الصراط المستقيم.

الثاني : المراد من الصراط المستقيم الإيمان وعمل الصالحات في الدنيا، وهو مقدمة لدخول الجنة.

الثالث : المراد من الصراط المستقيم هو جسر في الآخرة يكون طريقاً إلى الجنة .

وعن أنس قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يشفع لي يوم القيامة فقال أنا فاعل . قلت : يا رسول الله أين أطلبك؟ قال : أطلبني أول ما تطلبني على الصراط . قلت : فإن لم ألقك على الصراط؟ .

قال : فاطلبني عند الميزان .

---

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) صحيح ابن خزيمة ٣١٣/٢.

قلت : فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال : فاطلبني عند الحوض ، فإني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن[1].

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة، وهو من الإعجاز في إتحاد اللفظ القرآني وتعدد معانيه وتغشيها للدنيا والآخرة .

ليكون من إعجاز نظم الآيات إختتام الآية السابقة بالإخبار عن فضل الله في الهداية إلى الصراط المستقيم ثم البشارة للمسلمين بدخول الجنة مع دعوتهم للصبر وتحمل الشدة والأذى في البدن والكسب .

لقد إبتدأت البعثة النبوية في مكة، وفي اليوم الثاني والثالث للبعثة آمنت خديجة بنت خويلد والإمام علي عليه السلام بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاقاموا الصلاة في المسجد الحرام في آية إعجازية ثم أخذ الناس يدخلون الإسلام.

وعن عفيف الكندي قال : كنت امرءاً تاجراً فقدمت مكة أيام الحج فنزلت على العباس بن عبد المطلب وكان العباس لي صديقاً وكان يختلف إلى اليمن يشتري القطن فيبيعه أيام الموسم، فبينما أنا والعباس بمنى إذ جاء رجل شاب حين حلقت الشمس في السماء فرمى ببصره إلى السماء ثم استقبل الكعبة فلبث مستقبلها .

حتى جاء غلام فقام عن يمينه فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب وركع الغلام والمرأة فخرّ الشاب ساجداً فسجدا معه فرفع فرفع الغلام والمرأة فقلت : يا عباس أمرٌ عظيم فقال : أمرٌ عظيم.

---

(١) الدر المنثور ١٩٥/٤.

فقلت : ويحك ما هذا؟ فقال : هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يزعم أن الله تعالى بعثه رسولا وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذا الغلام ابن أخي علي بن أبي طالب، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجة محمد قد تابعاه على دينه، ما على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء.

قال عبد الله الكندي بعدما رسخ الإسلام في قلبه : ليتني كنت رابعاً.

ويروى أن أبا طالب قال لعلي : أي بني ما هذا الذي أنت عليه قال : آمنت بالله ورسوله وصدقته فيما جاء وصليت معه لله. فقال له : أما أن محمداً لا يدعو إلا إلى خير فالزمه.

وروى عبد الله بن موسى عن العلاء بن صالح عن المنهال بن عمرو عن عبّاد بن عبد الله قال : سمعت عليًا يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر ، لا يقولها بعدي إلاّ كذاب مفتر[1].

وهل كان لصلاة الجماعة هذه موضوعية في دخول الناس الإسلام ، الجواب نعم، إذ أخذوا يدخلون الناس فرادا جماعات ، فاغاظ الأمر رؤساء الكفر والضلالة من قريش فقاموا بتعذيب الذين آمنوا بشتى صنوف الأذى والتعذيب ومن غير شفقة وتعرضت أسر كاملة ومنهم عمار بن ياسر ووالداه وأخوه عبد الله واسم ياسر هو ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن مالك ثم لعنسي، حليف بني مخزوم .

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمر عليهم أيام التعذيب يقول: صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة).

---

(١) الكشف والبيان ٢٠٩/٦.

واستشهد ياسر وزوجه سمية، وهاجر عمار وصاحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أيام حياته ، وفي خروجه في سرايا ومن يراه يذكر أيام الفداء والشدة التي لاقاها المسلمون الأوائل في مكة، كما ضربت قريش حصاراً قاسياً على بني هاشم، وحصروهم لنحو ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، وكتبوا وثيقة تعاهدوا فيها بالإمتناع العام عن البيع والشراء مع بني هاشم وعن مناكحتهم وعن مجالستهم .

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وآله وسلم طائفة من أصحابه للهجرة إلى الحبشة، وهذه الهجرة من البأساء والأذى ومفارقة الأهل والأحبة، وملاقاة المجهول في دار الغربة .

وعندما عزمت قريش على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في فراشه هاجر من ليلته وصارت المدينة أرض الهجرة، وإجتمع فيها المهاجرون والأنصار فجهز كفار قريش الجيوش فكانت معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، وهي ومقدماتها من البأساء والضراء التي أصابت المسلمين لتعطل الأعمال والمكاسب ولكثرة جيش عدوهم في المعركة في مقابل عدد المهاجرين والأنصار، إذ كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر، وعدد جيش الذين كفروا نحو ألف، إلى جانب رجحان كفة الذين كفروا في العدة والسلاح، ولكن النصر أمر بيد الله سبحانه .

وفي التنزيل ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، فجعله حليفاً ومصاحباً للمسلمين ليكون إنتقاماً من الذين كفروا على ما لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهل بيته

(١) سورة الأنفال ١٠.

وأصحابه من الأذى منهم ليكون كل أذى للمسلمين على وجوه :

الاول : فيه موضوع للثواب ، ومضاعفة الحسنات ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

الثاني : إنه سبيل لزيادة الإيمان .

الثالث : إنه طريق إلى الجنة، والإقامة في النعيم الدائم .

إعجاز الآية الذاتي

تهيء الآية النفوس المؤمنة لخوض غمار الجهاد في سبيل الله والرضا بالإختبار والإمتحان الذي جعله الله علة ذاتية لإستحقاق الجنة، وفي ذكر الأمم السالفة واهل الإيمان منهم بيان للمبادئ التي تحكم الحياة وتوكيد ان لله الإحاطة والعدل والحكم ويمكن دراسة موضوعية البشارة في ارتقاء وتهذيب النفوس.

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إختبار وإمتحان وأن هذا الإمتحان طريق للجزاء في دار الخلود، ليكون قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ مدرسة في الفقاهة، وسبيلاً لإستنباط العلوم وسنن النهج القويم.

وتؤكد هذه الآية وجود العالم الآخر، وأنه دار الثواب والجزاء، وتبعث الرغبة في النفوس لفعل الصالحات، وإكتناز الحسنات، والحرص على إجتناب السيئات التي تداهم الإنسان في الليل والنهار.

وجاءت الآية بصيغة الجمع(أم حسبتم) لمخاطبة أجيال

---

(١) سورة البقرة ٢١٨.

المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة، وبعثهم على السعي إلى الإقامة في الجنة.

وأخبرت الآية عن حال الذين آمنوا من الأمم السابقة وكيف أنهم لاقوا الشدائد في سبيل الله ومحصوا للبلاء، وقاتلوا الذين كفروا قال تعالى﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1].

و(أم) في الآية منقطعة بمعنى(بل) لتبعث الآية المسلمين على الصبر، وعن قتادة قال: نزلت في يوم الأحزاب ، أصاب النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ وأصحابه بلاء وحصر.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس قال : أخبر الله المؤمن أن الدنيا دار بلاء ، وأنه مبتليهم فيها ، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم فقال { مستهم البأساء والضراء }[2] فالبأساء الفتن ، والضراء السقم { وزلزلوا } بالفتن وأذى الناس إياهم)[3].

وقيل(لما) فيها معنى التوقع، وهي في النفي نظيرة(قد) في الإثبات، والمعنى أن إتيان ذلك، متوقع ومنتظر)[4].

ولما حرف يجزم الفعل المضارع،ويقلبه إلى معنى الفعل الماضي ليتصل موضوعه إلى أوان الحديث والإخبار مع توقعه في المستقبل، ليكون من معانيه تطلع المسلمين إلى نزول آيات القرآن التي تبين أحوال الأمم السابقة وجهاد المؤمنين وهو من مصاديق

(١) سورة آل عمران ١٤٦.

(٢) سورة البقرة ٢١٤.

(٣) الدر المنثور ٤٨٩/١.

(٤) الكشاف ١٨٨/١.

قوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[1].

ومن إعجاز الآية أنها لم تتضمن التصريح بالتشابه التام بين المسلمين، والمؤمنين من الأمم السابقة، إنما أشارت إلى بيان أحوال الأمم السابقة وتبليغه المسلمين، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[2].

وفيه مسائل :

الأولى : آيات القرآن، وما فيها من قصص الأنبياء وصبرهم وأنصارهم موعظة كي يستغيث الرسول وأصحابه إلى الله يسألون النصر والغلبة على الذين كفروا.

الثانية : السنة النبوية القولية وإخبار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن قصص الأنبياء والصالحين سبيل هدى.

الثالثة : الشواهد التأريخية وأخبار الأمم السابقة، والآثار، والأطلال وما فيها من المواعظ والعبر، حجة ، والأصل هو آيات القرآن.

ويمكن تسمية الآية آية (ولما يأتكم) ولم يأت هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية.

أما لفظ(أم حسبتم) الذي إبتدأت به آية البحث فقد ورد في القرآن ثلاثة مرات وستأتي تسمية الآية الثانية والأربعين بعد المائة من سورة آل عمران باسم (أم حسبتم)[3].

---

(١) سورة يوسف ٣.

(٢) سورة يوسف ٣.

(٣) أنظر الجزء ١١٠ ص ١٥٤.

إعجاز الآية الغيري

وأم في الصناعة النحوية بمعنى حرف الإضراب (بل) وتأتي بين جملتين مستقلتين وتسمى المنقطعة ، وفي التنزيل ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (١).

وظاهر معنى ﴿أم﴾ أدنى وأقل درجة من ﴿بل﴾ في معنى الإضراب ، لتفيد معنى الإستفهام الوسط والبرزخ بين التقريري والإنكاري ، فمن معاني ﴿أم﴾ الذي إبتدأت به آية البحث بعث المسلمين على الجهاد والصبر وتحمل الأذى في سبيل الله .

ولم تقل الآية : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما تلاقوا ما لاقاه الذين خلوا من قبلكم ، ليكون من إعجاز الآية الغيري دعوة المسلمين للدعاء للسلامة من البأساء والضراء والتخفيف عنهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢) .

لقد جعل الله عز وجل قصص الأنبياء والصالحين من القرآن موعظة وسبيل هداية ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (٣) ومن مفاهيم الآية إصلاح نوايا المسلمين ، وعزمهم على الإخلاص في طاعة الله وملاقاة الحتوف ، وهو الذي يدل عليه قوله تعالى ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(٤).

---

(١) سورة الرعد ١٦.

(٢) سورة غافر ٦٠.

(٣) سورة يوسف ١١١.

(٤) سورة البقرة ٢١٤.

والصبر على الأذى في مرضاة الله عز وجل قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (١).

لقد بدأت الآية بالتذكير بالجنة ورجحان دخول المسلمين إليها وتعلق هذا الدخول بمجئ أخبار وقصص الأنبياء وأتباعهم وما تحملوه من الأذى من الكفار ، قال تعالى﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

وتختتم الآية بالبشارة بأن ﴿نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وهو الأمر الذي تحقق مصداقه وعلى نحو متصل ومتتابع ، فكل معركة من معارك الإسلام الأولى كانت نصراً عظيماً ، وبخصوص معركة بدر قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (٣) ومعركة بدر هي أولى معارك المسلمين ووقعت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة .

عن ابن عباس وغيره (لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم وقال: "هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها".

فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعض، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وأله سلم يلقى حربا، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس من لقى من الركبان تخوفا على أمر الناس، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان: أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك.

---

(١) سورة الرعد ١١.

(٢) سورة آل عمران ١٤٦.

(٣) سورة آل عمران ١٢٣.

فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة.

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن عكرمة، عن ابن عباس ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير.

قالا: وقد رأت عاتكة بنت عبدالمطلب قبل قدوم ضمضم إلى مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبدالمطلب فقالت له: يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم على ما أحدثك.

قال لها: وما رأيت ؟ قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث.

فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه: فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث.

ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة.

قال العباس: والله إن هذه لرؤيا، وأنت فاكتميها لا تذكريها لاحد.

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة، وكان له صديقا، فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لابنه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش.

قال العباس: فغدوت لاطوف بالبيت، وأبو جهل ابن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا.

فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال أبو جهل: يا بنى عبدالمطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية ؟ قال: قلت: وما ذاك ؟ قال: تلك الرؤيا التى رأت عاتكة.

قال: قلت: وما رأت ؟ قال: يا بنى عبدالمطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث.

فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

قال العباس: فو الله ما كان مني إليه كبير شئ، إلا أنى جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئا.

قال: ثم تفرقنا، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبدالمطلب إلا أتتنى فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيرة لشئ مما سمعت ؟ قال: قلت: قد والله فعلت، ما كان منى إليه من كبير، وايم الله لا تعرضن له، فإذا عاد لاكفيكنه.

قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب، أرى أنى قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه.

قال: فدخلت المسجد فرأيته، فو الله إنى لامشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلا خفيفا حديد الوجه، حديد اللسان حديد النظر، قال: إذ خرج نحو باب المسجد يشتد، قال: قلت في نفسي، ما له لعنه الله ؟ أكل هذا فرق منى أن أشاتمه ؟ ! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع، صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا

على بعيره، قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

قال: فشغلني عنه وشغله عنى ما جاء من الامر.

فتجهز الناس سراعا وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ﴿كلا﴾ والله ليعلمن غير ذلك)(١).

ولا يختص النصر الذي تخبر عنه الآية أعلاه بذات معركة بدر إنما يشمل معارك وأحوال المسلمين اللاحقة ، لذا فان خروج المسلمين من معركة أحد من غير هزيمة نصر عظيم .

فان قلت قد أستشهد أربعة عشر من المهاجرين والأنصار في معركة بدر وسبعون في معركة أحد ، الجواب لقد فاز هؤلاء بالخلود في النعيم ، قال تعالى ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢).

الآية سلاح

تبين الآية وظائف المؤمنين ، وتؤكد بروز الهداية في الخارج بالإمتثال التام لأحكام الشريعة والتقيد بسننها والإعتبار والإتعاظ من الأمم السالفة والإقتداء بالمؤمنين ممن سبقنا، والآية مدرسة في السعي الى الجهاد والصبر وتحمل الشدائد والبلوى.

وتتضمن الآية في مفهومها الشهادة للمسلمين بأنهم يرغبون في دخول الجنة ويسعون إليها بالثبات على الإيمان وفعل الخيرات، وقد أثنى الله عز وجل عليهم بالنداء القرآني ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذي ورد تسعاً وثمانين

(١) ابن كثير/ السيرة النبوية ٣٨٠/٢.

(٢) سورة آل عمران ١٥٧.

مرة في القرآن وكلها موجهة إلى المسلمين والمسلمات والإيمان شرط دخول الجنة .

وأخبرت آية البحث بمجئ قصص وأخبار الأمم السابقة وما لاقاه الأنبياء وأصحابهم ، قال تعالى﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1].

ومن منافع آية البحث عدم إصابة المسلمين بالخوف والهلع عند نزول الآيات التي تبين الأذى الذي لاقاه الأنبياء، وعند سماع قصصهم من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أو من كتب أهل الكتاب لإفادة الآية قانوناً وهو أن هذا الأذى طريق إلى الجنة ، كما تتضمن الآية الثناء على المسلمين لصبرهم في سبيل الله وتطلعهم إلى النصر من عنده سبحانه، قال تعالى﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[2].

وأبى الله عز وجل إلا أن يجعل الآية القرآنية تتضمن البشارة، وأصل الزلزلة أي التحريك، لإرادة بيان إضطراب المؤمنين من شدة الأذى الذي لاقوه .

أسباب النزول

في الآية وجوه :

الأول : عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة اشتد الضرر عليهم لأنهم خرجوا بلا مال، وتركوا ديارهم واموالهم في ايدي المشركين، واظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانزل الله تعالى

(١) سورة يوسف ١١١.

(٢) سورة الفرقان ٣٢.

تطيبياً لقلوبهم ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾.

الثـاني : نزلـت الآيـة يـوم الخنـدق ، وحينمـا دب الخـوف في قلـوب المسـلمين في المدينـة فكـأن الآيـة مـدد سمـاوي ومواسـاة وحـث على الصبر.

الثالـث : نزلـت في حـرب احـد لمـا قـال عبـد الله بـن ابـي لأصحاب النبي الى متى تقتلون انفسكم لو كان محمد نبياً ما سلط الله عليه الأسر والقتـل ، وورد في التنزيـل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1].

مفهوم الآية

في الآيـة بشـارة السـعادة الأبديـة الـتي يكـون الإبـتلاء والأذى في الـدنيا سـبباً لنيلـها وهـي الفـوز العظـيم ، وغايـة الأنبيـاء والأوليـاء والعلمـاء معروضـة لكـل مسـلم لقـاء ثمـن مؤقـت ومحـدود ضـمن الحيـاة الـدنيا الـتي نسـبتها الى الآخـرة نسـبة القليـل المحـدود الى اللامحدود .

وهـذه البشـارة وعـد كـريم حتمـي الحصـول جـاء للتخفيـف عـن المسـلمين فيمـا يلاقونـه مـن الـبلاء والأذى في الـنفس والعقيـدة والمـال والحيـاة اليوميـة مطلقـاً وهـو عـون لهـم لتحمـل الأذى ومـدد للصـبر ومواجهـة المشـاق لـيس في حـال الـدفاع فقـط بـل للإقـدام على سـوح القتال ومقابلة اعتداء الكافرين بمثله.

وجـاءت هـذه الآيـة ومـا فيهـا مـن الوعـد الكـريم بعنـوان المثـل والمتسـابه بـين اهـل الإيمـان في الملـل السـماوية المتعاقبـة لكنـه لا يعـني

(١) سورة آل عمران ١٥٦.

بالضرورة ابتلاء المسلمين بمثله وعلى نحو العموم الإستغراقي والمجموعي فقد تمر على المسلمين فترات واحقاب ليس فيها الا الغبطة والأمن والسلامة في الدين والدنيا الا انها لا تخرج عن موضوع الآية من وجهين:

الأول: تعرض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الأوائل لأقسى وسائل الأذى والفتك، واستشهاد جماعات منهم لأنهم ابوا التخلي عن الإسلام وواظبوا على الدفاع عنه، لذا تتجدد تلك الوقائع وابطالها في الذاكرة الإسلامية وتنعكس صورها التقريبية في ذهن كل مسلم وكأنها حدثت بالأمس.

الثاني: ان المسلمين في كل زمان في معرض الإمتحان وتلقي البلاء والأذى، فتكون هذه الاية حرزاً ومقدمة للإستعداد للبلاء وتحمله والصبر عليه خصوصاً وان الإنسان اذا كان غارقاً في نعمة السكينة والأمان لا يستطيع مواجهة الأذى والهجوم المفاجئ كما هو حال المجتمعات المستقرة في رغد العيش التي لم تعط الدفاع والجانب العسكري عناية خاصة.

فحالما يباغتهم العدو يفرق شملهم ويستحوذ على خيراتهم ويسود اهلهم، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1].

أو انها تولي نوع عناية خاصة للجانب العسكري وتهيء العدة والسلاح الا انها لا تمتلك التأهيل العسكري والقدرة على المواجهة، فجاءت هذه الآية لتبعث الصبر وارادة الدفاع وتحمل البأساء والضراء عند المسلمين برضا وقبول وانتظار البشارة

---

(١) سورة النمل ٣٤.

والسعادة الأبدية وهذا سلاح ينفرد به المسلمون وهو سلاح لمواجهة المعتدي ولزجره عن ايذاء المسلمين، فعندما يظن المعتدي ان الإعتداء لن يؤثر سلباً بالخصم فانه يعرض عنه ويصرف النظر عن الإساءة والأذى له ، ويتوجه إلى صيغ وطرق اخرى من الظلم او التفاهم فكما يحتاج المسلمون العدة كما في قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾(1).

وهذه الآية تأهيل سماوي للمسلمين للمواجهة والتحمل وتنمية سجايا نفسية لخوض غمار الحرب دفاعاً ، ولتلقي الأذى الشخصي اذا وقع على افراد منهم سواء بالتعرض للأسر، او في مجتمعات وبلدان الكافرين او في حال السفر او الخصومة والنزاع وموازين القلة والكثرة، او عند وجود خلل في القيادة والعدة والتهيء للعدد وعدم التكافئ معه .

وجاءت هذه الآية مقدمة للنهوض بالمجتمع الإسلامي وسبيلاً للإرتقاء لمستوى المواجهة ومنع اليأس والقنوط، ودعوة لأهل التقوى للمبادرة الى الصبر وقوة العزيمة ومجابهة المشاق ليتبعهم الآخرون في الذب عن الإسلام وحرماته ومن مفاهيم الآية انها تبين عظيم فضله تعالى بالتخفيف عن المسلمين بدول ومجتمعات مستقرة وعز دائم من غير التعرض لإبتلاء وفتك من غيرهم ومع هذا فان الأجر والثواب بالجنة ينتظرهم، وهذا التخفيف يملي علينا التقيد التمام بالفرائض والأحكام واجتناب التقصير، نعم الآية تمنع من التكاسل والركون الى الراحة والسكينة فلابد من اخذ العدة والتهيء النفسي عند تلقي الأذى، والعزم على المواجهة وان ادت الى تحمل الخسائر في الأنفس والأموال، كما

---

(1) سورة الأنفال ٦٠.

انها تمنع من اختيار حلول وسطية مع العدو الكافر من قريش تكون على حساب المبدأ والدين .

وتنمي الآية ملكة عشق الجهاد والصبر على البلاء وفق فلسفة الشهادة والشوق الى الجنة.

فمتى ما ادرك الإنسان ان تعبه سيعود عليه بالربح فانه يواظب على بذل الجهد ويصبر على التعب سعياً لنيل بغيته.

والى جانب الوعد المطلق بالجنة وهو خطاب موجه لكل المسلمين فان خاتمة الآية وعد خاص بالنصر في الحياة الدنيا موجه كمثل ودرس وعبرة الى الذين يلاقون الأذى ويعانون من البلاء والإضطهاد فالبشارة بالنصر تتخلل ثنايا البلاء لتشتته وتخفف من وطأته وتحث على اتباع الصيغ لمواجهته مقروناً بالتطلع الى النصر والمدد من عنده تعالى، لذا ترى النصر احياناً يحصل بآية اعجازية وتوفيق منه تعالى واسباب خارجة عن الحسابات المادية وفق المتعارف.

وتهون البشارة بالجنة على المسلم آلام الأذى وتمنع من ظهور الخوف والفزع على الجوارح وفي السلوك، وانحسار الخوف وتخلص النفوس منه من اهم اسباب مواصلة وثبات الإقدام والتخلي عن فكرة الهزيمة والإنسحاب والتراجع، بالإضافة الى كونه سبباً لبعث الملل والضجر والأحباط عند الأعداء،كما ان الإستحضار الذهني للجنة يؤدي وفق البرهان الإني الى ادراك حقيقة وهي ان مقاليد الأمور بيده تعالى وهو القادر على نصر اوليائه.

وكما تتصدر الآية بشارة وامل فان خاتمتها بشارة وسكينة وبين البشارتين عموم وخصوص من وجه، فالأولى هي الفوز بالجنة اما بشارة الخاتمة فهي النصر كطريق ومقدمة لدخول الجنة

سواء بذاته او انه موضوع لإقامة الشعائر وهداية الناس الى سبل الحق والرشاد.

إفاضات الآية

تبين آية البحث قانوناً مصاحباً للحياة الدنيا وهو أن الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله طريق لدخول الجنة وقد أكرم أن الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأكرم المسلمين بنزول القرآن وخصهم فيه بنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تسعاً وثمانين مرة وخاطبهم سبحانه ﴿كنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

ليكون كل فرد من هذا النداء شاهداً على صبر المسلمين، ودعوة لهم للتحلي بالصبر .

ومن أسرار آية البحث أنها ترغيب للمسلمين والمسلمات بدخول الجنة، وحث لهم على التفقه في الدين ومعرفة طرق السعي الحميد إلى دخولها، بالعمل الصالح وتحمل الأذى والبلاء في سبيل الله فان قلت لم تذكر الآية العمل الصالح الجواب بلى قد ذكرته من جهات :

الأولى : صيغة الخطاب في الآية للمسلمين والمسلمات .

الثانية : عطف مضامين هذه الآية على الآية السابقة التي أختتمت بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]، من وجوه :

الأول : نعت المسلمين بصفة الذين آمنوا وهدايتهم للحق، ومن مصاديق الحق العمل الصالح .

---

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ٢١٣.

الثاني : فضل الله عز وجل باصلاح المسلمين لخلافة الأرض باتباع النبوة والتنزيل، والتنزه عن أسباب الإختلاف والشقاق.

الثالث : إختتام الآية السابقة بأن الله عز وجل يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الثالثة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على سعي المسلمين لدخول الجنة، وهذا السعي لا يكون إلا بالعمل الصالح .

الرابعة : إختتام الآية بالبشارة بالنصر، وفيه دعوة للمسلمين للإجتهاد بالدعاء لتحقيق النصر والغلبة وتقريب الفرج ، قال تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

الآية لطف

تتضمن الآية الإخبار عما لاقاه المؤمنون في الأمم السابقة من المحن والبلايا، وشدة العذاب من الذين كفروا، وإرجاء النصر عليهم، وظنهم بأنه أبطأ عليهم ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾.

وما دامت الآية أعلاه قد ذكرت الرسول فلابد من حمل الآية على وجوه ليس فيها بأس أو قنوط أو سوء ظن، ويكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : متى نصر الله فننقطع إلى عبادته.

الثاني : متى نصر الله فننجو من الشدائد والمحن ، وبخصوص معركة بدر قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة غافر ٦٠.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

الثالث : حتى يدعو الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا أن نصر الله قريب) أي المراد من (يقول) : هو الدعاء الجماعي العام والمسألة المتحدة، فقد أجمع الرسول والذين آمنوا بالشوق إلى نصر الله.

الرابع : متى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الذي وعدنا.

الخامس : متى نصر الله فيكون طريقاً إلى الجنة كما أن البلاء سبيل إلى المغفرة والأجر .

السادس : متى نصر الله فهو لطف وخير ونعمة .

ويحب الله عز وجل أن يتطلع المسلمون إلى فضله وإحسانه، فلذا بينت الآية حقيقة وهي أن المسلمين يحبون النصر الذي يدل على أن الله عز وجل ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، بلحاظ كبرى كلية وهي دلالة إصابة المؤمنين بالبأساء والضراء على ضعفهم وإستضعاف الذين كفروا لهم .

فسأل الرسول والمؤمنون النصر ليكون معجزة حسية من عندالله، وفي التنزيل ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[2].

السابع : متى نصر الله فيهتدي الناس، ويزاح سلطان الكفر.

الثامن : متى نصر الله، ويعلم الناس البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) سورة البقرة ٢٠.

(٢) سورة البروج ١٢.

إكرام الآية للمسلمين

لقد أنعم الله عز وجل بآية البحث وتفضله بتوجيه الخطاب لهم، وصيرورة الحديث عن الجنة ودخولهم لها.

وقد أمر الله عز وجل المسلمين بالسعي الدؤوب إلى البث الدائم في الجنة، قال سبحانه ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وتدل الآية بالدلالة التضمنية على حب وشوق المسلمين للدخول في الجنة بلطف وفضل من عند الله، لذا تفضل سبحانه وذكر لهم المشاق والمحن التي نزلت بالمؤمنين من قبل من غير أن يقود للمسلمين ستنزل بكم ذات المحن، وهو من البشارات بمحو الضرر عن المسلمين، لذا قال سبحانه ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾(٢).

وتخفيف ضروب العذاب هذا من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٣).

وقد كان المسلمون يتنافسون ويتسابقون في ميادين الدفاع، ويتشوقون لمجئ الذين كفروا طلباً للشهادة، ولكن لم يخرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون في طلبهم، قال

(١) سورة آل عمران ١٣٣.
(٢) سورة آل عمران ١١١.
(٣) سورة آل عمران ١١٠.

تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(١).

ومن الإعجاز في آية البحث تكرر لفظ (نصر الله)مرتين في خاتمتها لتأكيد زوال حال البأس والضراء عن المؤمنين ونسخها بالنصر والغلبة للمؤمنين .

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالحرف (أم) للإضراب والإخبار بأن المسلمين يدخلون الجنة عندما تأتيهم وتنزل من عند الله قصص عن المؤمنين الذين من قبلهم فيقتدون بهم .

والمراد من ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي سنن الذين خلوا، وهل يمكن أن يكون المراد المثلية وأن طائفة من المسلمين يلقون ما لاقاه المؤمنون في الأمم السابقة .

الجواب نعم، لبيان أن طائفة من المسلمين تتلقى الأذى فيتألم لهم سائر المسلمين ، ويكون تقدير الآية : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يحل بكم مثل الذي حلّ بالذين خلوا).

وتبين الآية وحدة سنخية الإيمان في الأزمنة المتعاقبة وكيف أن الله عز وجل أنعم على المسلمين وجعلهم آخر وأحسن الأمم، لينهلوا من قصص الأنبياء وجاد المؤمنين من الأمم السابقة المواعظ قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾(٢)، ومن بين ما لاقاه المؤمنون أمور :

(١) سورة آل عمران ١٤٣.

(٢) سورة التوبة ١٦.

الأول : البأساء وهي الفتن والبلايا والعوز والفقر وتلقي الأذى من الذين كفروا.

الثاني : الضراء والسقم في الأبدان.

الثالث : الزلزلة والإضطراب والوجل والخشية من المجهول، وإرادة الشك الدبيب إلى نفوسهم ومنتدياتهم، قال تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[1] .

وتقدير آية البحث على وجوه:

الأول : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما تمسكم البأساء.

الثاني : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما تصبكم الضراء.

الثالث : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما تنزل بكم الضراء، وهل يصح تقدير الآية: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يقول الرسول محمد وتقولون متى نصر الله) .

الجواب لا دليل على هذا المعنى من جهات:

الأولى : بيان نعمة الله عز وجل بالتخفيف عن المسلمين، وذا التخفيف من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

الثانية : من دلالات الآية دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل فقد جاءهم نصر الله عز وجل وهم في حال الضعف ومن غير إبطاء عنهم، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[3].

---

(١) سورة الزلزلة ١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة آل عمران ١٢٣.

الثالثة : مجيء آيات القرآن بحث المسلمين على الصبر والتحمل والعصمة من الوهن والجبن والخور، قال تعالى﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾(١).

الرابعة : لقد قال الذين آمنوا (متى نصر الله) على سبيل الإستبطاء، وقد تفضل الله عز وجل على المسلمين بالنصر العاجل ولم يرد لفظ (متى نصر الله) إلا في هذه الآية، أي لم يأت ذات القول على لسان المسلمين، وفي قوله تعالى﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٢)، وجوه:

الأول : في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول ألا إن نصر الله قريب) عن ابن عطية.

الثاني : في الآية لف ونشر أي قدم الله عز وجل في الآية ذكر الرسول، لأنه أعلى مرتبة وشأناً من الذين آمنوا بنبوته، ثم قدم قول الذين آمنوا وذكر قول الرسول خاصة وأن النبي يسأل الله تعجيل النصر .

الثالث : ليس من تقديم وتأخير وأن الواو في(والذين معه) عاطفة وجاء الجواب من عند الله عز وجل﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٩.

(٢) سورة ٢١٤.

وتدل الآية على الوثوق من النصر إنما كانوا يتطلعون إلى أوانه ويرجون قربه ، والمختار هو الوجه الثالث إذ ورد قولهم على سبيل الرجاء والدعاء، وأن صدوره من منازل الإستبطاء لا يضر الدعاء، وأختلف في المراد من الرسول في الآية على وجوه:

الأول : إرادة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : إرادة النبي شعياء.

الثالث : المراد كل رسول بعث إلى أمته.

والمختار إرادة المتعدد من الأنبياء السابقين، وهو من مصاديق قوله تعالى﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]، ولبيان أن ما لاقوه من الأذى وقولهم متى نصر الله لم يضر بثباتهم في مقامات الإيمان.

وعن قتادة نزلت هذه الآية يوم الأحزاب عندما إشتد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الحصار، وأصابهم البلاء ولا ملازمة بين أوان النزول وإرادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في الآية، إنما وردت على سبيل المثال لبعث المسلمين على الصبر والتحمل.

وورد لفظ(نصر الله) أربع مرات في القرآن، مرتين منها في هذه الآية، وقد أنعم الله عز وجل على المسلمين وبشرهم بالنصر القريب المقترن بالفتح بقوله تعالى﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[2]، لبيان أن الله عز وجل يعطي بالأتم والأوفى، ولبعث السكينة في نفوس المسلمين بأنه ليس من بعد النصر تكرار للمعارك وحدوث

(١) سورة آل عمران ١٤٦.

(٢) سورة النصر ١.

للهزيم، لذا يمكن إستقراء نصر الله في معركة حنين من آية النصر وما فيها من البشارة .

وإذ إبتدأت الآية بلغة المثل فأنها أختتمت بقانون هو(أن نصر الله قريب).

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : إكرام آية البحث للمسلمين، وبيان أنهم يريدون دخول الجنة والذي يدل بالدلالة التضمنية على إقرارهم باليوم الآخر.

الثانية : بيان الآية لعدم وجود حاجب وبرزخ دون دخول المسلمين الذين يعملون الصالحات الجنة، وهو من مصاديق قوله تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، بتقريب أن المسلمين خير أمة لأنهم يسعون لدخول الجنة وأنها قريبة منهم بفضل من الله عز وجل.

الثالثة : بيان الأخوة الإيمانية بين المؤمنين من الأمم المتعاقبة، ليكون من عمومات قوله تعالى﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2].

الرابعة : الإخبار السماوي عن أحوال المؤمنين من الأمم السابقة وما تحملوه من الأذى الشديد من الذين كفروا وتحليهم بالصبر.

الخامسة : بيان كثرة البلاء والمصائب التي حلت بالمؤمنين من الأمم السابقة.

---

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة الحجرات ١٠.

السادسة : إخبار الآية عن قانون وهو عصمة الرسول والذين آمنوا معه من اليأس والقنوط ولم يترك النبي تبليغ رسالته، ولم يرتد الذين آمنوا عن الإسلام، ولقد إستعمل كفار قريش أشد أنواع التعذيب مع المسلمين الأوائل في مكة ، حتى قتل بعضهم مثل ياسر وسمية والدي عمار.

وتحمل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الأذى منهم، كما حاصروا أهل البيت، ووجهوا الإنذارات لأبي طالب بأن يتخلى عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن يخلي بينه وبينهم، لأنه سبّ آلهتهم، وسفّه أحلامهم بعبادتهم الأصنام، وعرضوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأموال والذهب والفضة والنساء ليتزوجهن.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله الخالد: وَاَللّه لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ)[1].

السابعة : دعوة المسلمين للجوء إلى الدعاء والتضرع رجاء الفرج وقرب النصر.

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾

في الآية وجوه :

الأول : الهداية فضل ونعمة وهي على مراتب في السمو والرفعة فجاءت هذه الآية للإرتقاء بها عند كل مسلم ولتؤهله لدخول الجنة وبلوغ مراتب الكمال.

الثاني : تدل الآية على توالي نزول الآيات وان القرآن فيه

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٦/١.

اخبار الأمم السالفة وكيف استحق المؤمنون الجنة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[1].

الثالث : الإخبار بان سنن الله عز وجل ثابتة وجارية في الخلق، والقوانين التي تحكم الأعمال العبادية واحدة في الجملة لأن قوامها التوحيد.

الرابع : تحث الآية على العبادة بالمعنى الأعم والأخص، بما يشترط فيه قصد القربة مما هو واجب وبغيره.

الخامس : تحذر الآية من الإتكاء على الهداية وحدها لأن التكليف سنة الله في الناس، وهومن اسرار فلسفة الخلافة في الأرض.

السادس : تنفي الآية حتمية دخول الجنة بالإنتماء العقائدي، ودخول الإسلام وحده وعلى نحو الأسمية فقط، فلابد من عمل وفعل جهادي يستحق به المسلم الجنة.

السابع : تدعو الآية الى تأسيس علمين متقاربين.

الأول: اختيار طريق الجنة واحكامه وشرائطه وواجباته.

الثاني: تأريخ اهل الإيمان في الأمم السالفة وكيفية استحقاقهم لدخول الجنة.

الثامن : تدل الآية على موضوعية العمل في الثواب والعقاب وان الإنسان ليس مجبوراً في افعاله كما ان الهداية الإلهية للمسلم تنفي التفويض التام له لأفعاله ، قال تعالى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا

(١) سورة يوسف ٣.

﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1].

تفسير قوله تعالى ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾

تفيد الآية عدة معان:

الأول : يتفضل الله عليكم بمثل الملل من قبلكم.

الثاني : انكم تحتاجون الرجوع الى دراسة سيرة المؤمنين في الأمم السالفة لتتخذوها عبرة وموعظة وطريقاً مباركاً.

الثالث : أي يحل بكم ما حل باهل الكتاب واتباع الأنبياء من الشدائد والبلوى.

الرابع : التوطئة والإستعداد لما سيأتي من البلاء ، فالآية تخبر بتجدد ما حصل للمؤمنين من الأمم السالفة .

وعن جابر بن سليم قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض طرق المدينة قلت : عليك السلام يا رسول الله ، فقال : عليك السلام تحية الميت، سلام عليكم ، سلام عليكم ، سلام عليكم، أي هكذا فقل. قال فسألته عن الإزار؟ فأقنع ظهره وأخذ بمعظم ساقه فقال: ههنا ائتزر ، فإن أبيت فههنا أسفل من ذلك ، فإن أبيت فههنا فوق الكعبين ، فإن أبيت فإن الله لا يحب كل مختال فخور. فسألته عن المعروف،

فقال : لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق ، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض . وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك وأنت تعلم فيه نحوه فلا تسبه فيكون أجره لك ووزره عليه،

(١) سورة الإنسان ٣.

وما سَرَّ أذنك أن تسمعه فاعمل به ، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه)[1].

تفسير قوله تعالى ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾

في الآية وجوه :

الأول : البأساء نقيض النعماء، والضراء نقيض السراء وهناك اقوال اخرى.

الثاني : في الآية مدح للأنبياء واتباعهم من الأمم السالفة.

الثالث : الآية توثيق قرآني تفصيلي لشدة ما لاقاه اتباع الأنبياء من الأذى والعناء وصبرهم على الشقاء والإبتلاء في البدن والجوع والفقر والإخراج من الأهل والديار.

الرابع : لقد انعم الله عز وجل على المسلمين وجعلهم اهل الديانة الباقية الى يوم القيامة وفضلهم وشرفهم بالإسلام وهل تكون مراتب البلاء التي يتعرضون لها اشد واكبر مما تلقاه من قبلنا.

الجواب لا ملازمة بين مراتب التفضيل والتشريف ودرجات الإبتلاء خصوصاً وان لكل باب من البأساء والضراء مراتب ودرجات.

الخامس : ليس في الآية ما يدل على حتمية ابتلاء المسلمين وحصول الشبه والتوافق والتماثل بينهم وبين المؤمنين من الأمم السابقة، فالقدر المتيقن من الآية العلم والمعرفة والإستعداد، نعم الواقع يؤكد حصول هذا الإبتلاء النوعي والغالب خصوصاً في بدايات الدعوة ولكنه ليس مطلقاً وشاملاً لجميع المسلمين في كل زمان ومكان.

---

(١) الدر المنثور ١٢١/٣.

السادس : يدل ظاهر الآية على حصول الثواب للمسلم بمجرد الإستعداد لتلقي البلاء والصبر على الإسلام وما يحتمل ان يلاقيه من الكفار.

السابع : الآية حرز وواقية وفيها عز وقوة للمسلمين.

الثامن : تبعث الآية في مفهومها الرعب والفزع والخوف في قلوب المشركين.

التاسع : تصلح الآية نفسها ان تكون حاجزاً ومانعاً من البأساء والضراء من وجوه:

الأول: الإرتقاء العقائدي وقوة العزيمة في نفوس المسلمين ، قال تعالى﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ﴾(١).

الثاني: الحذر والحيطة والإستعداد لدفع البلاء ، واجتنابه والتعاون من اجل رفعه في حال حصوله، قال تعالى﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(٢).

الثالث: مباغتة الكفار ، ومنعهم من ايذاء المسلمين.

الرابع: خشية الكفار من المسلمين ما داموا مستعدين للمواجهة.

العاشر : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان فليس المؤمنون وحدهم الذين يتعرضون للبأساء والضراء ، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾(٣).

(١) سورة آل عمران ١٣٩.

(٢) سورة المائدة ٢.

(٣) سورة الاعراف ٩٤.

الحادي عشر : مع وحدة الموضوع والإلتقاء في التعرض للإبتلاء فهناك تباين في مناسبة الحكم والعواقب، فالمؤمن يثاب ويؤجر على كل ما يتلقاه من الإبتلاء وما يصبر عليه من الشدائد في ذات الله، والكافر يؤثم وينتظره العقاب الأخروي.

الثاني عشر : ظاهر الآية الإخبار عن وقائع مؤلمة ولكنها تدل بالدلالة التضمنية على البشارة والرحمة واللطف الإلهي، والإخبار عن السعادة الأخروية التي فاز بها الأنبياء واتباعهم من الصالحين .

الثالث عشر : الآية مدرسة في لزوم الجهاد والسعي الدؤوب لتحقيق النصر والظفر وظهور الإسلام.

الرابع عشر : في الآية مواساة لما يخسره المسلمون وتعرض بعضهم للقتل والشهادة.

الخامس عشر : تدعو الآية لإستحضار الصبر وجعله سلاحاً ملازماً للمسلم في حال الشدة والرخاء فما دام الإنسان يخاف من مستقبل الأيام وما تضمره في ثناياها من الآلام المفزعة فانه ينشغل بنفسه ويجتهد بالعبادة ويتجنب اسباب الظلم والتعدي.

السادس عشر : الآية دعوة للدعاء لصرف البلاء والأذى في النفس والبدن والمال خصوصاً وانها لم تقطع بحصول البلاء ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[1].

وهل تدل الآية بالقطع والحتم باصابة المسلمين بذات ضروب البلاء التي أصابت المؤمنين من الأمم السابقة كي يدخل المسلمون الجنة، الجواب لا، إنما أفادت الآية البيان ليتحلى المسلمون بالصبر، ويبذلوا الوسع في الجهاد، ويخوضوا غمار الدفاع عن

---

(1) سورة الرعد ٣٩.

سنن التوحيد في معارك الإسلام الأولى بدر، وأحد، والخندق، وحنين، قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١)، فمن أعظم مصاديق الفلاح دخول الجنة، ويعني هذا الدخول اللبث الدائم فيها ، وجاء القرآن بالبشارة للمؤمنين به.

وهل يجوز أن يختار المسلمون الدعاء لصرف البلاء عنهم ومحو ذات الضرر والأذى الذي لاقاه المؤمنون من الأمم السابقة الجواب نعم، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢).

ومن إعجاز الآية أنها تدل على هذا المعنى وإرادة الدعاء بقوله تعالى ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٣).

وقد ورد عن خَبَّاب بن الأرَتّ قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: "إنّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفْرَق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يَصْرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه".

ثم قال: "والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه،

---

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٢) سورة غافر ٦٠.

(٣) سورة البقرة ٢١٤.

ولكنكم قوم تستعجلون"[١].

وإذ وصفت الآية ما لاقاه المؤمنون من الأمم الأخرى بقوله تعالى﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي حُركوا عن مواطن الثبات بالبلاء الدفعي الشديد فقد ورد أن المسلمين أصيبوا بذات البلاء وبكيفية أشد وأمر، قال تعالى بخصوص في معركة أحد﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٢].

بحث بلاغي

في الآية استعارة محسوس لمعقول، أي ان القرآن يلبس المدركات العقلية لباس المحسوسات لتقريب المعنى للأذهان، فالمس يحصل بالأجسام، والعناء والشدة والبلاء امور عقلية ولكن مضامين الآية لا تنحصر بالإستعارة بل تحمل على الحقيقة ايضاً لما في بعض وجوه البلاء من الحس الظاهر، كما انه يفيد معنى المقاربة والإشراف .

فمن اعجاز القرآن ان الإستعارة فيه لا تلغي المعنى المعروف والجلي للكلمة ليكون المس نوع انذار ومناسبة للدعاء وتنبيهاً على فضل الله تعالى في محو البلاء وصرفه.

وليكون قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "بعثت بجوامع الكلم"[٣]، تفسيراً وتوكيداً للمعاني المتكثرة للآية القرآنية والدروس الأخلاقية والعبادية والعقلية المستقرأة من الآية الكريمة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٧١/١.

(٢) سورة الأحزاب ١١.

(٣) مسند أحمد ٣١٠/١٥.

تفسير قوله تعالى ﴿وَزُلْزِلُوا﴾

في الآية وجوه :

الأول : أي تأثروا من وقع البلايا والمصائب، واصل الزلزلة من أزال الشيء عن مكانه، لقد اضطرب المؤمنون من الأمم السالفة ودبّ الخوف والجزع الى قلوبهم.

الثاني : في الآية تنبيه ودعوة لطرد الجزع وحالات انعدام الصبر.

الثالث : ليس في الآية ذم ولكنها تبين شدة مراتب البأساء والضراء التي تعرض لها المؤمنون من الملل السابقة.

الرابع : تدل الآية على حصول تغيير وانكسار وضرر ظاهر على الأشخاص والجماعات من اتباع الأنبياء بسبب شدة البلاء ، قال تعالى ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾(١).

الخامس : بما ان قصص الأمم السالفة عبرة وموعظة وتذكرة، فالآية دعوة للمسلمين لأخذ الحيطة ، وعدم الفزع والجزع مما يواجهون ، قال تعالى ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾(٢).

السادس : في الآية تنبيه ودعوة لطرد الشك والريب، فالذي يتعرض للإبتلاء لا يطرأ عليه الشك ويقول لو كنا على الحق لما تعرضنا للبلاء بعد تيقنه ان الإبتلاء والأذى جزء من الإختبار وطريق للثواب ووجه من سنن الله عز وجل في الخلق.

السابع : الآية تأديب للمسلمين بالإعتبار والإتعاظ من الأمم

(١) سورة العنكبوت ٢.

(٢) سورة النساء ٧١.

السالفة، ولما كان المسلمون ورثة الأنبياء والشرائع السابقة كما انهم اصحاب الشريعة الناسخة المتكاملة في العبادات والمعاملات والأحكام .

فمن باب الأولوية ان يكون الذي يتعرضون له اشد واكبر مما تعرض له الموحدون من الملل السابقة بمعنى ان يستعدوا له والله رؤوف رحيم إلا أن يشاء الله بالتخفيف عنهم ، وفي التنزيل ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1].

تفسير قوله تعالى ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾

في الآية وجوه :

الأول : تخبر الآية عن بقاء الرسول واتباعه من المؤمنين ثابتين على الإيمان مع الإصابة بالبأساء والضراء.

الثاني : تحث الآية المؤمنين على الإقتداء بالأنبياء في الصبر والتحمل في اشد حالات الأذى والإبتلاء.

الثالث : الآية دعوة للتوجه الى الباري عز وجل وسؤال كشف الغمة حين نزول البلاء والشدة مع الإستعانة بالصبر، عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نلقى من المشركين .

فقال : إن من كان قبلكم من الأمم كانوا يعذبون بأنواع البلاء فلم يصرفهم ذلك عن دينهم ، حتى إن الرجل يوضع على رأسه المنشار فيشق فلقتين ، ويمشط الرجل بأمشاط الحديد فيما دون العظم من لحم

---

(١) سورة الرعد ٣٩.

وعصب وما يصرفه ذلك عن دينه .

وايم الله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون[1].

الرابع : ظاهر قول النبي والذين آمنوا معه يدل على سبيل الإنتظار الذي يدل بالدلالة التضمنية على الوثوق بحصول الفتح والفرج والنصر وليس على سبيل الإستبعاد او استبطاء الفتح.

الخامس : معنى الآية الدعاء والرجاء، نعم فيها توسل بتقريب النصر وكأن بينه وبين الصبر على البلاء ملازمة.

السادس : يتطلع المؤمنون الى وعد الله تعالى مع علمهم بانه لا يؤخر امراً الا لحكمة و ومن أسماء الله الحكيم .

السابع : قيل انه ذكر كلام الرسول والمؤمنين جملة وتفصيلاً وقال المؤمنون : متى نصر الله ، فقال الرسول: الا ان نصر الله قريب ، ذكره الطبرسي والرازي ، واستشهد كل منهما بقوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2] .

أي وفق الإصطلاح البلاغي اللف والنشر ولعله مع الفارق لأن الموضوع له قرائن تساعد على تفكيكه وهي ظاهرة، بل من الإعجاز ان يأتي الموضوع متداخلاً بين الليل والنهار وكأن فيها اشارة الى هذا الزمان من العمل في الليل، واكثار الناس من القيلولة عرفاً واتساعاً وعادة .

فالأقوى ان الآية تحمل على ظاهرها وهو ان القول واحد

---

(١) تفسير الرازي ٢٥٤/٣.

(٢) سورة القصص ٧٣.

يشترك به النبي والذين آمنوا معه وان كان على مراتب وهو لا يتعارض مع عصمة الأنبياء لحمله على الوجوه الجائزة شرعاً واللائقة بمقام النبوة ضمن حالات الإبتلاء الشديد.

الثامن : في الآية دعوة للجوء الى الله عز وجل والإستجارة به عند الشدائد والتطلع الى الفرج والنصر من عنده.

التاسع : تبين الآية عظيم منزلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وافضليته على الأنبياء من قبله وافضلية المسلمين على غيرهم من اتباع الأنبياء فلقد اوذي النبي بما لم يؤذى نبي غيره مثله.

تفسير قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

في الآية وجوه :

الأول : الا: حرف استفتاح ويأتي بعدها أمر او نهي او اخبار، وقد تأتي (الا) للتوبيخ والتقريع، وقد جاءت في هذه الآية للاخبار والتنبيه والتوكيد، كما انها تدل على التوبيخ والتقريع للكافرين .

فمن اعجاز الآية انها تضمنت عدة معان في آن واحد.

الثاني : وتحتمل الآية من جهة الصدور معنيين:

الأول: انه جواب من عنده تعالى تقوية لنفوس المؤمنين واعانهم على الصبر والتحمل.

الثاني: ان الكلام من الرسول وخاصة اصحابه في اجابة من قال ﴿ متى نصر الله ﴾ كما تقدم، والأقوى هو الأول لبيان استجابته تعالى للمؤمنين وقربه منهم وتفضله بانزال النصر حال الشدة، لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: "ضيقي تنفرجي".

الثالث : الآية قاعدة كلية جاءت في خاتمة الآية فيجب ان لا يقف علم التفسير عند مناقشة الوجهين المحتملين للآية، فما هو اعظم البشارة في الآية للمسلمين، فحينما تقرأ هذا الشطر من الآية ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ فان نفوس المؤمنين تمتلأ غبطة وسعادة وتتطلع الى غد مشرق ومستقبل يسود الإيمان والعدل فيه ربوع الارض مع الإندفاع الى السعي والإجتهاد وتحمل اشد اصناف الأذى والإبتلاء انتظاراً ليوم النصر الذي يخبر الله عز وجل بانه قريب، وفعلاً فان الوقائع تسارعت وحالما تم الفتح وتعددت الكتائب اخذت وفود القبائل تترى الى المدينة المنورة لإعلان انخراطها وإنتماءها إلى الدين الحق ونزل قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾(1).

الرابع : من وجوه تأويل الآية ان نصر الله هو الإسلام فهو البشارة والظفر الذي اعده للمؤمنين، والقرآن يؤكد بنزوله قربه وتحققه.

الخامس : بالإسلام حصل الأمان والعز للمؤمنين وفضح الله تعالى اهل التحريف والجحود والعناد واستطاع المؤمنون ان يؤدوا فرائضهم من غير خوف او وجل، وبالفتح زال الأذى والإبتلاء، وهذا التأويل لا يتعارض مع سياق الآية لإعتبار ان البأساء والضراء مستغرقة للمؤمنين في كل زمان الا ان الإسلام ابتدأ بمعاناة المسلمين وتلقي الأذى ولكنهم سرعان ما اقتطفوا ثمار النصر والظفر.

---

(1) سورة النصر ١ – ٢.

السادس : تحث الآية المسلمين على تحدي الأعداء الظالمين وعدم اليأس والقنوط بسبب الآلام التي يلاقونها في سبيل الله لأن الله عز وجل وعد المؤمنين بالنصر وتفضل بالإخبار بانه قريب ، وجاء نصر الإسلام جلياً في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

وفي الآية اعجاز وهو التوكيد السماوي بالنصر وبانه قريب الوقوع فعلاً، رحمة من عند الله ، وجزاء عاجلاً للمسلمين ، ووعد الله سبحانه حق ومصاديقه ظاهرة وتدرك بالحواس والوجدان والعقل في كل زمان ، وتجلى في السنوات الأولى للإسلام .

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

قولــه تعــالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ **الآية ٢١٥.**

الإعراب واللغة

يسألونك: يسألون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون .

الواو : فاعل .

الكاف : ضمير في محل نصب مفعول به .

ماذا: اسم إستفهام في محل نصب مفعول به مقدم لينفقون ومنهم يعربه على نحو التفصيل .

ما : اسم إستفهام .

ذا: اسم موصول مبني في محل رفع خبر .

ينفقون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة .

الواو : فاعل .

قل : فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ، والمقصود النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلحق به أجيال المسلمين إلى يوم القيامة ، وتقدير الآية (قولوا) مع الفارق الرتبي في جواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كرسول وان قوله حكم ، ولا تعارض بين صدور السؤال من عامة المسلمين وجواب العلماء لهم وإن كانت آية البحث تدل على حضور جواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم لعامة وعلماء المسلمين في كل زمان

، وهو من الإعجاز في بقاء الآية القرآنية غضة طرية ، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [1].

ما انفقتم: ما: شرطية في محل نصب مفعول به مقدم لأنفقتم.

أنفقتم: فعل ماض مبني على السكون والتاء فاعل والميم جمع الذكور .

من خير : جار ومجرور في محل جزم فعل الشرط، وفاعل الجملة مقول القول.

فللوالدين: الفاء رابطة لجواب الشرط للوالدين جار ومجرور، والجملة الإسمية في محل جزم جواب الشرط، والتقدير: فهو للوالدين .

والأقربين : الواو حرف عطف ، الأقربين معطوف على الوالدين مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم .

اليتامى : معطوف على الوالدين مجرور بالكسرة المقدرة على الألف.

المساكين : اسم مجرور بالكسرة الظاهرة تحت آخره .

ابن : معطوف على الوالدين مجرور بالكسرة الظاهرة تحت آخره وهو مضاف .

السبيل : مضاف إليه مجرور وعلامه جره الكسرة الظاهرة تحت آخره.

وما تفعلوا : الواو حرف عطف .

ما تفعلوا من خير : مثل إعراب ما أنفقتم من خير .

فان الله : الفاء رابطة لجواب الشرط .

إن : حرف شبه بالفعل .

---

(1) سورة الأنعام ٧١.

الله : اسم الجلالة .

به عليم : به : الباء حرف جر.

الهاء : ضمير في محل جر .

العليم : خبر إن مرفوع وعلامة رفعة الضمة الظاهرة على آخره .

ونفق المال أي فنى وذهب، وانفق الرجل: اذا افتقر.

وأنفق المال : صرفه، وهو المراد في المقام.

في سياق الآيات

بعد ان بينت الآية السابقة ما يعانيه المؤمنون ، وما ينتظرهم من البلاء والشدة ولزوم الصبر،جاءت هذه الآية متعلقة بالانفاق والحث عليه وبيان كيفيته، وفي نظم وسياق الآيات اعجاز فبعد الحث على الصبر في مواطن الجزع والخوف جاءت هذه الآية لتدعو الى الانفاق مما يدل على حتمية حصول النصر واجتناب ودرء الهزيمة .

ولم تنته أيام شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة حتى وقعت معركة بدر فكان النصر فيها حليف المسلمين، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1] .

لتؤكد الآية أعلاه نصر المسلمين يوم معركة أحد من باب الأولوية القطعية بلحاظ أنهم إنتصروا في بدر وهم أذلة، وقاتلوا في أحد وهم أغنياء وعندهم متعة وقوة.

ان سؤال المسلمين عن الانفاق يدل بالدلالة الإلتزامية على ثبوت النصر وتحقق الظفر على الاعداء.

والنِّفاق. ونفِق القميص، مهموز مكسور الفاء، فارسي

---

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

معرّب، مثل زِئبِر. والنَّفيق: موضع. ونَفِقَ الطعامُ نِفاقاً فهو نافق، إذا نَفِدَ، وقد قالوا: نَفَقَ.

والنِّفاق: ضد الكساد؛ نَفَقَ ينفُق فهو نافق.

وقالوا: نَفَقَ الدابّةُ، إذا مات. قال أبو بكر: وليس كل أهل اللغة صحّح هذه اللفظة. وأنفقَ مالَه إنفاقاً، إذا أتلفه[1].

واليتامى : جمع يتيم وهو الذي مات أبوه إذ أن اليتيم في الناس من جهة الأب، وفي البهائم من جهة الأم، وهو من ضروب إكرم الله عز وجل للناس، والتباين بينهم وبين عالم الحيوان، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2]، ويقال : أيْتَمَتِ المَرأةُ فهي موتِمٌ، أي صار أولادها أيْتاماً[3]. وقيل كل شئ منفرد وليس له نظير فهو يتيم.

صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيه وجوه منها :

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا...﴾[4]، وفيه مسائل :

الأولى : توجه الخطاب في الآية السابقة إلى المسلمين والمسلمات على نحو السؤال الإنكاري، وتوجه الخطاب والأمر في آية البحث إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : يتعلق موضوع الآية السابقة بالجنة والدخول إليها أما

---

(١) جمهرة اللغة ٤٤/٢.

(٢) سورة الأسراء ٧٠.

(٣) الصحاح في اللغة ٢٩٨/٢.

(٤) سورة البقرة ٢١٤.

آية البحث فتذكر مسألة الإنفاق وصفة الذين يستحقونه، ليفيد الجمع بين الآيتين قانوناً، وهو أن الإنفاق في سبيل الله طريق إلى الجنة، وجاءت آية البحث للهداية إلى الأصناف ذوات الأولوية في الإنفاق عليهم، قال تعالى ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾(١).

الثالثة : ذكرت آية البحث حال البأساء والضراء والشدة والضيق التي تعرض لها المسلمون من الأمم السالفة وأخبرت أنه طريق الجنة والهدى، لتنمية ملكة الصبر عند المسلمين ثم جاءت آية البحث لتتضمن الندب إلى الإنفاق مما يدل على فوز المسلمين بالتخفيف من عند الله عز وجل، لأن مجئ المسلمين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وسؤاله عن كيفية الإنفاق والبدل ، ويدل على أمور :

الأول : صدور المسلمين عن القرآن والسنة .

الثاني : رجوع المسلمين إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المعاملات كرجوعهم له في العبادات ، وعن مالك بن الحويرث قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة فظن أنا قد اشتقنا إلى أهلينا سألنا عمن تركنا في أهلنا فأخبرناه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رحيما رفيقا فقال : ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكبركم(٢).

الثالث : لقد كان الأنبياء وأتباعهم يلقون أشد الأذى من الذين كفروا ويتطلعون الى نصر الله عز وجل، فتفضل سبحانه

(١) سورة الأنفال ٧٥.

(٢) صحيح ابن حبان ٢٤٥/٩.

ونصرهم بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته، ونصر النبي محمداً وأمته في معركة بدر وأحد والخندق وغيرها،

ليكون من وجوه نصر الله في قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1]، أي بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا المعنى لا يتعارض مع نزول النصر للمسلمين من الأمم السالفة، ولقد لاقى بنو إسرائيل مثلاً أشد صنوف العذاب من فرعون وقومه حتى جاء نصر الله بالنجاة منه، فسار بهم موسى عليه السلام ليلاً ولكن فرعون وجنوده أُروا على اللحاق بهم فاغرقهم الله في البحر الأحمر، بينما بنو إسرائيل ينظرون إليهم قال تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾[2].

لقد جعل فرعون بني إسرائيل خدماً وعمالاً وصناعاً، ويقومون بحراثة الأرض وزراعتها، ومن لم يحمل منهم يفرض عليه الجزية وقال وهب : كانوا أصنافا في أعمال فرعون، فذوو القوة ينحتون السواري من الجبال حتى قرحت أعناقهم وأيديهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفة ينقلون الحجارة، وطائفة يبنون له القصور، وطائفة منهم يضربون اللبن ويطبخون الآجر، وطائفة نجارون وحدادون، والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج ضريبة يؤدونها كل يوم .

فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته غلت يمينه

---

(١) سورة البقرة ٢١٤.

(٢) سورة البقرة ٤٩-٥٠.

إلى عنقه شهرا، والنساء يغزلن الكتان وينسجن[١].

ولم يسلم فرعون من الأذى، إذ رأى رؤيا هالته، وجعلته في فزع، رأى في منامه كأن ناراً عظيمة أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وكان فيها الأقباط وبنو إسرائيل، فجاءت النار على الأقباط وأحرقتهم، ولم تمس بني إسرائيل، مما يدل على أن هذه النار لها عقل وتميز وأنها تأتي عن أمر .

وقد كان قبل رؤيا فرعون هذه، ما لاقاه نمروذ وقومه في الحقيقة وليس المنام، إذ جمعوا الحطب وأشعلوا النيران ، وإبراهيم وسطها فلم تمسه بأذى قال تعالى﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٢].

لقد بادر فرعون، وجمع الكهنة والمعبرين للرؤيا إذ كانوا يقيمون على بابه وأبواب الوزراء لعل أحدهم يرى رؤيا ويعبرونها له وينالون عنده الحظوة أو يجزل لهم العطاء[٣].

فسألهم عن تأويل رؤياه، فقالوا : يولد في بني إسرائيل غلام يكون زوال ملكك على يده، وهل تعمدوا في تأويلهم تحريف فرعون للإنتقام من بني إسرائيل أم أنهم قاموا بالتأويل على نحو صدق المهنة والحرفة .

الجواب هو الثاني خاصة وإن الوقائع أكدت صحة تأويلهم، وهل يؤثمون على هذا التأويل ، الجواب نعم فهو من الظلم والإعانة عليه.

وإن كانت الرؤيا لا تدل على نحو الدلالة المطابقية على ما

(١) تفسير البغوي ٩١/١.
(٢) سورة الأنبياء ٧٩.
(٣) أنظر كتابنا الموسوم علم الرؤيا وتأويلها في الإسلام.

ذهبوا اليه، لأن النار جاءت من بيت المقدس، ويحتمل التأويل أن جيشاً عظيماً يأتي من جهة بيت المقدس ليغزوا مصر ، وجاء القرآن بالبشارة للمسلمين أهل مصر بقوله تعالى﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[1].

ولو آمن فرعون لما هلك هو أو قومه، إذ أن الإيمان يمحو البلاء وان قضي ، وفي التنزيل﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[2].

فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، وقام رجاله بجمع القوابل وأبلغوهن بالأمر، وقتل كل مولود ذكر، وترك البنت، وفي كل زمان يتمنى الأبوان أن يرزقا ولداً، ولعل بني إسرائيل تمنوا في تلك الفترة أن يكون المولود بنتاً، ولم يعلموا أن الله إذا قضى أمراً فلابد أن يتمه ولا تقدر الخلائق وإن إجتمعت على منعه.

وقيل أن فرعون (قتل في بني إسرائيل اثنى عشر ألف صبي في طلب موسى. وقال وهب: بلغني أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعين ألف وليد[3].

فاصاب بلاد مصر نقص في اليد العاملة بسبب ذبح الصغار وبلوغ الكبار من بني إسرائيل سن الشيخوخة، ومن الآيات أن الموت والكبر أسرعا فيهم، فقال الملأ من رؤساء قوم فرعون له : إن الموت قد وقع في رجال بني إسرائيل، ونوشك أن نضطر للقيام

---

(١) سورة يوسف ٩٩.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

(٣) تفسير البغوي ٩١/١.

بأعمال الزراعة والحرف والصناعات بأنفسنا .

فأمر فرعون بأن يذبح المواليد الذكور من بني إسرائيل سنة، ويترك الذين يولدون في السنة الثانية وهكذا بالتناوب فولد هارون في السنة التي لا يذبحون فيها أبناء بني إسرائيل، وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها.

لتبدأ قصة نجاته بآية من عند الله، وتكون حضانته في بيت فرعون نفسه ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[1].

لتتضمن آية السياق في مفهومها تذكير المسلمين بنعمة سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من أذى الذين كفروا، نعم قد لاقى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه الأذى من كفار قريش، الذين فرضوا الحصار على بني هاشم في شعب أبي طالب لأكثر من سنتين، ولكن الله عز وجل فتح باب الهجرة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، وجعل لهم مأوى وأنصاراً وأخوة في المدينة.

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[2]، ليسأل كل من المهاجرين والأنصار النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عن كيفية إنفاقهم والذي يدل بالدلالة التضمنية على إقرارهم بوجوب الزكاة والصدقة.

وأختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ لتأكيد إحاطة الله علماً بأفعال الناس، ولكن الآية ذكرت خصوص أفعال الخير للترغيب فيها، وإستحضار ذكر الله عز وجل من

---

(١) سورة الأنفال ٤٢.

(٢) سورة الأنفال ٧٤.

جهات:

الأولى : إيجاد نية فعل الخير .

الثانية : عند العزم على فعل الخير .

الثالثة : إتيان فعل الخير، ومن منافع هذا الذكر وجوه :

الأول : المبادرة إلى فعل الخير .

الثاني : عمل الصالحات على أحسن وجه .

الثالث : القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يفيد إتمام الخير.

الرابع : الشكر لله عز وجل على نعمة التوفيق إلى فعل الخير، قال تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾[1].

وإبتدأت هذه الآية بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (يسألونك) بينما جاءت الآية السابقة خطاباً للمسلمين والمسلمات ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾[2]، وهل هذا الإختلاف في لغة الخطاب من الإلتفات وفق الإصطلاح البلاغي، أم أن القدر المتيقن منه ما كان في آية واحدة .

الجواب أنه يلحق بالإلتفات، والمتكلم هو الله عز وجل في الآيتين إنما الإختلاف في المخاطَب كما يعد من الإلتفات قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [3] ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [4] ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ

(١) سورة البقرة ١٤٨.

(٢) سورة البقرة ٢١٤.

(٣) سورة الفاتحة ٢.

(٤) سورة الفاتحة ٤.

الْمُسْتَقِيمَ﴾(١).

وفي الإلتفات بعث للإنصات للكلام، ومنع من سأم الآذان، واللفت لغة الليّ، يقال لفته يلفته لفتاً، أي صرفه إلى غير جهة.

وقال الزمخشري : وأصل اللفت لي الشئ عن الطريقة المستقيمة(٢).

والإلتفات في الإصطلاح من علم البديع بأن تعدل من الغيبة إلى الخطاب أو من الغيبة إلى المتكلم، أو من الخطاب إلى الغيبة، وورد الإلتفات هنا على نوع آخر بانتقال الخطاب في جهته من المسلمين وتوجهه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع أن كلاً من الآيتين جاءت خطاباً من عند الله عز وجل .

لقد جاءت الآية السابقة على نحو الإستفهام بخصوص دخول المسلمين الجنة، مع بيان ما لاقاه المؤمنون من الأمم السابقة من الأذى في سبيل الله، فقال الله عز وجل ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(٣).

وتبين الآية السابقة للمسلمين حاجتهم إلى السعي إلى الجنة، ومعرفة كيفية الإهتداء إلى السبيل إليها، وقد تفضل الله عز وجل وأنعم على كل مسلم ومسلمة بتلاوة قوله تعالى﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٤)، عدة مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب العيني في الصلاة اليومية ليكون من معانيه بلحاظ الآية (إهدنا الصراط

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) غريب الحديث لابي عبيد ١٢٤/٤.

(٣) سورة البقرة ٢١٤.

(٤) سورة الفاتحة ٦.

المستقيم)لدخول الجنة، لتكون مصاديق هذا الصراط من اللامتناهي، وكل فرد منها مبارك .

فتعقبتها هذه الآية بسؤال المسلمين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ماذا ينفقون ليكون الإنفاق طريقاً إلى الجنة وسبيلاً لصرف البلاء والأذى .

الثاني : صلة هذه الآية بالآية قبل السابقة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾[1] .

وفيها مسائل :

الأولى : إبتدأت آية البحث بالفعل المضارع (يسألونك) للدلالة على تعدد وتجدد هذا السؤال، وهل ينقطع هذا السؤال بانتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى الجواب لا، وهو من إعجاز القرآن الذاتي بأن يأتي الفعل بخصوص النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكن شواهده تتكرر في كل زمان ومكان، وتحتمل هذه الشواهد وجوهاً:

الأول : إرادة توجيه الناس السؤال للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد مماته .

الثاني : المقصود توجه السؤال إلى العلماء المسلمين الأمناء على الشريعة .

الثالث : الرجوع إلى آيات القرآن بعد مغادرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا بلحاظ لأن الله جعل القرآن ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

(١) سورة البقرة ٢١٣.

(٢) سورة النحل ٨٩.

ولا تعارض بين هذه الوجوه فيتلو المسلم آية البحث وفيه توجه السؤال مع مجئ الجواب من عند الله عز وجل، وهو غاية العز، وفيه دليل بأن نزول الجواب من عند الله عز وجل شاهد على بيان موضوعه وحضوره في كل زمان وإبتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[1] .

وفيه بيان وجواب عن أحوال أهل الأرض قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعاقب الأنبياء عليهم ، وفيه ترغيب بالإنفاق في سبيل الله .

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين شكر المسلمين لله عز وجل على أنهم أمة واحدة والجامع بين أفرادها مع كثرتهم هو الإيمان ويدل عليه قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2] ومجئ آيات النداء التي تخاطب المسلمين والمسلمات كلهم بعرض واحد بصفة الإيمان .

الثالثة : بينت آية السياق إختلاف الناس ونزول الكتاب من عند الله للحكم والقضاء بينهم ، وهو من مصاديق رحمة الله بالناس جميعاً ، وليكون هذا الحكم وسيلة للهداية والإيمان .

وتتضمن آية البحث نفي الخلاف بين المسلمين ، إنما ذكرت لجوءهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسؤالهم عن الإنفاق وكيفيته ، وفيه سلامة من الإختلاف بين أجيال المسلمين المتعاقبة في مسألة الإنفاق التي هي خير محض وسبيل لدفع الخصومة والخلاف، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ

---

(١) سورة البقرة ٢١٣.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[1].

إعجاز الآية

موضوع السؤال وحرص المسلمين على الرجوع الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودرجة الارتقاء الفكري والإيماني عندهم بحيث يبادرون الى السؤال عن كيفية الانفاق، وتفضله سبحانه بالاجابة والاستجابة والهداية الى سبل الرشد .

وكأن في الانفاق وجهته صرفاً للباساء والضراء ولو على نحو الموجبة الجزئية، والآية ضابطة كلية لتنظيم الانفاق ومنع الارتباك فيه، ومن اعجازها ان السؤال جاء عما ينفقون، ولكن الجواب السماوي تضمن ذكر مصرف النفقة.

ومن إعجاز الآية ورود السؤال مجملاً ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾وبصيغة المضارع ومجئ الجواب على نحو التفصيل في ذات الموضوع من جهات :

الأولى : الإخبار عن إنفاق المسلمين بصيغة الفعل الماضي ﴿أَنفَقْتُمْ﴾ أي أن المسلمين سألوا عن كيفية وجهة الإنفاق وبادروا إلى البذل والإنفاق ، وليس ثمة فترة بين السؤال والقيام بالإنفاق ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2] .

الثانية : بيان سنخية ما يتم إنفاقه من قبل المسلمين ، وهو الخير بقوله تعالى ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ والمراد المال وما هو أعم منه .

و﴿خَيْرٍ﴾ نكرة في سياق الإثبات لتقييد الإنفاق بأنه الحلال

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

(٢)سورة آل عمران ١١٠.

الطيب سواء من الأعيان أو العروض أو النقد بالدينار الذهبي والدرهم الفضي ، أو بالعملات الورقية .

الثالثة : ذكر الذين يصح الإنفاق عليهم وهم :

الأول والثاني : الأب والأم ، وهل يشمل لفظ الوالدين الأجداد الأربعة أو الثمانية في حال وجودهم ، الجواب نعم ، وفي التنزيل يُسمى أبناء يعقوب إبراهيم أباه مع أنه جده إذ أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم قال تعالى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

كما ورد في الآية أعلاه اسم العم وهو إسماعيل أباً بقوله تعالى ﴿آبَائِكَ﴾ وإرادة الإلحاق والتبعية بأبيه إبراهيم ، فهل يلحق العم بالوالدين في آية البحث والإنفاق عليهم .

الأقوى لا، إنما ذكرت الآية الوالدين على نحو التعيين ، وجعلت موضوعية للولادة ، إنما يكون العم وابن العم بلحاظ آية البحث (من الأقربين) .

الثالث : ذوو القربى والأرحام ، قال تعالى ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ (٢).

ويدخل في الآية أعلاه الوالدان من باب الأولوية القطعية لأنها وردت مجملة .

الرابع : اليتامى الذين لم يبلغوا الحلم ممن فقدوا آباءهم

---

(١)سورة البقرة ١٣٣.

(٢) سورة الأنفال ٧٥.

وأصبحوا بلا معيل يعيلهم ، فيتعاهدهم المسلمون بالصدقة والإحسان بأمر من عند الله عز وجل لتنمية ملكة الإيمان في نفوسهم ، قال تعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1].

الخامس : المساكين الفقراء الذين لا يملكون قوت سنتهم بالفعل أو القوة .

وعن أنس بن مالك قال (كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب .

فلما نزلت ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2]، قال أبو طلحة : يا رسول الله ان الله يقول { لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون } وان أحب أموالي إليّ بيرحاء ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بخ ذاك مال رابح . ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين .

فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله؟ فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه)[3].

(١) سورة النساء ٣٦.

(٢) سورة آل عمران ٩٢.

(٣) الدر المنثور ٣٧٩/٢.

السادس : ابن السبيل الذي إنقطع به السفر ، وليس عنده مؤنة توصله إلى بلده ، وتستحب الصدقة عليه وأن كان ذا سعة في بلده .

وتحتمل الآية وجوهاً :

الأول : إرادة الترتيب بين الذين ذكرتهم الآية الأول فالثاني أي الوالدان ثم الأقربين .

الثاني : كفاية الإنفاق إلى أي جهة من هذه الجهات .

الثالث : التساوي بين هذه الأقسام الستة .

الرابع : إرادة الحاجة وعند التزاحم يقدم ذو الحاجة الأشد .

والصحيح هو الأول ، ويكون الرابع في طوله من غير أن يتعارض معه .

وتجب النفقة على الوالدين وعلى الزوجة (عن جابر: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل: "ابدأ بنفسك فتصدّق عليها، فإن فَضَل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا) [1] .

ويدخل الوالدان في الأهل ، إنما يبين الحديث نكتة وهي جواز إنفاق الإنسان على نفسه بالذات، للتخفيف عن المسلمين، ومنع التشديد على النفس ، وليكون تقدير آية البحث (ما أنفقتم من خير بعد الإنفاق على أنفسكم فللوالدين والأقربين...).

ويمكن تسمية آية البحث(يسألونك ماذا ينفقون)، وقد ورد لفظ(يسألونك) في القرآن خمس عشرة مرة منها قوله

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٨٠/١.

تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[1]، والتي وردت بعد أربع آيات من آية البحث وفق ترتيب آيات سورة البقرة، والنسبة بين الآيتين هي العموم والخصوص من وجه .

فمادة الإلتقاء أمور:

الأول : توثيق القرآن لسؤال المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : مجيء كل من الآيتين بلفظ(يسألونك) وصيغة المضارع.

الثالث : توجه الخطاب في الآيتين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابع : موضوع الآيتين هو الإنفاق.

الخامس : ورود كل من الآيتين في سورة البقرة، إذ ورد فيها لفظ(يسألونك) سبع مرات[2].

ومن الإعجاز أنها محصورة بين نحو أربع وثلاثين آية وورود لفظ(يسألونك) في الآية أعلاه مرتين ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾.

السادس : مجيء كل من الآيتين بالجواب من عند الله كأن آيات السؤال هذه تقول للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنت تُسأل ونحن نجيب، وفيه شاهد على تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونيله المقام السامي، والمرتبة الرفيعة، وبشارة المقام المحمود للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة.

---

(١) سورة البقرة ٢١٩.

(٢) الآيات ١٨٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢.

وورد عن الزهري عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا كان يوم القيامة مدّ الأرض مدّ الأديم العكاظي[١] حتّى لا يكون لبشر من الناس إلاّ موضع قدميه .

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأكون أنا أول من يدعى وجبرئيل عن يمين الرحمن والله ما رآه قبلها،

وأقول: يارب إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليّ فيقول الله تعالى : صدق،

ثمّ أشفع فأقول يارب عبادك عبدوك في أطراف الأرض قال: وهو المقام المحمود .

وروى سفيان عن سلمة بن سهيل عن أبي الزعراء قال : قال عبد الله: يكون أول شافع يوم القيامة روح القدس جبرئيل ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى ثمّ يقوم نبيكم {صلى الله عليه وآله وسلم} رابعاً فلا يشفع أحد بعده فيما يشفع فيه وهو المقام المحمود)[٢].

وأما مادة الإفتراق فتتعلق بموضوع الإنفاق إذ ذكرت آية البحث الهبات والصدقات، أما الآية أعلاه فتتضمن الحث على الصدقة من فضل المال والزائد منه، وقيل هذا قبل نزول فريضة الزكاة .

وعن ابن عباس: أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أُمرنا بها في أموالنا ، فما ننفق منها ؟

---

(١) الأديم العكاظي أي الجلد المدبوغ الذي يباع في سوق عكاظ ويتصف بالمد الشديد والجودة.

(٢) الكشف والبيان ٥٨/٨ .

فأنزل الله {ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو}[١] وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق به ، ولا ما لا يأكل حتى يتصدق عليه)[٢].

ويمكن تسمية هذه الآية آية (يسألونك ماذا ينفقون) وقد ورد هذا اللفظ مرتين في القرآن إذ جاء بعد أربع آيات في قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ...﴾[٣].

فتكرر لفظ(يسألونك) في الآية أعلاه مرتين من مجموع خمس عشرة مرة وروده في القرآن.

الآية سلاح

في الآية دعوة للسؤال والتفقه في الدين، وفيها ارشاد الى الانفاق في سبيل الله واخراج الحقوق الشرعية ودفعها الى مستحقيها، وهي مدرسة مالية في بر الوالدين وصلة الرحم.

تكرر لفظ(من خير) في الآية مرتين وفيه بعث لفعل الصالحات والمسابقة فيها وإتخاذها سبيلاً للعفو والمغفرة.

وتقدير الآية(ما أنفقتم من خير ما عندكم، أو من خير مما رزقناكم) وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أفضل الصدقة ما ترك غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول تقول المرأة : إما أن تطعمني وأما أن تطلقني ، ويقول العبد ، اطعمني واستعملني ، ويقول الابن : اطعمني إلى من

---

(١) سورة البقرة ٢١٩.

(٢) الدر المنثور ٩/٢.

(٣) سورة البقرة ٢١٩.

تدعني)[١].

ومن الإعجاز في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نزول سورة الفاتحة وقراءة المسلمين لها في كل فرض صلاة من الصلوات اليومية الخمسة ومن آياتها قوله تعالى﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٢]، ومن الصراط المستقيم بلحظ آية البحث أمور :

الأول : التوجه لسؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الإنفاق في سبيل الله.

الثاني : دلالة سؤال المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على تسليمهم بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم لذا ورد لفظ يا أيها الذين آمنوا تسعاً وثمانين مرة في القرآن، ومنه قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ...﴾[٣]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الأَرْضِ...﴾[٤].

الثالث : مجئ الجواب على أسئلة المسلمين من عند الله عز وجل، بقوله تعالى﴿قل﴾ أي (قل يا محمد) وفيه تشريف وإكرام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يأمره الله عز وجل بالجواب النازل من عنده سبحانه وهو من مصاديق قوله تعالى﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٥]،

(١) الدر المنثور ١٠/٢.
(٢) سورة الفاتحة ٦.
(٣) سورة البقرة ٢٥٤.
(٤) سورة البقرة ٢٦٧.
(٥) سورة النجم ٣-٤.

وتصاحب آية البحث المسلمين والمسلمات في حياتهم اليومية لما تبعثه وتندب إليه من فعل الخيرات، ليتلقى الفقير والمحتاج وذو القربى من هذه الخيرات فيشكر الطرفان الله عز وجل، أما المنفق فانه يشكر الله لأن وفقه للبذل في سبيله.

وأما الذي ينفَق عليه فيشكر الله على الرزق الكريم الذي لم يكن يأتيه لولا هداية ذي القربى والمسلم الغني إلى الصدقة وإخراج الزكاة.

أسباب النزول

نزلت الآية في رجل أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ان لي ديناراً، فقال: انفقه على نفسك، قال: ان لي دينارين، قال: انفقهما على اهلك، قال: ان لي ثلاثة، قال: انفقها على خادمك، قال: ان لي اربعة، قال: انفقها على والديك، قال: ان لي خمسة، قال: انفقها على قرابتك، قال: ان لي ستة، قال: انفقها في سبيل الله، وهو احسنها، رواه عطاء عن ابن عباس.

وروى الكلبي عن ابن عباس ايضاً: ان الآية نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخاً هرماً، وهو الذي قتل يوم احد وعنده مال عظيم، فقال ماذا ننفق من اموالنا واين نضعها؟ فنزلت هذه الآية، أي ان الجواب مطابق للسؤال.

مفهوم الآية

تدعو الآية الى الإنفاق واجتناب البخل والشح ولم تذكر الإنفاق في سبيل الله بينما ذكر في آيات اخرى على نحو الإستقلال والحث عليه وذم تاركه ، قال تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهِ﴾ [١] فهل المصاديق التي ذكرت في الآية من افراد الإنفاق في سبيله تعالى ام انها غيره .

الجواب هو الأول خاصة وأن ذكر ضروب الإنفاق بتعيين من عند الله وهي من الخير المحض كما وصفها القرآن وان الإنفاق في سبيل الله أعم مما تعلق بموارد الجهاد وتعظيم الشعائر وبناء المساجد واحياء السنن النبوية ونحوها وعن أبي ذر (قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما من عبد ينفق من كل مال له زوجين في سبيل الله ، إلا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده) [٢] .

وهذه المصاديق من الإنفاق في سبيله تعالى لأنها مقدمة لتعظيم الشعائر وارادة دوام احكام الشريعة وجاء الإنفاق في سبيل الله به الأمر الإلهي ابتداء ومن غير سؤال، فالإنفاق في سبيله تعالى أمر مفروغ منه لا يحتاج الى السؤال ولا يتوقف على البيان الإضافي والتوكيد المتعلق بالسؤال، فمن مفاهيم هذه الآية توكيد أهمية الإنفاق في سبيله تعالى، وبيان ارتقاء المسلمين ومعرفتهم للزوم الإنفاق في سبيله تعالى واخراج الحقوق الشرعية كالزكاة واستعدادهم لإعطاء واخراج الصدقات والكفارات والحقوق الشرعية .

وتعلق السؤال بماهية الإنفاق وجنسه ومقداره، فلم يسأل المسلمون لمن يعطون ومن هو الذي يستحق النفقة ، ولكن الجواب الإلهي جاء لبيان موضوع الإنفاق مع عدم اغفال السؤال وماهية الإنفاق اذ وصفته الآية بانه (من خير).

---

(١) سورة الحديد ١٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤٦/٦.

ويفيد الإطلاق في سبل الخير ويتحقق بأي مقدار وجزء من المال او العروض او مطلق الإحسان ومجيئه على نحو القضية المهملة لمنع الحرج في الدين وللحث على الإنفاق ولو كان قليلاً وليكون في ميسور كل انسان العمل بمنطوق هذه الآية بان ينفق حسب طاقته وبالكيفية التي يقدر عليها .

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قَالَ إِنَّ اللَّهَ لَيُرَبِّي لأَحَدكُمْ التَّمْرَةَ وَاللُّقْمَةَ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ أُحُدٍ) [1].

والآية حث على الإنفاق وبيان بان الله عز وجل يريد من المسلمين الإنفاق وعمل الخير ، وان السؤال جاء مناسبة وسبباً لهذا البيان، نعم فيه دلالة على أهلية المسلمين لفعل الخيرات ، فالآية وان جاءت بصيغة الإخبار ، والجواب عن السؤال الا انها تتضمن معنى الإنشاء والأمر والتعليم الإلهي.

وخاتمة الآية دعوة للإكثار من فعل الخيرات وكأنها اكرام للمسلمين لمبادرتهم السؤال عن الانفاق فجاءت لتحثهم وتدعوهم لفعل الخيرات مطلقاً والإخبار عن علم الله تعالى بها يدل بالدلالة التضمنية على حسن الجزاء والثواب العاجل والآجل من عند الله .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَتْ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ) [2].

إفاضات الآية

---

(١) مسند أحمد ٩٨/٥٣.

(٢) مسند أحمد ٤٠/٣٩.

تبين الآية أن المسلمين أخلصوا الطاعة لله عز وجل، وتوجهوا السؤال النبي على أمور دنياهم وآخرتهم، فسألوا عما ينفقون من الطعام، فجاءت الآية ببيان أن الإنفاق يكون من الخير ليكون من الإعجاز في الصلة بين آيات القرآن ذات الموضوع المتحد ما ورد في النهي عن الإنفاق من الرديئ والخبيث، قال تعالى ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾(١).

ونزلت الآية أعلاه في بعض الصحابة الذين كانوا يعطون الزكاة من الحشف والنوع الرديئ من التمر، لتبقى عضداً لآية البحث، وفيه إكرام للوالدين بأن لايعطي الابن لوالديه النوع الرديئ من الطعام أو اللباس أو الأعيان الأدنى بما يؤدي الى الغضاضة والكدورة عندهما .

وعلى فرض أنه أعطى الخبيث لهما فهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾(٢)، أم هو أشد أو أدنى وأقل منه رتبة .

المختار هو الأخير ولكن فيه مخالفة للنهي الوارد في قوله تعالى أعلاه، فاعطاء وإنفاق الرديئ مذموم ومنهي عنه شرعاً لعامة الناس، فيكون من باب الأولوية المنع من حصر النفقة على الوالدين به أو إعطائه مع إمكان إعطاء الحسن للزوم البر بالوالدين ، قال تعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة ٢٦٧.
(٢) سورة الإسراء ٢٣.
(٣) سورة النساء ٣٦.

فذكرت الآية أعلاه ذات الأصناف التي ذكرتها آية البحث لتكون النسبة بين الآيتين هي العموم والخصوص المطلق، فالإحسان أعم من النفقة، ومن الإحسان عدم إنفاق الخبيث والردئ، لذا أكدت الآية على الإتصاف بأنه من الخير.

الآية لطف

في الآية لطف بالمسلمين من جهات :

الأولى : تفضل الله عز وجل بهداية المسلمين للجوء إلى سؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية : صدور المسلمين عما يخبر به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة : إقرار المسلمين بأن النبي محمداً لا ينطق إلا بالحق والصدق.

الرابعة : إرادة الثناء على المسلمين لأنهم يرجعون بأمورهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى في ذم المنافقين ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (١)، وتدل الآية أعلاه بأن المؤمنين يردون أمورهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيفوزون بالبيان وأسباب الهداية والصلاح.

الخامسة : توجه المسلمين بسؤالهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجاء الجواب من عند الله عز وجل، وهذا الجواب في القرآن ، ليبقى إلى يوم القيامة سالماً من التحريف والتغيير والتبديل .

---

(١) سورة النساء ٨٣.

وهل يختص الحفظ في قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]، بذت كلمات الجواب القرآني أم أنه يشمل موضوعه ومعناه .

الجواب هو الثاني، وهو من الإعجاز في ورود لفظ (الذكر) في الآية أعلاه، وعدم وروده بلفظ القرآن أو الكتاب، لأصالة الإطلاق، وكأن بين لفظ الذكر ولفظ القرآن في المقام عموما وخصوصا مطلقا .

السادسة : تشهد الآية للمسلمين وحبهم للإنفاق طاعة لله ، إنما يسألون عن الذي ينفقون، وفيه وجوه :

أولاً : بلوغ المسلمين مرتبة الإقرار بوجوب دفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

ثانياً : سؤال المسلمين عن أمور دينهم ودنياهم بما فيه الخير والصلاح .

ثالثاً : لقد سأل المسلمون ماذا ينفقون ، فتفضل الله وأخبرهم عن الجهة التي ينفقون فيها أيضاً .

وهل يحتمل أنهم أرادوا أيضاً معرفة الجهة التي تصل إليها النفقة والإحسان والصدقة، الجواب نعم.

السابعة : يتجلى اللطف الإلهي بتعدد الجهات التي ينفق عليها مع التباين بينها وهم :

الأولى : الوالدان وهما واجبا النفقة على الفرد.

---

(١) سورة الحجر ٩.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الثاني : ذكرت الآية الإنفاق على ذوي القربى.

الثالث : اليتامى الذين هم دون سن البلوغ ويتصفون بفقد الآباء، ومنهم أبناء الشهداء في معركة بدر وأحد ومعارك الإسلام الأولى .

وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِى الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ[1].

الرابع : المساكين الذين لا يملك أحدهم قوت يومه بالفعل أو القوة.

الخامس : ابن السبيل وهو المسافر الذي ليس عنده نفقة يصل بها إلى بلاده وإن كان غنياً في بلده.

وقد ذكرت آية الصدقات وفريضة الزكاة ثمانية أصناف من المستحقين ، منهم الفقراء والمساكين وابن السبيل ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾[2]، ولم تذكر الآية أعلاه اليتامى ، وهو من إعجاز القرآن فقد يكون اليتيم محتاجاً فيستحق الصدقة الواجبة كالزكاة وزكاة الفطرة وقد لا يكون محتاجاً فلا يجب إعطاؤه من الصدقة، كما لو كانت عنده تركة أو عطاء وراتب شهري، أو يتولى الإنفاق عليه من ذكرتهم آية البحث لأنه من ذوي القربى بقوله تعالى ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ .

وليفيد الجمع بين آية البحث وآية الصدقات أن الإنفاق في آية البحث أعم من إعطاء المال والصدقة فيشمل البر والإحسان

---

(١) سنن البيهقي ٢٠٨/٢.

(٢) سورة التوبة ٦٠.

واللطف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدليل ذكرها للوالدين ، وما ينفقه الإنسان على والديه ليس من الصدقة بل هو واجب.

ليكون تعدد ضروب الإنفاق التي يقوم بها المسلمون من مصاديق قوله تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] ، لقد أجابت الآية على سؤال المسلمين ماذا ينفقون من جهات :

الأولى : تأكيد وجوب وإستحباب الإنفاق .

الثانية : تقييد الإنفاق بقوله تعالى﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في قوله تعالى﴿مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾.

الثالثة : ذكر الأصناف والأفراد الذين ينفق ويبذل لهم من الوالدين والأقربين وغيرهم.

الرابعة : مجئ الآية بالإخبار عن فعل الخير مطلقاً بقوله تعالى﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ والنسبة بين هذا الفعل وبين الإنفاق هو العموم والخصوص المطلق، ففعل الخير أعم من إنفاق الخير والمال .

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في موضوع يسأل عنه المسلمون والمسلمات، وفيه إعجاز وفضل من عند الله عز وجل بأن المسلمين يتوجهون بالسؤال إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكن الجواب ينزل من فوق سبع سماوات وفي آية قرآنية وهو غاية التشريف والإكرام والبيان.

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

وتقدير فاتحة الآية على وجوه :

الأول : الذين آمنوا يسألونك لبيان أن السؤال من منازل الإيمان والتقوى.

الثاني : يسألونك عن أمور دينهم.

الثالث : يسألونك لإقرارهم بانك رسول الله.

الرابع : يسألونك بعد إجتنابهم الإصغاء الى الذين كفروا، قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[1] [2].

الخامس : يسألونك ولا يسألون غيرك.

السادس : يسألونك فأجبهم وبيّن لهم .

السابع : يسألونك فأشكر الله على لجوء الأمة لك .

الثامن : يسألونك ماذا ينفقون من الخير .

التاسع : يسألونك ماذا ينفقون لينالوا الثواب العظيم .

العاشر : يسألونك ماذا ينفقون ليصدر المسلمون في أمورهم عن التنزيل والنبوة .

الحادي عشر : يسألونك ماذا ينفقون في سبيل الله .

الثاني عشر : يسألونك ماذا ينفقون لملازمة الإنفاق للإيمان .

الثالث عشر : يسألونك ماذا ينفقون إذ أنعم الله عليهم بتوالي النعم وكثرة الأموال .

الرابع عشر : يسألونك ماذا ينفقون لإقرارهم بأن النبي ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران ١٤٩.

(٢) أنظر الجزء الجزء السابع عشر بعد المائة الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

الخامس عشر : يسألونك إقراراً منهم بنبوتك.

السادس عشر : يسألك الذين آمنوا للتفقه في الدين.

السابع عشر : يسألك المنافقون فأحذرهم.

الثامن عشر : يسألك أهل الكتاب للإختبار ، وفي التنزيل ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾(٢).

التاسع عشر : يسألك الذين كفروا فتجيبهم عن الله عز وجل فيكون الجواب حجة عليهم، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾(٣).

العشرون : يسألونك عن أمور الدين والدنيا فيأتي الجواب من عند الله.

الحادي والعشرون : يسألونك ليكون هذا السؤال من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٤)، إذ تتجلى مصاديق الرحمة من جهات:

الأولى : توجه السؤال من الناس.

الثانية : تلقي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الأسئلة.

الثالثة : دلالة قوله تعالى(يسألونك) على عدم وجود برزخ وحاجب بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والناس.

الرابعة : تفضل الله عز وجل بالجواب.

---

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) سورة آل عمران ٦٤.

(٣) سورة الأنعام ١٤٩.

(٤) سورة الأنبياء ١٠٧.

الثاني والعشرون: يسألونك وهم يريدون الجواب من عند الله.

وجاء الجواب بصيغة الماضي ﴿مَا أَنفَقْتُمْ﴾ لتأكيد قانون وهو أن المسلمين إذا سألوا عن أمر فهم مستعدون للإمتثال للأمر والعمل بما يخبر ويجيب به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلم يسأل المسلمون إلا لعمل الصالحات وفيه شاهد على صدق إيمان المسلمين وأنهم لم يكسبوا إلا الرزق الحلال لأن الآية وصفت إنفاقهم بأنه خير ، وحتى على فرض أن المراد من الخير هو المال فانه لا يتعارض مع معنى الكسب الحلال والمال الطاهر .

وذكرت الآية الإنفاق للوالدين ، ولم تذكر الأبناء ، فهل يكون السبب أن السائلين من الشباب الذين ليس عندهم أولاد ، الجواب لا ، إنما ينفق الإنسان على إبنائه على نحو الملازمة والإنطباق ، كما أن لفظ الأقربين يشمل الأبناء ، وقد يغفل الإنسان عن الإنفاق على والده أو والدته أو هما معاً .

بالإضافة إلى بيان الآية لمنزلة الوالدين ، وما لهما من الشأن في حياة الإنسان ، قال تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [1] ومن هذه المنزلة إبتداء ذكر الآية لأصناف الذين ينفق عليهم بعد الوالدين .

وهل يدل على الأولوية بحيث إذا لم يكن عند المكلف ما ينفق إلا على إثنين من الأصناف التي ذكرتها الآية فيقدم الوالدان ، أم أن هذا التقديم للبيان ، وأن جميع الأصناف بعرض واحد بما فيهم ابن السبيل ، الجواب هو الأول .

---

(١) سورة الإسراء ٢٣.

وليس من شريعة ودساتير أو قوانين وضعية تبين وجوب إكرام وحب وبر الوالدين مثل آيات القرآن والشريعة الإسلامية وأحاديث السنة النبوية ، فتأتي آية واحدة ببر الوالدين ، فتعمل أجيال المسلمين إلى يوم القيامة بمضامينها ويتسابقون في الإمتثال الأمثل لأحكامها ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

وقد تقدم في إعراب الآية أن الفاء في ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ رابطة لجواب الشرط ، والتقدير فهو للوالدين والأقربين .

ومن الإعجاز في آية البحث أنها تأديب للمسلمين ليس في باب الإنفاق وحده بل في بر الوالدين ، وعمل الصالحات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهل يصح التفكيك في الآية بتقدير الإفراد في الإنفاق على وجوه :

أولاً : قل ما أنفقتم من خير فللوالدين .

ثانياً : قل ما أنفقتم من خير فللأقربين.

ثالثاً : قل ما أنفقتم من خير فلليتامى .

رابعاً : قل ما أنفقتم من خير فللمساكين .

خامساً : قل ما أنفقتم من خير فلابن السبيل .

الجواب لا يصح هذا التقدير لأنه يعني إستقلال كل صنف بالإنفاق .

لقد ذكرت آية البحث خمسة أصناف ممن ينفق عليهم ويحسن إليهم ، وإبتدأت بالأهم والأولى والأقرب ، وهما الوالدان .

---

(١) سورة آل عمران ١١٠.

وعن عبد الله بن مسعود قال : أَىُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّه؟ قَالَ: الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا، قُلْتُ : ثُمَّ أَىٌّ قَالَ : بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قُلْتُ : ثُمَّ أَىٌّ قَالَ : الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّه[1].

ومن إعجاز الآية ذكرها للأقربين بعد ذكر الوالدين لمنع الترديد والإجمال ، ولتأكيد منزلة الوالدين ، وأنهما أقرب من الإخوان والأخوات والأعمام والأخوال .

لقد جعل الله عز وجل طائفة من الناس فقراء ومساكين ثم أمر بالإنفاق عليهم والإحسان إليهم لأن الدنيا دار إمتحان ، ومن الآيات أن الفقر والمسكنة نعمة على الإنسان تستلزم الصبر والرضا ، ووعاء لهدايته ونجاته ، ومناسبة لتوجهه بالدعاء إلى الله عز وجل .

عن ابن جريج قال سأل المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أين يضعون أموالهم فنزلت يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير الآية وأخرج ابن المنذر عن أبي حيان أن عمرو بن الجموح سأل النبي صلى الله عليه وسلم ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت)[2].

وتكرر لفظ خير في الآية مرتين: بقوله تعالى﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وبين الأمرين خصوص وعموم مطلق فالثاني أعم، لأن فعل الخيرات أعم من الإنفاق فكل إنفاق في سبيل الله هو خير ولكن الخير سور جامع للصالحات تدخل في العبادات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإجتناب فعل

---

(١) سنن البيهقي ٤٢٦/٢.

(٢) لباب النزول للسيوطي ٣٠/١.

السوء، والعصمة من المعصية، ليكون من إعجاز الآية بيان قانون من جهات :

الأولى : دعوة المسلمين والمسلمات لفعل الخيرات.

الثانية : حث فقراء المسلمين على عمل الصالحات وفيه قانون بأن الذي يعجز عن فعل من الخير يذكر في القرآن فإن ذات الآية أو آيات أخرى تتضمن البدل والعوض.

الثالثة : إكرام الآية للمسلمين الذين ينفقون والذين ينفق عليهم إذ تبعثهم على عمل الصالحات، فمن لا يقدر على الإنفاق، ومن يحتاج العون والإنفاق عليه، ويستحق الزكاة والصدقات يستطيع جني الحسنات بالتحلي بالتقوى والأخلاق الحميدة وكل فرد منهما خير محض.

وقال أبو ذر: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجر، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال، وليس لنا ما نتصدق به، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أبا ذر، ألا أعلمك كلمات تدرك من سبقك ولا يلحقك من خلفك إلا من أخذ بمثل عملك؟ .

قال: بلى يا رسول الله قال: كبر الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، واحمده ثلاثا وثلاثين، وسبحه ثلاثا وثلاثين، وتختمه بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير)[1].

الرابعة : بيان فضل الله عز وجل على المسلمين إذ يسألون عن مسألة فيأتيهم الجواب عن ذات المسألة وعما هو أعم منها بما فيه النفع العام والخاص.

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٣٠٣/١.

ومن إعجاز الآية أنها لم تحصر الإنفاق بالمسلمين، بل ذكرت أصنافاً من الناس بخصوص اليتامى والمساكين وابن السبيل، إلا مع ورود دليل على التخصيص والحصر من الكتاب أو السنة، لتكون الآية من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان قانون وهو توثيق شطر من أسئلة المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن.

الثانية: تفضل الله عز وجل بالإجابة عن أسئلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويلجأ الناس إلى الوحي والنبوة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[2].

الثالثة: دلالة الآية بالدلالة التضمنية على حال السعة والغنى التي صار عليها المسلمون، لقد جاءت السور المكية بالإنذار والوعيد للذين كفروا، وبذكر الجنة والنار، بينما نزلت آيات السور المدنية ببيان الأحكام، وهداية المسلمين لفعل الصالحات وجني الحسنات.

الرابعة: بعث المسلمين والمسلمات على الإنفاق والبذل في سبيل الله، ودعوتهم للمناجاة باعانة المحتاجين، وإجتناب الشح والبخل.

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة الكهف ١١٠.

ومـن مصـاديق قولـه تعـالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(١)، أن المسـلمين حالمـا جـاءهم الـرزق الـوفير مـن عنـد الله، سـألوا عـن الإنفاق وكيفيته.

فقـد يستمر الإنسـان بقبض يـده عنـدما ينتقـل مـن حـال العـوز إلى الغنـى ويخشـى عـودة أيـام الضـنك والفاقـة، وينشـغل بكيفيـة تـأمين حيـاة كريمـة لأولاده يكونـون معهـا بمـأمن مـن الفقـر والمشـاق الـتي صاحبته.

فجـاءت آيـة البحـث لتحـث علـى الإنفـاق ، ولتـدل بالدلالـة التضـمنية على الوعـد الكـريم مـن عنـد الله عـز وجـل بتـوالي الـرزق الكريم للمسلمين.

الخامسـة : بيـان الشـأن والمنزلـة الرفيعـة للوالـدين الأب والأم، ولـزوم إكرامهمـا، ومـن فيوضـات نبـوة محمـد صـلى الله عليـه وآلـه وسلم شفقة وبر الابن لوالديه .

تـرى مـاذا لـو كانـت الـولادة عـن طريـق الإستنسـاخ ولا يعـرف الولـد والديه، الجـواب هـذا أمـر محتمـل علمياً، وهـو لا يتعـارض مـع بقـاء الـولادة الطبيعيـة عنـد غالبيـة النـاس، وكمـا في عتـق رقبـة في كفـارة الـيمين فقـد ورد التخـيير والبـدل ، قـال تعـالى ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ﴾(٢).

السادسـة : تفقـه المسـلمين في الـدين، ومعرفـة كيفيـة الإنفـاق ودعـوة المسـلمين للعمـل بالواجبـات العباديـة مـن بـاب الأولويـة

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة المائدة ٨٩.

القطعية بلحاظ أن الإنفاق الذي يسأل عنه المسلمون أعم من الواجب والمستحب والمندوب، وجاءت آية الصدقات ببيان الأصناف التي يستحقون الزكاة .

السابعة : إختتام الآية ببيان إحاطة الله عز وجل علماً بكل شئ، وفيه وعد كريم للمسلمين بالبدل على الإنفاق، والفوز بالأجر والثواب العظيم عليه ، قال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

الثامنة : تقييد الآية الإنفاق بأنه من الخير ، وهذا التقييد نوع توسعة وبيان بصحة الإنفاق من المال والطعام والعروض وما ينتفع به من الرزق الحلال ، وهو أعم من الزكاة أي أن آية الصدقات لم تنسخ هذا الإنفاق، كما ورد الحث على العفو كانفاق وصدقة ، قال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[2].

التاسعة : إرادة الثواب العظيم للمسلمين بالهداية إلى الإنفاق وإتخاذه منهاجاً عاماً يبادر إليه المسلمون في حال الرخاء والشدة، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[3]، كما ورد لفظ (ما تنفقوا من خير) مرتين في آية واحدة

(١) سورة المائدة ٢٦١.

(٢) سورة البقرة ٢١٩.

(٣) سورة آل عمران ١٣٤.

[١]، وورد ذات اللفظ في الآية التالية لها، كما ورد قوله تعالى ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾[٢]، في آية الحج وآية اليتامى[٣].

العاشرة : ورد ذكر الإنفاق وفعل الخير في الآية، وبينهما عموم وخصوص مطلق، وفعل الخير أعم من الإنفاق، لبيان قانون وهو أن المسلمين يفعلون وجوهاً من الخير والصلاح أكثر من الإنفاق، وفيه شاهد على أنهم يمتثلون للأوامر الإلهية في العبادات والفرائض والمستحبات .

الحادية عشرة : أختتمت آية البحث بالبشارة من عند الله عز وجل بأنه يعلم ما يفعله المسلمون من الصالحات، لتدل الآية بالدلالة التضمنية على فضل الله عز وجل من وجوه :

الأول : زيادة إيمان المسلمين بفعلهم الصالحات ، قال تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٤].

الثاني : بعث المسلمين على العمل الصالح بشوق .

الثالث : مجئ الثواب من عند الله عز وجل .

الرابع : إقامة الحجة على الذين كفروا .

الخامس : قيام المسلمين بعمل الصالحات ترغيب للناس بالإيمان .

---

(١) أنظر سورة البقرة الآية ٢٧٢ .

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

(٣) سورة النساء ١٢٧.

(٤) سورة النحل ١٠٢.

السادس : إرتقاء المسلمين في سلم المعارف والعمل بقانون الأهم فالأهم، والأقرب فالأقرب .

وفي الآية مسائل :

الأولى : الإخبار من السماء بأن المسلمين والناس يلجأون ويتوجهون إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السؤال والمسائل الشائكة العامة والخاصة .

وعن أنس في قوله تعالى({ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم}[1] أن الناس سألوا نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه بالمسألة .

فخرج ذات يوم حتى صعد المنبر فقال : لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أنبأتكم به ، فلما سمع ذلك القوم أرموا وظنوا أن ذلك بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت التفت عن يميني وشمالي ، فإذا كل رجل لاف ثوبه برأسه يبكي ، فأتاه رجل فقال : يا رسول الله ، من أبي؟ قال : أبوك حذافة ، وكان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه ، فقال عمر بن الخطاب : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، ونعوذ بالله من سوء الفتن .

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط ، إن الجنة والنار مثلتا لي حتى رأيتهما دون الحائط قال قتادة : وإن الله يريه ما لا ترون ، ويسمعه ما لا تسمعون. قال: وأنزل عليه {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء..} الآية. قال قتادة : وفي قراءة أبي بن كعب قد سألها قوم بينت لهم فأصبحوا بها كافرين)[2].

---

(١) سورة المائدة ١٠١.

(٢) الدر المنثور ٤٩٤/٣.

وقال ابن عباس لأعرابي من بني سليم: هل تدري فيما أنزلت هذه الآية:"يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم" ؟ حتى فرغ من الآية، فقال: كان قوم يسألون رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم استهزاء، فيقول الرجل:"من أبي"؟ والرجل تضل ناقته فيقول:"أين ناقتي"؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية)[1].

وقد يقوم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسؤال للبيان والحجة، وعن العباس أنه بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم(ما يقول الناس، فصعد المنبر .

فقال: "من أنا؟". قالوا: أنت رسول الله. قال: "أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين (٢) فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة. وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتًا، فأنا خيركم بيتًا وخيركم نفسا". صدق صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الحديث أيضا المروي عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قال لي جبريل: قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم)[2].

الثانية : بيان قانون وهو سماع الله عز وجل لما يُسئل به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتفضله بالإجابة من فوق سبع سماوات ليدل الأمر من عند الله (قل) في قوله تعالى﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ﴾ من باب الأولوية على حفظ الله عز وجل

---

(١) تفسير الطبري ٩٨/١١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٣٣/٣.

للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من التعدي والضرر الذي يأتي من قبل الذين كفروا والمنافقين، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾[1] .

بتقريب أن الأذى الذي يأتي لشخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الضرر ، وأن الضرر التي يأتي لعامة المسلمين من الأذى .

الجواب لا دليل على هذا المعنى، والأصل هو الإطلاق في رحمة الله عز وجل بسلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين والمسلمات من الضرر الذي يأتي من الذين كفروا، وقد وردت الآية أعلاه بعد آية (خير أمة)[2]، لتأكد مصداقاً من مصاديق فضل الله عز وجل على المسلمين وإصلاحهم لأسمى المراتب بين الناس، قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾[3].

الثالثة : بيان موضوع سؤال المسلمين للنبي محمد صل الله عليه وآله وسلم وهو خير محض وشاهد على هدايتهم وبلوغهم مراتب العمل بأحكام الشريعة، إذ سألوا عن الإنفاق وأصناف الزكاة .

---

(١) سورة آل عمران ١١١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة آل عمران ١١٠-١١١.

فبعد الفقر والعوز والضعف الذي كان عليه المسلمون، كما ورد في قوله تعالى بخصوص معركة بدر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1]، فقد صار المسلمون في حال من السعة والغنى فاظهروا الشكر لله عز وجل بالبذل والإنفاق وسؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الإنفاق .

الرابعة : بيان آية البحث لقانون وهو أن النسبة بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، نسبة السائل والمسؤول، ليترشح الثواب من وجوه :

الأول : سؤال المسلمين عن أمور دينهم.

الثاني : توجه المسلمين بالسؤال إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث : بعث أهل البيت والصحابة ليسألوا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في أمور الدين والدنيا، فوجوده بين الناس فيض ونعمة من عند الله لن تتكرر إلى يوم القيامة، وهو من مصاديق قوله تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

وهل يصح القول بأن الآية تبعث أجيال المسلمين لسؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كل زمان على الإنفاق أم أن السؤال إنقطع من جهتين :

الأولى : مغادرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى .

الثانية : بيان آية البحث للذي ينفقه المسلمون .

---

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

الجواب هو الأول، فان المسلمين يسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيأتيهم الجواب في آية البحث، وهو من أسرار مجئ آية البحث بصيغة المضارع (يسألونك) وكأن الآية تخاطب المسلمين في كل زمان: إسألوا النبي ماذا تنفقون فان الله عز وجل يتفضل عليكم بالإجابة والبيان.

الخامسة : من أسرار ومعاني إجابة الله عز وجل عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إعانة المسلمين في إنفاقهم، فهي ليست إجابة فقط، ولا تنحصر مضامينها بالبيان وحده ، ومن معانيها أمور :

الأول : هداية المسلمين إلى الإنفاق في سبيل الله ، وإدراك ضرورته، ويدل عليه منطوق الآية ، فلم يسأل المسلمون هل ينفقون أو يجب عليهم الإنفاق أو لا يجب، إنما سألوا عن كيفية الإنفاق ومادة الإنفاق مما يدل بالدلالة التضمنية على تسليمهم بوجوب الإنفاق ، فال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1].

وتفضل الله عز وجل وهداهم إلى ما هو الأهم من نوع وماهية الذي ينفقونه، بتعيين الذين يجب الإنفاق والبذل عليهم.

الثاني : تنمية ملكة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المسلمين .

الثالث : منع الحرج والخلاف والإجتهاد خلاف النص في تعيين جهة المنفق عليه .

السادسة : إرادة النفع العظيم للمسلمين بكيفية الإنفاق، وبر الوالدين، وصلة الرحم.

---

(١) سورة الحشر ٧.

التفسير

تفسير قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾

وفيه مسائل :

الأولى : في الآية مدح للمسلمين برجوعهم الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تعيين ، واختيار جهة الانفاق ، وفي موضوع السؤال.

الثانية : تبين الآية استعداد المسلمين للإنفاق في سبيل الله تعالى وارتقائهم في منازل المعرفة الإلهية بان ادركوا الحاجة الى الإنفاق كطريق لتثبيت اركان التوحيد، قال تعالى في الثناء على المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

الثالثة : السؤال من الأدنى الى الاعلى فالآية شهادة على اقرار المسلمين بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم وانتظارهم الجواب الحاسم في المسألة منه، لذا عمل المسلمون بالسنة النبوية الشريفة، واذا صدر قول من احد فقهاء وعلماء المسلمين مخالف لها يرد باعتباره اجتهاداً في مقابل النص ، وجاء الخطاب من عند الله للمسلمين جميعاً (وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)[2].

الرابعة : جاءت ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ من غير واو، وكذا في خصوص

---

(١) سورة البقرة ٣ .

(٢) سورة الحشر ٧.

السؤال عن الشهر الحرام[١] وعن الخمر[٢] وجاءت ثلاث مرات ايضاً بالواو ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾[٣] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ﴾[٤] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾[٥] .

ولعل العطف بالواو لإتحاد زمان السؤال او لوحدة الموضوع، كما انه يدل على سعة رحمته وفضله تعالى مع كثرة السؤال.

الخامسة : ذكر موضوع معين للسؤال في القرآن يدل على اهميته ولزوم تخصيص دراسات علمية وفقهية متشعبة بخصوصه، وقد ورد ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ خمس عشرة مرة في القرآن وباستثناء ما تكرر منها وهو السؤال عن يوم القيامة اذ ورد ثلاث مرات،فان المجموع ثلاث عشرة مسألة، ينبغي ان تؤسس مدرسة خاصة بكل سؤال وموضوع منها بالإضافة الى استنباط الدروس منها مجتمعة.

السادسة : ظاهر السؤال وتعلقه بالانفاق يدل على ان السائلين هم المسلمون.

السابعة : في الآية اكرام من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين، يسألون النبي فيجيب عنه الله تعالى جواباً تفصيلياً، وللمسلمين ان يسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويرجون جواباً من السنة ينير لهم مسالك الآخرة، فيأتي الجواب من عنده تعالى ليجعل حياتهم مملوءة بضياء قرآني مبارك

---

(١) سورة البقرة ٢١٧.
(٢) سورة البقرة ٢١٩.
(٣) سورة البقرة ٢١٩.
(٤) سورة البقرة ٢٢٠.
(٥) سورة البقرة ٢٢٢.

يمنع اللبس والاختلاف ويأخذهم بلطف نحو سبل النجاة والفوز والرشاد ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

الثامنة : القرائن الحالية والمقالية تدل على ان السائلين ليس كل الصحابة ولكن النفع في الآية لعموم المسلمين الى يوم القيامة، فسؤال واحد يصدر من جماعة قليلة او من شخص يكون نبراساً وعلماً ونوراً إيمانياً.

التاسعة : تمنع الآية من حصول الاضرار بسبب الانفاق أو تقديم المهم على الأهم وما فيه من اثارة الضغائن والاحقاد والتسبيب بقطع الرحم بالعرض، او باعطاء الحقوق الشرعية لغير المستحقين وما فيه من التفريط وما قد يتفرع عنه من التمادي في المعاصي والآثام، الا ترى السؤال في الآية عما ينفقون، ولكن الجواب ذكر الجهة التي تستحق الانفاق.

العاشرة : ذكرت كتب التفسير عن القفال انه قال: وان كان السؤال وارداً بلفظ (ما) الا ان المقصود السؤال عن الكيفية لانهم كانوا عالمين ان الذي امروا به انفاق مال يخرج قربة الى الله تعالى، واذا كان هذا معلوماً لم ينصرف الوهم الى ان ذلك المال أي شيء هو.

ولكن الآية تحمل على ظاهرها وفيه نوع اعجاز وتتفرع عند عدة مسائل، فالآية تدل على ان الاسلام اسس شريعته وجاءت تفاصيل وقواعد وشروط احكامه ابتداء كما في الصلاة والصوم وكذا تشريع الزكاة، وكان الناس يدخلون في الاسلام كل يوم

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

على نحو جماعات ، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ❖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[1].

الحادية عشرة : من الناس من يسأل عن ماهية المال المنفق وكمه ومقداره، وهل هو من الاعيان او العروض او النقد او الحبوب او المواشي، والآية لم تغفل موضوع السؤال وجهة الانفاق.

تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾

في الآية مسائل :

الأولى : في الآية إمضاء وتثبيت لحقيقة عقائدية وهي لزوم الإنفاق والاحسان وبذل المال وما يلحق به.

الثانية : ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ في هذا التبعيض نوع اجمال وعدم تقييد لأن مراتب الإنفاق تتباين بين الناس فمنهم من يكون دفعه للصدقة واجباً لإمتلاكه نصاب الزكاة او لتعلق الخمس في امواله وما نال من الغنائم، ومنهم من يكون فقيراً لا يملك فضلاً عن مؤونته يجب معها الإنفاق أو لا يملك ما تجب معه النفقة ولكن الوجوب يأتيه بالعرض كما في الإنفاق على الوالدين او على الأبناء او على الزوجة اذ ان الزواج حكم وضعي مباح ولكن بعد الزواج يكون الإنفاق على الزوجة واجباً.

وعن سعيد بن أبي وقاصقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك إن شاء الله لن تنفق نفقة إلا أجرت حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك [2].

---

(١) سورة النصر ١-٢.

(٢) سنن الكبرى للنسائي ٣٧٧/٥.

الثالثة : من فوائد الإجمال في مقدار الإنفاق شمول موضوع الآية للقليل والكثير من الإنفاق كي لا يستخف بالقليل فلا يلتفت الى جهة الوجوب والإستحقاق.

الرابعة : (الخير) عنوان جامع لوجوه البر والإحسان والصدقات الواجبة وفيه ثناء على المسلمين من جهة تخصيص عنوان الخير والصلاح لما ينفقون ، فمن الناس من يكون انفاقه مصدر اذى له او لغيره، فجاء الوصف (الخير) للمدح والإكرام وفيه اخبار بالقبول والرضا.

الخامسة : الفعل (انفقتم) مع اسم الشرط (ما) يفيد المضارع والتعليق.

السادسة : لا مانع من شمول الآية للانفاق في الزمن الماضي للبيان والتوكيد ومعرفة الاعمال في الميزان ومنازل الحساب، فقد ينفق الانسان في مورد خال من الثواب ويظن ان له أجراً وثواباً، فجاءت الآية للتنبيه بعدم الاتكال على الانفاق الذي لا يراد به وجه الله وسبل مرضاته.

السابعة : تبين الآية الحد الأدنى من الإنفاق وهو ان يكون خيراً ونافعاً.

الثامنة : الآية حث على الإنفاق في وجوه الخير.

التاسعة : في الآية اشارة الى المبادرة الى الإنفاق ولو كان قليلاً وعدم الإستحياء من قلته.

العاشرة : للانفاق والاحسان مضامين عقائدية تتمثل بتثبيت اركان الدين ، وتقوية شوكة المسلمين ، قال تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ

الْوَارِثِينَ﴾[1].

الحادية عشرة: لقد وضع القرآن للانفاق فلسفة وأسساً راسخة تدعو المسلمين كل آن للاحسان والبذل والعطاء في جنب الله.

الثانية عشرة: يتدخل القرآن في كيفية الانفاق وبيان الجهة التي يتم الانفاق فيها لمنع التفريط والاسراف والضرر والحرج، قال تعالى ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2].

بحث بلاغي

في باب البلاغة قد لا يخرج الجواب وفق السؤال وحيثيته، وقد يكون اعم من موضوع السؤال لحاجة اغفلها المتكلم، وفي هذه الآية جاء الأمران معاً أي ان وجوه البلاغة المتعددة تجتمع في آية واحدة من آيات القرآن.

فسألوا عن جنس الإنفاق ومصاديقه فجاء الجواب متضمناً الأخبار عنه بالدلالة التضمنية بقوله تعالى ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ مع بيان مصرف الإنفاق وموارده والتوكيد على ان مصرف الإنفاق هو الأهم مما يدل على ان الجواب القرآني اصلاح للنفوس وتوجيه للأفعال وقواعد كلية في ميادين الحياة المختلفة فقد يكون الإنفاق باباً للفتنة والفرقة، والمحسن لا يرجو فيه الا وجه الله ولكنه لا يضعه في مواضعه كما لو اعطى البعيد وترك القريب، لذا ورد في الخبر: "لا صدقة وذو رحم محتاج"[3].

---

(١) سورة القصص ٥.

(٢) سورة الأنعام ١٤١.

(٣) الوسائل ٢٣٤/١١.

ويمكن ان يستدل بقوله تعالى ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ بارادة قصد القربة عند الصدقة فلا تصح بدونها وان حصل القبول والإيجاب، وعن الإمام الصادق عليه السلام: "لا صدقة ولا عتق الا ما اريد به وجه الله عز وجل"(١).

قوله تعالى ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾

في الآية مسائل :

الأولى : تشريف واكرام الوالدين ، وفي التنزيل ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(٢).

الثانية : اعطاء الأب والأم الأولوية في الإنفاق والإستحقاق والصلة.

الثالثة : التوكيد المطلق على اهمية البر بالوالدين، فتقديمهما في الإنفاق يعني تقديمهما في غيره من وجوه الإكرام خصوصاً وان الإنفاق واخراج المال امر ليس بالهين على الإنسان.

الثالثة : تخلق الآية في النفس عادة السخاء والكرم وتعطيها الأولوية في التقديم والتبادر وتلبسها رداءً شرعياً.

الرابعة : ترفع الآية الحرج والإستحياء من الإنفاق على الوالدين واعطائهما ما يخصص للفقراء والمحتاجين.

الخامسة : كما ان قوله تعالى ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾(٣) تفيد ومفهوم الموافقة عدم زجر الوالدين او ضربهما، فكذا هذه الآية

(١) الوسائل ٢٥٤/١١.
(٢) سورة الإسراء ٢٣.
(٣) سورة الاسراء ٢٣.

فانها تدل بمفهوم المخالفة على عدم زجرهما وعدم القول لهما أف، وبذا تتجلى لنا بعض المضامين القدسية في تفسير القرآن بالقرآن بمفهوم المخالفة والدلالة الإلتزامية، فمن يأمر الله بتقديمه في الخير والإنفاق لابد من صلته بالميسور والمواظبة على اكرامه.

السادسة : في الآية تخفيف للمؤونة ووضع لأعباء واجبة على الشخص.

السابعة : فيها عز للوالدين ورفع للحرج فيما يعطيه الولد لأبويه انما هو بأمر منه تعالى ولا منة فيه، كما تتيح الآية للوالدين المطالبة بحقهما من الابن اذا كانا مستحقين عاجزين وفقيرين.

الثامنة : الظاهر ان المراد من الوالدين هما الأب والأم وهو من الفاظ التغليب والمعتبر فيها الاخف الا ان يكون المذكر هو الاثقل، ويقال الأبوان، والقمران، وقال الطبرسي: (والمراد بالوالدين الأب والأم والجد والجدة وان علوا ولأنهم يدخلون في اسم الوالدين)[1] .

ولكن الأجداد يدخلون بعنوان الأقربين لأن الآية ذكرت الوالدين بالتثنية مما يفيد الحصر بالأب والأم وليس الجمع، وفي باب المواريث يعتبر الأب والأم من المرتبة الأولى ويحجبان هما والأولاد الميراث عن الأجداد الذين هم من المرتبة الثانية.

بحث أخلاقي

تبين الآية الأولوية القرآنية للوالدين، فالانفاق عليهما من باب المثال والحاجة العامة والا فأن لزوم تقديمهما يشمل وجوه العون والمساعدة والعناية المختلفة.

وقد أوصى الله عز وجل بالوالدين والرفق بهما

---

(1) مجمع البيان ٢/٧٠.

والاحسان اليهما واكرامهما في أربع مواضع من القرآن، وقرن ذلك بلزوم التوحيد والاقرار له بالعبودية في تلك المواضع جميعها منها قوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[1].

كما ذكرهما الله في حال الشكر والعرفان والامتنان ، قال تعالى ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾[2].

وعن معاذ بن جبل قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ، فقال : يا رسول الله علمني عملا إذا أنا عملته دخلت الجنة قال : لا تشرك بالله شيئا ، وإن عذبت وحرقت أطع والديك ، وإن أخرجاك من مالك ، ومن كل شيء هو لك ، ولا تترك الصلاة متعمدا فإنه من ترك الصلاة متعمدا برئت منه ذمة الله، لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر ، لا تنازع الأمر أهله ، وإن رئيت أنه لك، أنفق من طولك على أهلك ، ولا ترفع عنهم عصاك، أخفهم في الله[3].

وعن أنس بن مالك قال : أتى رجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه قال : فهل بقي أحد من والديك ؟ فقال : أمي قال : فابل الله عذرا في برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد إذا رضيت عنك أمك، فاتق الله وبرها[4].

والوالدان هما الصلة المادية في وجود الولد وتربيته واعداده

---

(١) سورة الاسراء ٢٣.

(٢) سورة لقمان ١٤.

(٣) المعجم الأوسط / الطبراني ٢٦٣/١٧.

(٤) المعجم الصغير / الطبراني ٢٢١/١.

وتغذيته واطعامه، وقد أوصى الله عز وجل بالدعاء لهما وسؤال الرحمة والمغفرة لهما في حياتهما وبعد موتهما ضمن القواعد الكلية باكرامهما وحسن الأدب والسلوك معهما، ولقد جاءت الشرائع السماوية كلها بوجوب رعاية حق الوالدين واكرامهما ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾[1].

وفي السنة النبوية يعتبر (بر الوالدين) من أهم الموسوعات الاخلاقية والتربوية والعقائدية لاستفاضة الاحاديث الخاصة بإكرام الوالدين واعزازهما، والسعي لتوفير ما يحتاجان اليه من مستلزمات الحياة الكريمة، وتترشح أهميته مما يترتب عليه من عظيم الثواب في الآخرة ، وما ينتظر من يعق والديه من العقاب الأليم.

ان الاهتمام بالوالدين وبرهما يستمر بالانسان حتى بعد موتهما اذ يقوم بالاستغفار لهما وقضاء ما عليهما من العبادات من صلاة وصوم او حج الفريضة ونحوها، ولذلك احكام مبينة في الكتب الفقهية.

والدعاء بر بالوالدين ورعاية لحقهما وابتعاد عن العقوق ومظاهره، عن محمد بن سنان عن الإمام الرضا عليه السلام فيما كتب اليه من جواب مسائله: وحرم الله عقوق الوالدين لما فيه من الخروج من التوقير لله عز وجل والتوقير للوالدين، وتجنب كفر النعمة وابطال الشكر، وما يدعو من ذلك الى قلة النسل وانقطاعه لما في العقوق من قلة توقير الوالدين والعرفان بحقهما وقطع الارحام والزهد من الوالدين في الولد وترك التربية لعلة ترك

---

(1) سورة الاحقاف ١٥.

الولد برهما[1].

وقد خص الإمام السجاد والديه بدعاء خاص ومما جاء فيه: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَلْهِمْنِي عِلْمَ مَا يَجِبُ لَهُمَا عَلَيَّ إِلْهَاماً وَاجْمَعْ لِي عِلْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَمَاماً ثُمَّ اسْتَعْمِلْنِي بِمَا تُلْهِمُنِي مِنْهُ وَوَفِّقْنِي لِلنُّفُوذِ فِيمَا تُبَصِّرُنِي مِنْ عِلْمِهِ حَتَّى لا يَفُوتَنِي اسْتِعْمَالُ شَيْءٍ عَلَّمْتَنِيهِ وَلا تَثْقُلَ أَرْكَانِي عَنِ الْحَفُوفِ فِيمَا أَلْهَمْتَنِيهِ).

ان تهذيب النفس وحسن المعاملة مع الآخرين تبدأ من الصلة مع الوالدين لأنها تنشأ قهراً وانطباقاً مع نشأة الولد اليومية، وفيه نوع تخفيف اخلاقي عن الإنسان، أي انه ينشأ بين اشد الناس حباً له وتعاهداً لمصلحته ولهما قوة التأثير عليه لتوجيهه وتربيته نحو الأصلح والأحسن.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾

في الآية مسائل :

الأولى : ذكرت الآية اهم المصاديق والوجوه التي يتم الإنفاق فيها بالإضافة الى الوالدين وفيه تأديب وتعليم واكرام وتوجيه ومنع للإرباك وحصول الخلل.

الثانية : الأقربون من العناوين الفرعية في الآية وهو سور جامع تنطوي تحته مجموعة من المصاديق في النسب والسبب.

الثالثة : المراد من الأقربين هم الذين تربطهم بالمكلف الذي يريد الإنفاق صلة القربى من جهة ابيه او امه، فيدخل في هذا العنوان الأعمام والأخوال وابناؤهم .

---

(1) الوسائل ٣/١٨٣ طبعة حجرية.

وفي قوله تعالى﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1]، وعن البراء أنه لما نزلت الآية أجمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (بني عبد المطلب إنّي أنا النذير إليكم من الله سبحانه والبشير لما يجيء به أحد منكم، جئتكم بالدنيا والآخرة فأسلموا وأطيعوني تهتدوا، ومَن يواخيني ويؤازرني ويكون وليّي ووصيي بعدي، وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟ .

فسكت القوم، وأعاد ذلك ثلاثاً كلّ ذلك يسكت القوم، ويقول علي : أنا فقال : أنت فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد أُمّر عليك.

وأخبرنا عبد الله بن حامد الاصفهاني ومحمد بن عبد الله بن حمدون قالا : أخبرنا أحمد ابن محمد بن الحسن قال : حدّثنا محمد بن يحيى قال : حدّثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني سعيد بن المسيّب وأبو سلمة بن عبد الرّحْمن أنّ أبا هريرة قال : قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين أنزل الله سبحانه{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين} قال : يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفيّة عمّة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً، فسلوني من مالي ما شئتم[2].

الرابعة : ستر حال الأقربين من العوز والفقر وما فيه دفع الضرر والشماتة، أي ان الإنفاق على الوالدين والأقربين فيه نفع

(١) سورة الشعراء ٢١٤.

(٢) الكشف والبيان ٩/ ٤٤٧.

للمنفق نفسه.

الخامسة : تؤكد الآية على أهمية ذوي القربى مطلقاً والحرص على صلتهم ولو بالسلام، ومعاملتهم بالرأفة والود والإحسان فقد يكون الطرفان من ذوي القربى فقيرين محتاجين، فان الآية تدعوهم الى المودة وتعاهد الصلات بينهم لذا فانك ترى الصلة بين الأقارب والأرحام في الإسلام تتميز عن مثلها في الملل والمجتمعات الأخرى، فصلة القربى في الإسلام مبنية على اسس عقائدية سماوية.

السادسة : السنة بيان وتفسير للقرآن وقد وردت نصوص مستفيضة تحث على صلة الرحم وترجيح الصدقة على ذوي القربى منها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: افضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح[1] .

والكاشح الذي يضمر العداوة ويطوى عليها، والذي يعرض عنك بغضاً وحسداً.

السابعة : في الآية دعوة لتفقد أحوال الأقرباء سواء كانوا اغنياء او فقراء، فالفقير يتطلع الى ذي قرباه الغني كي يمد له يد العون والمساعدة، والغني يتحقق في احوال اقاربه كي يساعد الفقير منهم، وما بينهما مما هو ليس بغني او فقير يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو الغني الى مساعدة الفقير منهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

الثامنة : في الآية تثبيت وتوثيق وحفظ للنسب والصلات

---

(١) الدر المنثور ٣٤٤/١.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

الإجتماعية وبر الوالدين من خلال اعانة من يتصل مع المكلف بسببهما.

التاسعة : يحكم العقل بترجيح القريب على البعيد في الصلة والإعانة.

العاشرة : الظاهر ان المراد من ﴿ الْأَقْرَبِينَ ﴾ اقارب المنفق، وهل يحتمل شموله لأقارب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم اهل بيته وذريته من بعده .

الجواب: نعم لإطلاق اللفظ ولتقديمهم ايضاً في بعض الآيات كقوله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾[1].

الحادية عشرة : لم يذكر الولد الصلبي وولد الولد في الآية الكريمة وفيه وجوه:

الأول : ان الآية تشير اليه بالقرينة والدلالة التضمنية والإلتزامية خصوصاً وانه اقرب من ذوي القربى.

الثاني : ان الولد واجب النفقة ما دام غير بالغ فلا تصل النوبة الى استحباب الإنفاق عليه.

الثالث : ان الإنسان بطبيعته وتركيبته حريص على دفع الجوع والحاجة عن ابنه.

الرابع : يدخل الولد بعنوان الأقربين، الذي هو من الكلي المشكك لأن القربى على مراتب متعددة من حيث الصلة والقرب والبعد والوجوه اعلاه كلها تصلح مجتمعة لتعليل عدم ذكر الآية للولد.

الخامس : الآية بصدد وبيان الإنفاق المستحب وما ينبغي على المكلف اتيانه وليس الإنفاق الواجب بدليل ان بعض اصناف

---

(1) سورة الشورى ٢٣.

الزكاة الواجبة مثلاً لم يذكر في هذه الآية.

السادس : يحتاج الإنفاق على غير الولد الى قصد القربة واستعداد لأخراج المال وانفاقه وارادة دفعه للغير.

السابع : الإنفاق على الولد لا يحتسب احسانا على الغير فالإنسان أياً كانت ملته يشعر بلزوم الإنفاق على الابن ولو بخصوص الواجب منه.

قاعدة

مع الاختلاف بافادة (الواو) للترتيب او عدمه، وذكرنا لقول جديد هو برزخ بينهما وهو انها قد تفيد الترتيب او عدمه بلحاظ القرائن والامارات، فان (الواو) في الآية تفيد الترتيب من خلال الآيات القرآنية الاخرى التي تدل على الأولوية القطعية للوالدين وضرورة تقديمهما، وبذا نستظهر قاعدة جديدة في علوم القرآن وهي ان الآية لا تفسر غيرها فحسب، بل تبين كليات تصلح للتطبيق على شواهد اخرى ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

تفسير قوله تعالى ﴿وَالْيَتَامَى﴾

اليتيم هو الصغير الفاقد لأبيه ممن لم يصل سن البلوغ، ولقد أولى الإسلام اهمية خاصة لليتيم وحث على العناية به واكرامه واعداده لمسؤولياته في البناء الإجتماعي والسياسي واعدام الفوارق المادية والإخلاقية والتربوية بينه وبين غيره من الأولاد الذين يعيشون في ظل آبائهم.

---

(١) سورة النحل ٨٩.

وتظهر الآية عظيم العناية باليتيم، فهي نوعية ومأمور بها من عنده تعالى، أي ان الولد اذا مات ابوه تعاهدته الأمة حضانة وتربية واعداداً .

عن قتادة قال: اتقوا الله في الضعيفين: اليتيم، والمرأة، أيتمه ثم أوصى به، وابتلاه وابتلى به)[1].

وفي الآية بعث للسكينة والطمأنينة في نفوس الآباء وطرد للقلق والخشية عليهم، فلا ترتابهم الظنون بصدد ابنائهم ومصيرهم فيما لو جاءتهم المنية واصبح الاولاد ايتاماً، كما انها تساعد في الاحتراز من الحرام، فمتى ما أدرك الأب ضمان معيشة ابنائه وكفالتهم بعد مماته فانه يجتنب الحرام ولا يندفع في الكسب غير المشروع.

ان أنظمة شركات التأمين لم ترق الى هذه الكلمة وحدها وهي ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾، ولا بأس باشتراك المؤسسات الانسانية العالمية والوطنية مع شركات التأمين ونحوها في هذا الصدد لتهيئة سبل الحياة الكريمة للأيتام.

والآية الكريمة تحث على تنظيم الجمعيات الاسلامية الخاصة بالأيتام عملاً بمنطوقها، فإن قلت: لا دليل في الآية على مثل هذا الأمر .

قلت: ان الآية القرآنية قاعدة كلية لها مصاديق متعددة بحسب الزمان والمكان ، قال تعالى ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[2].

---

(١) الدر المنثور ٤٦/٣.

(٢) سورة النساء ٩.

وفي هذا الزمان اتخذ العمل صيغة جماعية وتنظيمات لها قوانينها، فيكون من اللازم على المؤمنين ابراز التكليف والأمر الإلهي بالصيغة الأكثر نفعاً، واستثمار الارتقاء العلمي والتنظيم النوعي لمؤسسات المجتمع في تعظيم شعائر الله واكتناز الصالحات.

ويمكن احتساب الآية من آيات "التكافل" ولها دلالات عقائدية فهي تحث بالدلالة الإلتزامية على الجهاد في سبيل الله عز وجل وعدم التردد فيه بسبب الخشية على الأولاد والذرية، وتدعو الى العناية بأولاد الشهداء على نحو مركب أي لأنهم يتامى ولأن اباءهم قتلوا في سبيل الله.

تفسير قوله تعالى ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾

والمساكين جمع مسكين وهو الفقير المحتاج، ومنهم من قال ان المسكين هو الذي يسأل الناس، والفقير الذي يقعد في بيته ولا يسأل الناس، ولم يثبت هذا التفصيل، والحق ان مناسبة المقام والموضوع تجعل لفظ ﴿ الْمَسَاكِينِ ﴾ الوارد في الآية شاملاً للفقراء والمحتاجين عموماً، خصوصاً وان الآية جاءت في باب الاحسان والانفاق.

وقدم عليهم في الترتيب اليتامى لأن المساكين قادرون على الكسب في الجملة بخلاف اليتامى، ولأن المسكين يستطيع ان يدفع عن نفسه وان يسأل حاجته ويختار مواطن السؤال.

تفسير قوله تعالى ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾

وهو المسافر الذي نفدت نفقته او تلفت راحلته او انكسرت سيارته او سفينته وتعذر معها وصوله الى بلده، فيعطى من الزكاة وان كان غنياً في بلده ما دام يصعب عليه احضار ماله في

موضع حاجته وحال السفر.

وفي الإنفاق على ابن السبيل استقرار اجتماعي ودفع للذلة والفاقة، وقيل ان هذه الآية منسوخة بآية المواريث، ولكن موضوعها مختلف عن آية المواريث فلا يحصل التعارض الذي يشترط فيه اتحاد الموضوع في المتعارضين، فموضوع هذه الآية هو الإنفاق الإختياري حال الحياة، اما آية المواريث فموضوعها ما بعد موت المورث .

تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

في الآية مسائل:

الأولى : الآية قاعدة كلية ثابتة لا تنحصر بموضوع الانفاق بل تشمل كل احسان ولو بالكلام او بالعناوين الاعتبارية.

الثانية : تخبر الآية عن علمه تعالى بكل ما يفعل الإنسان، ومن اسمائه (العليم) فكل الأشياء والأفعال حاضرة عنده.

الثالثة : تحث الآية على الإلتزام بمضمونها في الانفاق ووجوهه، فمتى ما علم العبد ان الله عز وجل يعلم ما يفعله من وجوه الصلاح والبر، فانه يسارع اليها بشوق رجاء الرحمة والثواب، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[1].

الرابعة : خاتمة الآية أعم من موضوعها اذ تتعلق بكل احسان وبر وان كان في غير المال من وجوه صلة الرحم ومنها التحية والسلام، كما انها لا تنحصر بالأفراد وصيغ الإنفاق المذكورة في هذه الآية فيشمل الإنفاق على غيرهم والإنفاق في سبيل الله.

---

(١) سورة المؤمنون ٦١.

الخامسة : تشمل الآية الأفعال الجماعية والنوعية والإنسانية العامة وتأسيس الجمعيات والمؤسسات الخيرية الكفيلة بالعمل وفق منطوق هذه الآية والآيات المشابهة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

السادسة : من وجوه الخير الدعوة الى الإنفاق على الوالدين والأقربين المذكورين في هذه الآية والداعي الى الخير كفاعله، كما انه من مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

السابعة : لفظ (الخير) الوارد في خاتمة الآية اعم من لفظ (الخير) الوارد في صدرها والذي تعلق بالإنفاق، اما هنا فيشمل وجوه البر والإحسان والنفع الحسن والصلاح والإنفاق والهداية وهو نقيض الشر.

الثامنة : في الآية دعوة لنيل ثواب الإنفاق لمن لا يستطيع الإنفاق ولا يمتلك المال الكافي له مما هو زائد عن المؤونة، فحينما امر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأغنياء بالإنفاق وبين عظيم ثوابه جاءه الفقراء واعتذروا بعدم استطاعتهم الإنفاق وحرصهم على نيل ثوابه فامرهم بالتسبيح، ولكن الأغنياء قاموا بالجمع بين الإنفاق والتسبيح المخصوص لنيل ثواب كل منهما ولما رجع الفقراء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخبرونه عن بقاء الفارق بينهم وبين الأغنياء فتلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة ٢.

(٢) سورة المائدة ٥٤.

التاسعة : لا ينحصر علم الله تعالى بالثوابت والأصول بل هو عام ومطلق، ويشمل الجزئيات والأمور المستحدثة ، وجاء على نحو الجملة الإسمية التي تدل على الدوام والثبات .

إن الله عز وجل يعلم ما هو كائن وما يكون قبل أن يقع وفي إحتجاج موسى على فرعون كما في التنزيل ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ◆ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1]، أما القول بأن الله عز وجل لا يعلم الشيء قبل أن يوجده ويخلقه فلا أصل له، وهو خلاف مشهور علماء الإسلام، وتبين آيات القرآن بأن الله عز وجل أحاط بكل شيء علما أي الموجود والمعدوم، قال تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[2]، وقال تعالى ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[3].

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

(١) سورة طه ٥١-٥٢.

(٢) سورة الأنعام ٢٨.

(٣) سورة الأنفال ٢٣.

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٣٢	إفاضات الآية
٨	قوله تعالى ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾	٣٤	الصلة بين أول وآخر الآية
٨	الإعراب واللغة	٣٧	من غايات الآية
١٠	في سياق الآيات	٤١	تفسير قوله تعالى ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾
٢١	إعجاز الآية	٤٣	تفسير قوله تعالى ﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾
٢٢	الآية سلاح	٤٦	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾
٢٤	مفهوم الآية	٥٢	تفسير ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾
٢٧	الآية لطف	٥٣	بحث بلاغي

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٥	قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	٨١	الصلة بين أول وآخر الآية
٥٥	الإعراب واللغة	٩٣	من غايات الآية
٥٦	في سياق الآيات	٩٦	التفسير
٧٠	إعجاز الآية	٩٦	قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾
٧٣	الآية سلاح	٩٩	تفسير قوله تعالى ﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾
٧٧	أسباب النزول	١٠٤	﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾
٧٧	مفهوم الآية	١٠٦	تفسير قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٢	قوله تعالى﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	١٣٢	الآية لطف
١١٢	الإعراب واللغة	١٣٥	إفاضات الآية
١١٥	بحث بلاغي	١٣٨	إكرام الآية للمسلمين
١١٦	في سياق الآيات	١٤٠	الصلة بين أول وآخر الآية
١١٩	إعجاز الآية الذاتي	١٤٤	من غايات الآية
١٢١	إعجاز الآية الغيري	١٥٢	تفسير ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
١٢٣	الآية سلاح	١٥٥	تفسير قوله تعالى﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾
١٢٥	مفهوم الآية	١٥٧	تفسير ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٨	تفسير قوله تعالى ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾	١٦٦	تفسير قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
١٥٩	قوله تعالى ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾	١٦٧	بحث روائي
١٦١	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾	١٦٩	قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾
١٦٣	تفسير قوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾	١٦٩	الإعراب واللغة
١٦٣	تفسير قوله تعالى ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾	١٧١	بحث بلاغي
١٦٥	تفسير قوله تعالى ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾	١٧٨	في سياق الآيات

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٤	إعجاز الآية الذاتي	٢٠١	الصلة بين أول وآخر الآية
١٨٧	إعجاز الآية الغيري	٢٠٥	من غايات الآية
١٩١	الآية سلاح	٢٠٦	تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾
١٩٢	أسباب النزول	٢٠٨	تفسير قوله تعالى ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾
١٩٣	مفهوم الآية	٢٠٩	تفسير قوله تعالى ﴿مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾
١٩٧	إفاضات الآية	٢١٣	بحث بلاغي
١٩٨	الآية لطف	٢١٤	تفسير قوله تعالى ﴿وَزُلْزِلُوا﴾
٢٠٠	إكرام الآية للمسلمين	٢١٥	تفسير قوله تعالى ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢١٧	تفسير قوله تعالى﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾	٢٤٤	إفاضات الآية
٢٢٠	قوله تعالى﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾	٢٤٥	الآية لطف
٢٢٠	الإعراب واللغة	٢٤٨	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٢٢	في سياق الآيات	٢٥٥	من غايات الآية
٢٣٣	إعجاز الآية	٢٦٤	تفسير قوله تعالى﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾
٢٣٩	الآية سلاح	٢٦٧	تفسير ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِنْ خَيْرٍ ﴾
٢٤١	أسباب النزول	٢٦٩	بحث بلاغي
٢٤١	مفهوم الآية	٢٧٠	تفسير قوله تعالى﴿ فَلِلْوَالِدَيْنِ

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٧١	بحث أخلاقي	٢٨٠	تفسير قوله تعالى ﴿وَالْمَسَاكِينِ
٢٧٤	تفسير قوله تعالى ﴿وَالْأَقْرَبِينَ	٢٨١	تفسير قوله تعالى ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾
٢٧٨	قاعدة	٢٨١	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾
٢٧٩	تفسير قوله تعالى ﴿وَالْيَتَامَى﴾	٢٨٤	الفهرس